قراءة لسور الطعن

عمرو الشاعر

مكتبة النافذة

قراءة لسور الطعن

عمرو الشاعر

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩

رقم الإيداع ٢١٢٥١ / ٢٠٠٩

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة



الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى(ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً

[النساء : ٨٢]

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا

[محمد : ٢٤]

بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ

[الأنبياء : ١٨]



تقـديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الرحيم الرحمن، خلق الإنسان علمه البيان، أنزل الله القرآن الفرقان، فيه رشاد الإنسان وما يكون وما كان .

الحمدلله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، كتابا قيما مرشدا جامعا هاديا، ما فرط فيه ربه من شيء، هو صراطه المستقيم وطريقه القويم، وكلامه المتين ونوره المبين، أنزله هداية للناس أجمعين، فله الحمد كله والثناء الجميل كله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوكل عليه ونبرأ من الحول والطول إلا إليه، فمنه العون كله وبيده الخير كله وإليه يرجع الأمر كله، أما بعد : فلقد خلق الرب القدير العظيم الإنسان وشرفه وكرمه وجعل له هدفا وغاية من وجوده على هذه البسيطة، وذلك أن يعمرها ويعبده . ولم يترك الله العليم الخبير الإنسان حائرا تائها مع إخوانه، بل تتبعه بالعناية منذ نشأته وفي جميع أطواره، فخلقه في الصورة التي أراد وجعله في أحسن تقويم، ثم أرسل له الرسل الكرام والكتب العظام لتعلمه هدفه وغايته وسبب وجوده على هذه البسيطة، فتتابعت

كلمات الرحمن في مختلف الأمكنة والأزمان تدعو الناس إلى عبادة الديان، فجاءت الرسل والكتب تترا، كلها لهدف واحد وغاية واحدة وهي عبادة الله الرحمن الرحيم . وتوالى نزول الكتب وبعثة الرسل حتى جاء الكتاب الخاتم، كتاب الله العظيم الفرقان القويم، هداية العالمين القرآن الكريم، فقال الرب العليم فيه للناس أجمعين أن الرسالة واحدة منذ مبدأها إلى منتهاها " شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ [الشورى : ١٣] "

فليس هناك تبديل ولا تحويل ولا تغيير " اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً [الكهف : ٢٧] "

فلقد كمل الدين وتمت النعمة وعم الفضل وجاء الرسول الخاتم بالرسالة الخاتمة " مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً [الأحزاب : ٤٠] " . ومات الرسول مثلما مات إخوته من الرسل، وبقيت الرسالة للعالمين أجمعين . وتولى المسلمون رسل رسول الله حمل الرسالة وتبليغ الأمانة، فتعهدوا القرآن بالرعاية أيما تعهد، وتناقلته الأجيال تناقل المبلغ للأمانة فما قصّروا وما فرطوا.

ولما كانت الرسالة الخاتمة هي كلمة الله الأخيرة إلى البشرية كان على العرب أن يبلغوها إلى البشرية كلها، عربها وعجمها، وحمل العرب الرسالة ونقلوا ونشروا الكتاب العزيز في أنحاء المعمورة، فدخل الناس في دين الله أفواجا مصداقا لوعد الله لرسوله، فأظهر الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون !

وآمن المسلمون الأُول بالكتاب محكمه ومتشابهه مسلّمين أنه كله

من عند ربهم، فما لم يعرفوه ولم يظهر لهم سيظهر لمن بعدهم، وظل الصحابة والتابعون على هذا المنهج المقر بالتبعية والقصور أمام الكتاب الكريم، ولكن لما دخل الناس في دين الله أفواجا كان أكثرهم من الأعاجم الذين لم يعرفوا القرآن ولا اللسان العربي المبين، فآمنوا به لما رأوا فيه من الهداية والرشاد . ومع ذهاب عهد الصحابة والتابعين ظهرت أجيال لا تعرف قدر القرآن ولا منهج التعامل معه، فظهرت كتب تفسير للكتاب العزيز[1] ! تعاملت معه كما يُتعامل مع أي كتاب بشري، فرأينا في هذه الكتب من العجب العجاب، فبدلا من أن يجهد السيد المفسر نفسه في فهم الآية كما هي أو يقر بقصور فكره أمامها، كان يقوم بلي الآية حتى تصير على الوجه الذي فهم وأراد، وحتما فهمه هذا هو مراد الله ! فلا يمكن أن تُفهم الآية إلا إذا قلنا بتقديم أو تأخير أو حذف أو إضافة أو جعل كلمة مكان كلمة أو بفهم كلمة بمعنى كلمة أخرى، وكل هذا جائز في كلام العرب . فاختلط الحابل بالنابل في كتب التفسير ورأينا فيها من الخلافات والاختلافات ما لا يحصى ولا يعد ! وهكذا أصبحت كتب التفسير حجة على كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! ولما كان منهج المفسرين منهجا غير قويم كان لا بد لهذا المنهج أن يخرج الكثير والكثير من العور الذي تلقفه أعداء الإسلام من أجل الطعن في دين الله عزوجل، فرأينا منذ قديم الزمان طعونا في الإسلام، ليس جلها في القرآن وإنما في أقوال وأفهام البشر للقرآن، ورد عليهم من خلفهم بردود تفتح أبوابا جديدة للطعن !

---

[1] القرآن العظيم كتاب كريم مبين لا يحتاج إلى تفسير ، وإنما يحتاج إلى منهج آخر قدمه الرب العليم في القرآن المبين وهو التأويل . وليس التأويل بمعنى التأويل المعروف والمتبادر إلى الذهن وإنما هو بمعنى آخر تماما لمزيد من التفاصيل يرجى مراجعة كتابنا " لماذا فسروا القرآن ، القرآن بين التفسير والهجران " على موقعنا على الشبكة المعلوماتية www.amrallah.com

ولم يعد الأمر في أيامنا هذه جد عسير كما كان من قبل، فيحتاج الطاعن أو المشكك أن يقتني من الكتب ما لا يتيسر إلا لأصحاب الأموال الطائلة والمنظمات المتخصصة في النقد، وإنما أصبح الأمر لا يتكلف أكثر من امتلاك جهاز حاسوب واتصال بالشبكة المعلوماتية، وبهذا يستطيع القارئ أو المفكر أو الطاعن التبحر في الكتب الإسلامية وغير الإسلامية كما يَعِنّ له، فيبحث في هذا وينظر في ذاك وينسخ هذا ويسجل هذا، ثم يخرجون علينا بما تفتقت به قرائحهم تشكيكا في كتاب الله عزوجل. ولما كان عامة المسلمين يفهمون القرآن الكريم من خلال كتب التفسير ويلغون عقولهم من أجل أقوال هؤلاء العلماء الأجلاء، فهؤلاء حتما أكثر منهم علما ودراية، أصبح الطعن في أقوال المفسرين وتفسيراتهم ! طعنا في كتاب الله عزوجل ! وشهادة بعدم صلاحية وبطلان هذا الكتاب، أو على الأقل شهادة بتاريخانية هذا الكتاب ! *ولما كان القرآن كتابا فريدا لم تر البشرية مثله* – ولن ترى – في تاريخها، شاء الملاحدة وغير المسلمين أم أبوا، فريدا في أسلوبه وراقيا في بلاغته وحكمته، ومجرِّدا تجريدا لم ولن ترى البشرية مثله، احتار الطاعنون من أين يأتون القرآن، فلو تناولوا بعض الآيات وزعموا تعارضها مع آيات أخرى سيجدون أمامهم كتب الفقه وكتب التفسير وأقوال العلماء تفند أقوالهم وترفع هذا التعارض المزعوم، ثم إن القول بالمجاز نجاة لكل غارق، فما من مشكلة وإلا لها في المجاز حل ! فاستعصى عليهم هذا الأمر، فلم يجدوا أمامهم إلا أن يضربوا ويطعنوا في الأصول حيث لا حل معقول، فترك بعضهم مسألة الآيات وتعارضها وانتقل إلى مسألة بلاغة القرآن وبيانه، فقال : إنكم معاشر المسلمين تزعمون أنّ القرآن كتاب بليغ حكيم رسالة لكل العالمين، تحدى البشر بأقصر سورة منه، وطلب إليهم أن يأتوا بسورة واحدة مثل ما أتى. وبداهة سيُقرّ لهم المسلمون بما يقولون، فهذه من المسلّمات عند أي

إنسان مسلم، فالقرآن معجز[٢] بأقصر سورة منه وهو كله إعجاز للعالمين. فقالوا : إذا كان الأمر كذلك، فما لنا نرى سورا كاملة لا يستطيع مفسروكم أن يجزموا فيها بقول، فكلهم فيها متخبط، يذكر فيها أقوالا معدودات مختلفات، لا يربطها رابط ولا يجمعها جامع، ولا تعرف ما المراد منها، هل هو كذا أو كذا أو كذا، فبعد أن يتخبطوا في مفتتح السور، يبدأون في إكمال السور على غير ذات هدى، فيتناولون كل آية بمفردها شارحين لمعنى كل كلمة، إذا استطاعوا ! ثم ينهون السورة بذلك ! فما فهمنا نحن ولا هم أعلمونا ما مراد الله من هذه السور وما الغرض منها، ثم كيف تكون هذه السور معجزات إذا كانت غير مفهومات ! فإذا أخذنا بأقوال المفسرين فيها وجدنا تخبطا وعدم انسجام وصورا بدائية لا تناسب عصورنا هذه ! فكيف تطالبونا أن نؤمن بمثل هذا القرآن، الذي يحتوي من السور الكثيرات التي لا تفهمون أنتم معناها ولا مغزاها، وبسبب جهلكم تتحججون بمسالة المحكم والمتشابه، ونحن لا نقر بهذا، بل نراه خبطا من محمد آمنتم به تقليدا لآبائكم ! ويقف المسلم أمام هذه الأقوال حائرا، متمسكا في عين الوقت بما قاله المفسرون القدماء بشأن هذه السور والآيات، فليس أمامه أي حل آخر.

ولقد كنت أنا نفسي واحدا من هؤلاء المسلمين الذين لا يلقون بالاً لطعون هؤلاء الطاعنين، إلى أن حدث وقرأت مقالا لأحد هؤلاء الملاحدة على منتدى يساري، تناول فيه هذا الملحد تفسير سورة العاديات – وليس سورة العاديات– بالتفصيل والتحليل الممل، فما ترك وجها للمفسرين أو قولا إلا وعرضه وفنده ووضح تهافته، ثم عاد وأقر بصحة أقوال المفسرين، فأخرج صورة مقطوعة التواصل فاقدة المعالم لسورة

---

[٢] القرآن الكريم ليس معجزا وليس إعجازا ولكنه آية على كونه من عند ربه ، فالله لم ينزل كتابا ليعجز البشر وإنما أنزله ليهديهم ويرشدهم .

قرآنية، وسأل في آخر مقاله متحديا: والآن فما هو وجه البيان والإعجاز في هذه السورة التي لا تحتوي إلا أفعالا لمجتمعات بدائية همجية ؟ هل تريدونا أن نؤمن بمثل هذه السور ؟!

فكان كلامه هذا محفزا لي أن أنظر في هذه السورة لأرى، هل تقول السورة فعلا بما يقوله المفسرون أم أنها تقول بشيء آخر، فبدأت بالسورة الكريمة والتي أصبحت مضرب المثل لكل طاعن في فصاحة وبيان وبلاغ القرآن وأصبحت المثال الأول لغموض القرآن، فما وجدت في السورة كلها إلا كلمتين غير معروفتين بالنسبة للقارئ العادي ! وما عداهما فمعروف مألوف ولكنها الغفلة والذهول، فلما نظرت في السورة وجدت أن كل ما قاله المفسرون بشأن أولها ليس له أي علاقة بالنص الكريم، بل النص في واد وأقوالهم في واد آخر، فلما ربطت فهمي بباقي الآيات ظهر لي أن السورة من أولها إلى آخرها موضوع واحد متجانس متكامل مرتبط، معروض بأسلوب بلاغي أقل ما يوصف به أنه فريد جبار ! فلما رأيت السورة مضرب المثل غير غامضة ولا مستعصية ولا متقطعة، عقدت العزم على تناول باقي إخوتها وهي النازعات والمرسلات والذاريات، والتي كنت أنا نفسي أتمنى أن أفهمها وأعرف مراد الله فيها وكيف أنها سور بينات الدلائل، فلما نظرت في باقي السور وجدتها كذلك مشهورة المعاني يسيرتها، ولا يغمض في السورة كلها إلا كلمتين أو ثلاثة ! يُفهم معناها من خلال سياقها، وكانت المفاجأة الكبرى أن السور كلها كانت تسير على منهاج واحد في العرض والتناول ! فليست المسألة مجرد رصّ لآيات بجوار بعضها وإنما هو ترتيب علمي منطقي عجيب ! لا ترى مثله إلا في القرآن، هذا بغض النظر عن الصور البلاغية المعروضة في مفتتح هذه السور ! هذا إذا أعرضنا عن الوحدة الموضوعية لكل السور التي تناولتها ! ولست اقصد بالوحدة الموضوعية ذلك المعنى الذي يقول به القائلون من أن السورة

تحتوي بعضا من المواضيع المتصلات المرتبطات المعنى، *وإنما كانت السورة كلها من أولها إلى آخرها تناقش موضوعا واحدا فقط!* عُرض في أحد آياتها، فتتناوله السورة من أولها إلى آخرها تناولا مبدعا عجيبا تحيط به من جوانب شتى، لا يتوقع الإنسان أن تتناولها، وتبعد في تناولها هذا عن التعميمات أو الجدليات وإنما تأتي فيه من الأدلة والبينات ما لا يجادل فيه إلا مجادل خرّيت الجدل، ختم الله على قلبه وسمعه وبصره. فلما تهاوت هذه المطاعن أمام التدبر في كتاب الله رأينا أن نتناول بعض المطاعن الأخرى المشتهرة في كتاب الله العزيز مثل القول بالتاريخانية في موضوعاته وكيف أنه من عند محمد لا محالة، لجعله بعض سور القرآن في مثل هذه المواضيع، فلما عرضنا لنموذج مما يتشدقون به وهو سورة قريش وجدنا فيها عجبا حقا، وسيرى القارئ الكريم فيها بإذن الله تعالى عند مروره بتناولنا لها أن هذه السورة أتت بجماع عجيب لمعان لا تخطر على بال الإنسان بحال من الأحوال. والمطاعن في كتاب الله من هؤلاء لا تنتهي، فهناك القائل بسذاجة السور وسطحيتها فأتينا لهم بسورة التين وتناولناها تناولا لم نُسبق إليه، أثبتنا به أن الطاعن لا يفهم ولا يعرف! وهناك القائل بالتكرار فعرضنا لسورة التكاثر، وهناك السائل ببراءة الأطفال: أنا لا أرى، أروني، فعرضنا له سورة الكوثر والتي هي أقصر سور القرآن، لكي نريه فعلا أنه لا يرى، وعرضنا للطاعن بالتكرار سورة التكاثر! وللطاعن بانقطاع الوحدة الموضوعية سورة القيامة وللطاعن بالخرافة والدجل سورة الفلق، عرضا سيرى فيه القارئ عرضا جديدا فريدا ملتزما بنص السورة، مخرجا منها وجوها ما جالت بذهن ولا خطرت ببال من قرأ السورة آلاف المرات! وكذلك عرضنا لهؤلاء الملاحدة سورة ما طعنوا فيها وهي سورة الضحى، لنوضح لهم أنهم في دعواهم بأن القرآن من عند محمد دعوى باطلة تكذبها هذه السورة التي ما رأوا

فيها شيئا، لأنهم لا يقرأون القرآن إلا بعين طاعن باحث عن خلل وعور ! ولن يجده إلا في أقوال المتعاملين مع النص، أما في النص نفسه فمعاذ الله أن يجد فيه ذلك، فلقد نفى الله عن كتابه شبهة الخلاف والاختلاف فقال " أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً [النساء: ٨٢] "، فليس في الكتاب خلاف ولا اختلاف وإنما هو كتاب واحد من عند رب واحد يجد فيه الإنسان الهداية والرشاد بإذن رب العباد .

وبداهة سيقفز إلى ذهن القارئ: وكيف أتيت أنت بما لم يأت به الأوائل ؟ كيف لم يصل المفسرون الأوائل إلى ما وصلت إليه أنت ؟

نقول: المسألة ليست مسألة علم، فإذا نحن تعرضنا للعلم فإني أقر وأقسم أن السادة المفسرين كانوا حقا أكثر مني علما وأني لا أقارن نفسي بهم ولكن المسألة مسألة منهج في التعامل مع الكتاب العزيز، فلقد كان لهم منهجا يخالف المنهج الذي نعمل نحن به، وليست المسألة مسألة عبقرية من المؤلف في الإتيان بمنهج جديد لم يسبق إليه، وإنما المسألة مسألة التطور الزمني لمناهج التعامل مع النصوص، فمن يتعامل مع نص كتابي في أيامنا هذه، يتناوله بطريقة مختلفة عمن يتعامل معه منذ مائة عام، فما بالنا بمن تعامل معه منذ مئات السنين، ولا يعني هذا أن منهجنا في التعامل مع الكتاب العزيز هو من المناهج الجديدة المستحدثة، لا على الإطلاق، بل هو منهج قديم منطقي مهمل! ويمكننا اختصار منهجنا كله في ثلاث كلمات، المنهج الظاهري التحليلي الخضوعي! أي أننا نتعامل مع النصوص القرآنية كما هي، كلمة كلمة وحرفا حرفا، وأرجوا أن لا يسيء القارئ فهم كلمة الظاهري هذه، فنحن وإن كنا ننفي وجود المجاز في القرآن إلا أننا لا نفهم مثلا قوله تعالى " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " على أنه جناح مثل جناح الطائر، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى

كتابنا " لماذا فسروا القرآن، القرآن بين التفسير والهجران "، إذا فنحن نتعامل مع النصوص من منطلق خلوها من الزيادات أو النقصان ومن الحشو ومن الفوضوية، ومن الممكن القول أن هذه العناصر متوفرة بشكل كبير في تعامل المفسرين مع القرآن، ولكن النقطة الفاصلة الحاسمة في اختلاف المناهج هي مسألة الخضوع، فجل السادة المفسرين لم يخضعوا للنص القرآني وإنما أخضعوه هم لأفهامهم ولخلفيتهم المعرفية وللأقوال البشرية، لذلك أضاعوا الكثير من البينات الجليات في كتاب الله العزيز. أما نحن فنقر بأن القرآن كتاب لكل العصور لا يخضع لعصر أو لبيئة محدودة أو لعادات وتقاليد مخصوصة، ونسلم بأن القرآن الكريم كتاب تجريد، خاطب الإنسان بما سيحتاجه وسيقابله ويمر به في جميع أطواره ومختلف أحواله، مهما زاد تقدمه العلمي أو انحط مستواه الفكري، فسيجد في القرآن ما يناسبه! لذا فمن ينظر في خطابات القرآن الكريم يجد أنها استخدمت الطبيعة كمادة خام لأغراضها، من حيث تقديمها للإنسان وتعريفه بها وتذكيره بفضل الله تعالى عليه في إعدادها من أجله، حيث أنها باقية ما بقى الإنسان، أما أفعال الإنسان فمختلفة من زمان إلى مكان. وانطلاقا من هذا التسليم ومن معرفتنا أن القرآن الكريم استعمل المفردات العربية تبعا لأصولها اللغوية – وليس فقط كما استعملها العرب – أخذنا نسقط المفردات تبعا لأصولها على مقابلاتها في الطبيعة فخرجنا بما لم يأت به الأوائل، وعلى الرغم من وضوح هذه النقطة وظهور حيرة العرب عند نزول القرآن عليهم، حيث أنه استعمل مفرداتهم ليس كما استعملوها هم، فأقروا له بالعجز، إلا أنا وجدنا أن المفسرين المتأخرين صمموا على جعل الألفاظ القرآنية لا تخرج عن الاستعمالات العربية حتى ولو كانت تابعة للأصول اللغوية فمسخوا الدلالات القرآنية وحيروا وتحيروا، وسيجد القارئ بعض النماذج على

ذلك في تناولنا للكلمات، وقد يجد القارئ بعض الشدة منا عن التعرض لأقوال المفسرين ولكن هذا لا يعني أنا نطعن فيهم أو نسيء إليهم وإنما الأمر كله محصور في نقد المنهج، أما الأفراد فهم على العين والرأس، ويحسب لهم أنهم أتوا بذلك العمل الموسوعي " كتاب تفسير " أما نحن فنتناول بعض قصار السور .

ولا نطيل على القارئ ونتركه مع هذا التناول الفريد لهذه السور، والتي تناولنا فيها أشهر مطاعن الطاعنين وفندناها وأظهرنا ضعفها وتهافتها، ووضحنا جهلهم باللغة وبالقرآن، على الرغم من دعاويهم العريضة بأنهم درسوا القرآن أيما دراسة! ولكن قبل أن نترك القارئ لا بد أن ننبهه أن تناولنا للسور ليس تناولا تاما كاملا للسور، وإنما كان التناول بغرض إظهار التواصل والترابط والاتحاد، لذلك قد يجد القارئ أحيانا أننا لا نتناول بعض الآيات في أواخر السور الكبيرة – نوعا ما – مثل الذاريات أو المرسلات تناولا فرديا، وإنما تُعرض الآيات مجتمعة من أجل إثبات إندراجها تحت الموضوع ذاته المتناول والمعروض من أول السورة، وذلك لأننا نرى وضوحها وعدم حاجة القارئ إلى التفصيل فيها، فاحتياج القارئ هو أوائل السور وربط الآيات ببعضها وإدراجها تحت موضوع واحد، وهذا ما قمنا به فعلا. أما في السور القصيرة فتناولناها آية آية تناولا فرديا جزئيا. ولا يعني هذا أننا ما تركنا بعدنا مجالا لقائل في هذه السور أو هذه الآيات، لا، فنحن نقر أنا تركنا الكثير والكثير، فنحن لم نتوقف مع كل حرف وكل رابط لنقول لم كان هذا الرابط وهذا الحرف، وإنما توقفنا مع ما لنا فيه حاجة من أجل ردنا وتفنيدنا .

وسيقابل القارئ في هذا الكتاب إحدى عشر سورة، واخترنا هذا العدد تيمنا برؤيا سيدنا يوسف عليه السلام، عشر سور منها هي مما طعن فيه أعداء الإسلام والسورة الحادية عشر، والتي رأينا أن نضعها في

الترتيب السادس، فأتى قبلها خمس سور – هي السور الغير قصيرة – وبعدها خمس أخريات، وهي سورة الضحى، ليست مما طعن فيه أحد على حد علمي، ولكنا نطعن بها نحن هؤلاء المدعين للعلم والمعرفة لنريهم كيف أنهم لم يقرأوا القرآن ولم يتدبروه معشار حق تدبره .

ونختم تقديمنا هذا بأن نطلب إليك أيها القارئ الدعاء للكاتب، ونتركك مع هذا الكتاب، داعين الله أن يتقبله منا قبولا حسنا وأن يجعله في ميزان أعمالنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

يشغب كثير من أعداء الدين على القرآن بخصوص مسألة البيان فيرون أن القرآن يحتوي كثيرا من السور الغامضة التي لا يفهمها حتى مشائخ الإسلام أنفسهم، وبداهة لا يعرف لها العوام مغزى أو مرادا! ويضربون على ذلك بعض الأمثلة، وتأتي على رأس هذه الأمثلة سورة العاديات، حيث أنها تمثل النموذج المفضل لهؤلاء المشغبين من شباب الإنترنت فأصبحت مضرب الأمثال ونموذجا للتحدي، فيسأل هؤلاء: ما هو وجه البلاغة والإعجاز في هذه السورة وما هو معناها أصلا؟

والحق يقال أن السورة تحتوي فعلا كلمتين! لم نعد نستعملها هذه الأيام ولم نعد ندرك معناهما بسهولة إلا إذا رجعنا إلى المعاجم وهما " الضبح والكند " وما عدا ذلك فهو من المعروف المتداول ولكن المشكلة أن السادة المفسرين شغبوا على المعاني المتباردة إلى الذهن! ولكن هل يعني هذا أن السورة غامضة أو لا تحتوي أوجها بلاغية عظيمة؟ بداهة

هم في هذا واهمون لأنهم ما تدبروا السورة وما نظروا فيها حق النظر، لذا فسنقوم متكلين على الله بالتعرض لهذه السورة لنستخرج لك عزيزي القارئ أوجها بلاغية عظيمة ومعان إعجازية جليلة وتقسيمات عجيبة لم تخطر على بال هؤلاء الشباب الأغرار، كما أننا سنقدم فهما جديدا في مسألة العاديات الموريات المغيرات المثيرات وحجتنا في هذا أنه لم يأت حديث صحيح مرفوع إلى النبي الكريم في معنى هذه الألفاظ، كما أن الصحابة أنفسهم والتابعون لم يجزموا فيها بمعنى، كما أن كل التفسيرات الواردة فيها لا تتطابق تمام التطابق مع النص القرآني، لذلك احتار المفسرون أيما حيرة في هذه السورة، فتراهم يعرضون الأقوال ولا يستطيعون أن يجزموا فيها بشيء! لذا فإننا عندما نقدم الجديد لا نكون قد خالفنا إجماعا أو رأيا محتما وإنما نقدم فهما جديدا للنصوص يتطابق مع الألفاظ الواردة في السورة ويجعل السورة كلها وحدة واحدة ذات معنى عظيم .

التقسيم البلاغي للسورة :

نلاحظ أن مبنى هذه السورة الكريمة كلها قائم على الحدث الفردي والتتابع الثنائي له! كيف هذا ؟ ننظر في السورة الكريمة لنر بأعيننا :

فإذا نحن نظرنا في أول السورة وجدنا أن الله تعالى يقسم بـ " العاديات ضبحا " فهذا مقسم به فردي، ثم بعد ذلك يأتي وصف تابع لهذا المقسم به وهذا الوصف وصف ثنائي (موريات قدحا، مغيرات صبحا)، ثم يأتي بعد ذلك توصيف بالفعل لهذا المقسم به وهو توصيف ثنائي كذلك (أثرن به نقعا، وسطن به جمعا)، ثم يأتي بعد ذلك المقسم عليه، فالله أقسم بالعاديات الموصوفة وصفا ثنائيا مثنى

(وصف بالاسم وبالفعل !) والمقسم عليه قوله تعالى " إن الإنسان لربه لكنود "، ونجد كذلك أن التتابع الثنائي يصدق في جواب القسم، فنجد أن الجواب جوابان وهما قوله تعالى " إن الإنسان لربه لكنود " وكذلك " إن ربهم بهم يومئذ لخبير ".

فإذا نحن نظرنا في المقسم عليه وجدنا أن ما يصدق على المقسم به يصدق كذلك في المقسم عليه! فسنجد أن المقسم عليه وهو " إن الإنسان لربه لكنود " موصوف بوصف ثنائي بقوله " وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد " ثم بعد ذلك تعلق بجملتين فعليتين وهما قوله تعالى " أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور ". فانظر أخي في الله إلى هذا التقسيم العجيب :

آية يتعلق بها آيتين اسميتين وآيتين فعليتين ثم يتعلق بها إثنان من المقسم عليهما! ثم نأتي إلى المقسم عليه الأول فنجد أنه كذلك موصوف بجملتين اسميتين ومتعلق به جملتان فعليتان!

فإذا نحن عرضنا لبعض الأوجه البلاغية في السورة نجد التالي:

تقارب بين الضبح والصبح في المبنى والمعنى، سجع[٣] بين " ضبحا وقدحا وصبحا "، وكذلك في قوله تعالى " نقعا وجمعا " وقوله " كنود وشهيد وشديد " وكذلك قوله " القبور والصدور وخبير ". تقابل بين البعثرة والتحصيل " بعثر ما " و" حصل ما " .

وبعد هذا العرض السريع للتقسيم البديع لهذه السورة الكريمة نعرض المنظور العام للسورة .

[٣] ولا يهولنك استعمال كلمة " سجع مع القرآن ، فالقرآن به سجع ! شاء المتنطعون أم أبوا ، فهو أسلوب بلاغي أدبي حسن ، ولا يعني أن الكهان كانوا يستعملونه أن يكون كل سجع كلام سيء أو أسلوب مذموم ، وإنما حسنه حسن ورديئه مذموم !

المنظور العام للسورة :

يقسم الله تعالى بالسحب الثقال المتحركة حركة سريعة الحاملة للمطر والتي تتجمع فتبرق عن طريق احتكاكها ببعضها (وبداهة هناك مع البرق رعد ومطر فما من برق بدونهما) وهذه السحب تأتي الناس مغيرة صبحا مضيئة! فتثير ذرات المطر فيسقط بين خلق الله ويتجمع فينتفعون به! يقسم الله تعالى بكل هذا على أن الإنسان كافر بنعم ربه غير شاكر لها على الرغم من أنه شاهد عليها يراها وينتفع بها ثم هو محب للخير حبا شديدا وعلى الرغم من ذلك فتصرفاته مناقضة له (فلا يشكر نعم الله) ثم ينبهه الله تعالى إلى أن مآل كل إنسان هو إلى القبر ويصير عظاما نخرة تبعثر ولكن قبل ذلك ستحصل نفسه[1] التي في صدره وتعود إلى الله تعالى، (حتى تعود إليه بعد ذلك في يوم البعث فتزوج به) والله تعالى خبير بالإنسان في حال موته وبعد موته فلا يغفل عنه ولا يتركه فليست هذه هي الحياة الوحيدة التي سيحياها الإنسان وإنما هناك يوم آخر سيصحو له الإنسان يبدأ بالقرع " القارعة ما القارعة " !

وقارن بين هذا التصور الإجمالي الذي نقول به وبين ما يقول به المفسرون واحكم بنفسك أيهما أكثر إحكاما وأيهما يعطي وحدة موضوعية للسورة من أولها إلى آخرها .

و نبدأ الآن في التعامل مع هذه السورة لنعرض كيف خرجنا بما قلنا :

المشهور بين المفسرين أن السورة تدور حول الخيل أو الجمال، ولم نر على حد علمنا تفسيرا آخر للعاديات! ولكنا نرى أن العاديات ليس لها أي علاقة لا بالخيل ولا بالإبل، وإن كل ما في الأمر هو تقاطع جزئي

---

[1] تقبض روحه !

لمدلولات الآيات مع مدلولات هذه الألفاظ، لذا نبدأ بتقديم تصورنا للسورة :

تبدأ السورة بقوله تعالى " والعاديات ضبحا " فما هي العاديات وما هو الضبح ؟ العاديات جمع عادية، والعادية اسم فاعل مؤنث من عدو، فما هو ال " عدو " ؟

إذا نحن نظرنا في معجم مقاييس اللغة لابن فارس* وجدناه يقول :

" العين والدال والحرف المعتل أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يرجع إليه الفروعَ كلّها، وهو يدلُّ على تجاوُزٍ في الشيء وتقدُّمٍ لما ينبغي أن يقتصر عليه. من ذلك العَدْو، وهو الحُضْر. تقول: عدا يعدو عَدْواً، وهو عادٍ. .... قال الخليل: التعدّي: تجاوز ما ينبغي أن يُقْتَصَر عليه. والعادي: الذي يعدو على الناس ظُلْماً وعُدواناً. وفلانٌ يعدو أمرَكَ، وما عَدَا أنْ صَنَع كذا .... وتقول: ما رأيت أحداً ما عدا زَيْداً. قال الخليل: أي ماء جاوَزَ زيداً. ويقال: عدا فلانٌ طَورَه. ومنه العُدْوانُ، قال: وكذلك العَدَاء، والاعتداء، والتعدّي. .... قال: ونقول: عَدَّى [عن الأمر] يعدّي تعديةً، أي جاوزَه إلى غيره. وعدّيت عنّي الهَمَّ، أي نحّيته عنّي. وعدِّ عنّي إلى غيري. وعَدِّ عن هذا الأمر، أي تجاوَزْه وخُذ في غيره. قال النابغة: فعدِّ عمّا ترى إذْ لا ارتجاعَ له وانمِ القُتود على عَيرانةٍ أُجُدِ وتقول: تعدّيت المفازةَ، أي تجاوزتُها إلى غيرها. .... " اهـ

إذا فالله تعالى يقسم بالعاديات وهي كما قلنا جمع عادية، وهي اسم فاعل مؤنث من العدو، فهل من الممكن أن تكون بمعنى الطامة أو الظالمة أو الغاشية ؟ كما ورد في المقاييس ؟ بداهة هذا المعنى غير مراد على الإطلاق، فالله تعالى لا يقسم بما فيه ضرر وظلم للناس وإنما ينبههم

---

* إذا ذكرنا في الكتاب كلمة " المقاييس " فإنا نقصد بها هذا المعجم المقصود ، وكذلك إذا استعملنا كلمة " اللسان " فإنا نقصد بها معجم لسان العرب لابن منظور !

إلى ما فيه كل الخير. فما المراد من العادية هنا إذا ؟ هي كلمة كثيرة المعاني ولكنها تدور كلها بين سرعة الحركة والاعتداء! فما هو المراد من العاديات في هذه السورة عند استبعاد مدلول الاعتداء؟ الملاحظ أن السادة المفسرين قاطبة يكادون يجمعون أن المراد من العاديات هو الخيل أو الإبل ويستندون في ذلك إلى ما ورد في الأثر:

" ما روى عن علي عليه السلام وابن مسعود أنها الإبل، وهو قول إبراهيم والقرظي روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: « بينا أنا جالس في الحجر إذ أتاني رجل فسألني عن العاديات ضبحاً، ففسرتها بالخيل فذهب إلى علي عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت، فقال: ادعه لي فلما وقفت على رأسه، قال: تفتي الناس بما لا علم لك به، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد والعاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى مزدلفة، ومن المزدلفة إلى منى، يعني إبل الحاج، قال ابن عباس: فرجعت عن قولي إلى قول علي عليه السلام» اهـ وقيل أن المراد من ذلك الخيل، وهذا ما رجحه الإمام الفخر الرازي في تفسيره حيث قال: " واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل، وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز، وأيضاً فالقدح يظهر بالحافر مالا يظهر بخف الإبل، وكذا قوله: { فالمغيرات صُبْحاً } لأنه بالخيل أسهل منه بغيره، وقد روينا أنه ورد في بعض السرايا، وإذا كان كذلك فالأقرب أن السورة مدنية، لأن الإذن بالقتال كان بالمدينة .... " اهـ

والذي يعجب منه المرء عند النظر في هذه السورة بالذات أن المفسرين ابتعدوا كثيرا عن المعاني المباشرة للألفاظ فخصصوا

وعمموا وخالفوا وغيروا وكل هذا في آيات قلائل، وسيلحظ القارئ هذا بنفسه، فعلى سبيل المثال يقول الفخر الرازي في هذه الآية " وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس، "، فإذا نحن نظرنا في المقاييس بحثا عن الضبح وجدنا التالي:

" الضاد والباء والحاء أصلانِ صحيحان: أحدهما صوتٌ، والآخَرُ تغيُّرُ لون من فعلِ نار. فالأوَّل قولُهم: ضَبَحَ الثَّعلبُ يَضْبَح ضَبْحاً. وصَوْتُهُ الضُّبَاح، وهو ضابح. قال: دعوتُ ربِّي وهو لا يُخَيِّبُ بأنَّ فيها ضابحاً ثعَيلِب، فأمَّا قولُه تعالى: { وَالعَادِيَاتِ ضَبْحاً } [العاديات ١]. فيقال هو صوتُ أنفاسها، وهذا أقيَسُ، .... وأمَّا الأصل الثاني فالضَّبْح: إحراقُ أعالي العُود بالنار. والضَّبْح: الرَّماد._والحجارة المضبوحة هي قَدَّاحة النّار، التي كأنها محترقة. قال: والمرْوَ ذَا القَدَّاحِ مضبوحَ الفِلَق، ويقال الانضباح تغيُّرُ اللون إلى السواد. " اهـ

فإذا كان هذا هو المعنى اللغوي العام لهاتين الكلمتين فما هو المراد من هذه الآيات ؟

الملاحظ في هذه الآية أن الله عزوجل استعمل وصفا عاما " العاديات " ولكنه خصصه بمخصصات عدة، ولا بد لمن يستخرج معنى العاديات أن يثبت تطابق هذه الأوصاف مع المدلول تطابقا كليا، وهذا ما لا نجده بأي حال في أقوال المفسرين، فإذا نحن طبقنا منهج المفسرين في التجزئة والتقطيع فيمكننا القول: نجد أن الوصف من أول السورة يدور في فلك الاعتداء (لذا فلا يتناسب أبدا هنا القول بأن المراد من العاديات هو الجمال في حال الحج) فمن الممكن أن يتناسب هذا الوصف ينطبق على معداتنا الحربية الحديثة أكثر منه انطباقا على الخيل والجمال، فمعداتنا هي التي تضبح (تحدث أصواتا وتغير لون من فعل نار فتخرج دخانا) وهو توري أقداحا وتغير صبحا وتثير النقع

وتتوسط الجمع !، وسيرى القارئ الكريم من خلال تعرضنا للسورة الكريمة ومن خلال تحليلنا لمفرداتها كيف أن هذا الوصف ينطبق على المعدات الحربية الحديثة. ولكنا لا نقول بهذا القول، لأنه يؤدي إلى تجزئة الآيات وتقطيعها وعدم وجود أي معنى إجمالي متصل من أول السورة إلى آخرها. ولا يعجب القارئ من هذا فيقول: وما علاقة أسلحة الحرب التي تجلب الدمار بنكران النعم وقطع الشكر ؟ نقول: قل هذا لمن قال أن الله أقسم بالخيل أو الجمال التي تعدو فتهجم على المخالفين في حال الصبح لأن هذا هو الوقت هو وقت غفلة وذهول، فهم قطعوا السورة وعضوها ولم يروا في ذلك بأسا، أما نحن فعلى الرغم من أن التطابق بين قولنا في الآلات الحربية أكثر من تطابق الخيل والإبل مع الآيات فإنا لا نقول به لأنه ينسف الوحدة الموضوعية والصورة العامة للسورة !

إذا فما هو المراد من العاديات ؟

العاديات المرادة في هذه الآيات من خلال التوصيف الرحماني لها هي السحب الثقال المحملة المطرة، لأننا إذا طبقنا باقي الأوصاف على أي معنى آخر فلن نجد تطابقا كليا[6]، أما مع السحب فستجد تطابقا تاما كاشفا للألغاز التي أوقعنا فيها المفسرون عند قولهم بالأقوال الأخرى، وابدأ معي عزيزي القارئ في تتبع هذه الأوصاف :

العاديات ضبحا: الضبح كما قلنا هو " صوت وتغير لون " كما جاء في المقاييس، فإذا نحن نظرنا في حال السحب الثقال حال عدوها وجدنا معها صوتا وهو صوت الريح الناقل لها وكذلك صوت الرعد الخارج منها، كما أن فيها تغير لون فالسحب تتغير ألوانها وكلما أثقلت السحب اتجها لونها إلى اللون الداكن، إذا فهذه هي العاديات

---

[6] من الممكن القبول أنها الرياح ، ولكن التطابق لا يكون تاما !

ضبحا السحب المثقلة المحملة بالأمطار والمليئة بالرعود والبروق .

ثم يخصصها الله عزوجل بوصفين آخرين (لا بد أن يتطابقا تماما مع السحب كذلك) والوصف الأول منهما أنها بعد أن كانت عادية ضبحا أنها أوريت قدحا .

والملاحظ أن المفسرين قاطبة غفلوا عن حرف الفاء، فلم يشر أحد منهم إلى فائدته في هذه السورة، فجعلوا مراد الله " والعاديات ضبحا والموريات قدحا "، أما نحن فنراعي حرف الفاء ونجعله لترتيب الوصف، أي أنها عاديات فموريات فمغيرات، وهكذا. ولكن ما هو الإيراء وما هو القدح ؟

هذان اللفظان من الألفاظ المستعملة والمعروفة وستُذكّر القارئ الكريم بمعنيهما الذي ربما قد غفل أوذهل عنه: لقد قال الله تعالى في كتابه الكريم " أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ [الواقعة: ٧١] " إذا فالإيراء معروف وهو إخراج النار، وهو يختلف في المعنى عن الإيقاد، فالإيراء إخراج نار عن طريق احتكاك وليس عن طريق الإشعال المباشر، ويمكننا أن نسهل الأمر للقارئ: إشعال عود الثقاب يعتبر نوع من الإيراء، وعندما يوضع الثقاب المحترق في الورق مثلا فهذا إيقاد وإشعال! ضرب حجرين ببعضهما هو نوع من الإيراء .

إذا فالله تعالى أقسم بالعاديات ضبحا والتي تنتقل من هذا الحال إلى حال آخر وهو إيراء القدح، فما هو القدح ؟

القدح معروف المعنى، فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا التالي:

" القاف والدّال والحاء أصلانِ صحيحان، يدلُّ أحدهما على شيء كالهَزْم في الشيء، والآخر يدلُّ على غَرْفِ شيء. فالأوَّل القَدْح: فِعْلُك إذا قَدَحْت الشيء .... ومن الباب: قَدَّحَتِ العينُ: غارت. ويقال قَدَحَتْ. وقَدَحْتُ النَّار، وقَدحتُ العين: أخرجتُ ماءَها الفاسد. والأصل

الآخر القَدِيح: ما يبقى في أسفل القِدْر فيُغرف بجُهْد. " اهـ

وجاء في لسان العرب " ...... وقَدَحَ بالزَّنْدِ يَقْدَحُ قَدْحاً واقْتَدَح: رام الإيراءَ به.

والمِقْدَحُ والمِقْداحُ والمِقْدَحَةُ والقَدَّاحُ، كله: الحديدة التي يُقْدَحُ بها؛ وقيل: القَدَّاحُ والقَدَّاحة الحجر الذي يُقْدَحُ به النار؛ وقَدَحْتُ النارَ. الأَزهري: القَدَّاحُ الحجر الذي يُورى منه النار؛ قال رؤبة: والمَرْوَ ذا القَدَّاحِ مَضْبُوحَ الفِلَقْ والقَدْحُ: قَدْحُكَ بالزَّنْد وبالقَدَّاح لتُورِيَ؛ الأَصمعي: يقال للذي يُضْرَبُ فتخرج منه النار قَدَّاحة .... " اهـ

إذا فالسحب توري عن طريق القدح وهو الاحتكاك لإخراج النار وهذا ما يقول به العلم الحديث، فهناك سحب ذات شحن سالبة وأخرى موجبة وعند الاحتكاك يحدث الإيراء فينزل المطر ويظهر البرق! وتذكر أن هذا وصف ثابت لهما فالسحب لا محالة تحتك وتخرج برقا، فهذا من وظائفها في النظام الطبيعي، لذلك استخدم الله عزوجل معها الوصف الاسمي " موريات "، وعلى القول الأخر يصبح عملية القدح من الصفات الملازمة للخيل أو للإبل، وهذا ما لا يكون !!

وقارن عزيزي القارئ بين هذا القول وبين من يقول أن المراد من ذلك هو :

" فاعلم أن الإيراء إخراج النار، والقدح الصك تقول: قدح فأورى وقدح فأصلد، ثم في تفسير الآية وجوه أحدها: قال ابن عباس: يريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل فأورت منه النار مثل الزند إذا قدح، وقال مقاتل: يعني الخيل تقدحن بحوافرهن في الحجارة ناراً كنار الحباحب والحباحب اسم رجل كان بخيلاً لا يوقد النار إلا إذا نام الناس، فإذا انتبه أحد أطفأ ناره لئلا ينتفع بها أحد. فشبهت هذه النار التي تنقدح من حوافر الخيل بتلك النار التي لم يكن فيها نفع ومن الناس من

يقول: إنها نعل الحديد يصك الحجر فتخرج النار، والأول أبلغ لأن على ذلك التقدير تكون السنابك نفسها كالحديد وثالثها: قال قوم: هذه الآيات في الخيل، ولكن إبراؤها أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم " اهـ

ثم ننتقل إلى التوصيف الرحماني الثاني لحالة السحاب وهي أنها بعد ذلك تغير صبحا! والذي قد يرى فيه البعض ردا على ما نقول ولكنا نرى فيه تأكيدا لما نقول، فالسحب هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يغير صبحا! أما ما عداها فلا يمكن له ذلك ولا يتحقق فيه أبدا .

فإذا نحن نظرنا في أقوال السادة المفسرين وجدناهم يقولون: " يعني الخيل تغير على العدو وقت الصبح، وكانوا يغيرون صباحاً لأنهم في الليل يكونون في الظلمة فلا يبصرون شيئاً، وأما النهار فالناس يكونون فيه كالمستعدين للمدافعة والمحاربة، أما هذا الوقت فالناس يكونون فيه في الغفلة وعدم الاستعداد. وأما الذين حملوا هذه الآيات على الإبل، قالوا: المراد هو الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى، والسنة أن لا تغير حتى تصبح، ومعنى الإغارة في اللغة الإسراع، يقال: أغار إذا أسرع وكانت العرب في الجاهلية تقول: أشرق ثبير كيما نغير. أي نسرع في الإفاضة. " اهـ

فعلى فهمهم هذا فإن الله تعالى يقسم بحدث انقرض منذ مئات السنين ولم يعد له فائدة، ويعني أنه لو أغارت نهارا أو ليلا فلا عبرة فيها! بغض النظر عن كونه فعل ضرر وظلم وغدر فليس هذا من القتال في الإسلام في شيء، حيث ينبغي علينا أن نعلم المقاتل بقتالنا له ولا نأخذه هكذا غيلة، فكيف يقسم الله عزوجل بالفعل الحرام؟!!

ثم إن الملاحظ أن الخيل أو الإبل لا يمكن أن تغير صبحا أبدا !، من

الممكن أن تغير بالصبح أو في الصبح أو صباحا[7] ، أما أن تغير صبحا فهذا معناه أنها هي أصبحت كالصبح! وليوضح لي السادة المفسرون كيف يتحول الخيل إلى النور والإحمرار!

أما في حالة القول أن المراد من ذلك هو السحب فيكون المعنى هو أن السحب المثقلة بعد عدوها واحتكاكها وايراءها تغير أي تسرع مضيئة عن طريق البرق وبذلك تكون هي نفسها صبحا بغض النظر عن الوقت التي تغير فيها! كما أنها ببرق أو بدونه من الممكن اعتبارها صبحا لأن السحب تكون في الغالب بيضاء فمن الممكن النظر إليها من هذا المنظور أيضا كالصبح!

ثم بعد ذلك انتقل الله عزوجل إلى وصف فعل هذه العاديات، فبعد أن كان يصف حالها وتنقله وتغيره انتقل إلى وصف فعلها، فقال " فأثرن به نقعا " ومن أشد المعضلات التي واجهها السادة المفسرون في هذه السورة مسألة عود الضمير في هذه الآية " فأثرن به " وفي الآية التالية " فوسطن به " فما هو عود الضمير فيهما ؟

اختلف المفسرون كالعادة أيما اختلاف لعدم تطابق الصورة التي يقدمونها مع المنظور القرآني فحيّروا وتحيروا! فقالوا كما جاء في تفسير الرازي :

" الضمير في قوله: { به } إلى ماذا يعود؟ فيه وجوه أحدها: وهو قول الفراء أنه عائد إلى المكان الذي انتهى إليه، والموضع الذي تقع فيه الإغارة، لأن في قوله: { فالمغيرات صُبْحاً } دليلاً على أن الإغارة لا بد لها من وضع، وإذا علم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجز ذكره بالتصريح كقوله: { إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر } [القدر: ١] وثانيها:

---

[7] وراجع الفرق في المعنى عند استعمال حرف الباء و" في " في الزمان في موضوع " قرى قوم لوط " على موقعنا www.amrallah.com

إنه عائد إلى ذلك الزمان الذي وقعت فيه الإغارة، أي فأثرن في ذلك الوقت نقعاً وثالثها: وهو قول الكسائي أنه عائد إلى العدو، أي فأثرن بالعدو نقعاً، وقد تقدم ذكر العدو في قوله: { والعاديات } ." اهـ

وهناك من قال أن عود الضمير على الإيراء لأنه يحدث من خلال العدو أن يثير الخيل التراب!

والعجيب أن النقع معناه معروف ومتبادر إلى الذهن، ولكن السادة المفسرون كان لهم رأي آخر، فيرجح الرازي والمفسرون عامة أن النقع هو التراب !! فنجد أن الرازي يقول في تفسيره مفاتيح الغيب:

" في النقع قولان: أحدهما: أنه هو الغبار وقيل: إنه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع، فالغبار يسمى نقعاً لارتفاعه، وقيل: هو من النقع في الماء، فكأن صاحب الغبار غاص فيه، كما يغوص الرجل في الماء والثاني: النقع الصباح من قوله عليه الصلاة والسلام: « ما لم يكن نقع ولا لقلقة » أي فهيجن في المغار عليهم صياح النوائح، وارتفعت أصواتهن، ويقال: ثار الغبار والدخان، أي ارتفع وثار القطا عن مفحصه، وأثرن الغبار أي هيجنه، والمعنى أن الخيل أثرن الغبار لشدة العدو في الموضع الذي أغرن فيه ." اهـ

فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا أن النقع هو كما يتبادر إلى ذهن كل منا:

" النون والقاف والعين أصلانِ صحيحان: أحدهما يدلُّ على استقرارِ شيءٍ كالمائع في قراره، والآخر على صوتٍ من الأصوات. فالأوّل نَقَع الماء في مَنْقعه: استقرّ. واستَنْقع الشيءُ في الماء. والنُّقُوع: ما نُقِع في الماء، كدواءٍ أو نبيذ. والمِنْقَع ذلك الإناء. والمِنْقَع كالقُدَيرة للصَّبيّ يُطرح فيه اللّبن ويُطعَمه.

ويقال له مِنْقَع البُرَم، ويكون من حجارة. والنَّقيع: شراب يتَّخَذ من

زَبيب، كأنَّ الزَّبيب يُنقَع له. والنَّقِيع: الحَوْض يُنقَع فيه التَّمر. والنَّقِيع والنَّقْع: الماء الناقع.

وماءٌ ناقعٌ كالنَّاجع، كأنَّه استقرَّ قرارَه فكَسَر الغُلَّة. وكذلك النُّقُوع. والنَّقيع: البئر الكثيرة الماء. ونَقْع البئر الذي جاء في الحديث: ماؤها، كأنها قرارٌ له. والأنقوعة: وَقْبَةُ الثَّرِيد. .... والنَّقيعة: المحض من اللَّبن. ..... ويقال: بل النَّقيعة: الطَّعام يُتَّخَذ للقادم من السفر، كأنّه إذا أُعِدّ له فقد نقع أي أُقِرّ. وهذان الوجهان أحسَنُ ما قيل في ذلك، لأنَّهما أقْيَس. ويقولون: النَّقيعة: الجَزُور تُنقَع عَن عدّة إبل، كالفَرَعةِ تُذبَح عن غَنَم. وأمَّا الأصل الآخر فالنَّقيع: الصُّرَاخ، وهو النَّقْع أيضاً. ونقَعَ الصوتُ: ارتفَعَ. قال:

فمتَى يَنْقَعْ صُرَاخٌ صادقٌ يَحلِبُوها ذاتَ جَرسٍ وزَجَلْ " اهـ

إذا فالمعنى الأعم والغالب للنقع هو النقع! أما ذلك الأصل الآخر والذي بمعنى الصوت فليس متبادرا لذا يبعد أن نحمل عليه المعنى، كما أن السياق يجعله مستبعدا !

ونعود إلى الضمير فما هو عود الضمير ؟ إذا نحن نظرنا في الآيات وجدنا أن الإمكانية الوحيدة لعود الضمير هو قوله تعالى " قدحا " أي أن السحب المغيرة تثير بهذا القدح والذي يترتب عنه كما قلنا برق (مغيرات صبحا) فالعاديات أثارت بالقدح نقعا وهو الماء المنقوع والموجود في السحاب بشكل من الأشكال، فمن خلال هذا القدح يثار النقع! ثم بعد ذلك تأتي النتيجة المنطقية وهي قوله تعالى " فوسطن به جمعا " أي أن النقع والذي هو المطر الذي أنزل من السحاب يتوسط الجمع أي جمع كان، فنرى أن الماء ينزل ويصل إلى أي جمع لا يحجزه حاجز فيعمه وينفعه ![8]

---

[8] ومن الممكن القول أن المراد من النقع المثار هو الماء الموجود على الأرض فعندما ينزل الماء من السماء يزيد الماء الموجود على الأرض فيسيل فيتوسط الجمع ومن المعروف أن الماء أو السوائل عامة لا تكون في الأطراف أو المرتفعات وإنما تتوسط بين العوالي !

أما المفسرون فاختلفوا كالعادة في عود الضمير، فخصصوا بأدلة ما انزل الله بها من سلطان وأضافوا كلمات ليس لهم بها علم، لذا نجدهم يقولون كما جاء في تفسير الإمام الفخر الرازي :

" قال الليث: وسطت النهر والمفازة أسطها وسطاً وسطة، اي صرت في وسطها، وكذلك وسطتها وتوسطتها، ونحو هذا، قال الفراء: والضمير في قوله: { بِهِ } إلى ماذا يرجع؟ فيه وجوه أحدها: قال مقاتل: أي بالعدو، وذلك أن العاديات تدل على العدو، فجازت الكناية عنه، وقوله: { جَمْعاً } يعني جمع العدو، والمعنى صرن بعدوهن وسط جمع العدو، ومن حمل الآيات على الإبل، قال: يعني جمع منى وثانيها: أن الضمير عائد إلى النقع أي: وسطن بالنقع الجمع وثالثها: المراد أن العاديات وسطن ملبساً بالنقع جمعاً من جموع الأعداء. "اهـ ولست أدري ما أدلتهم على تخصيص قول الله عزوجل الذي أورده عاما ؟! فجعلوه هم خاصا في مواقف أخص !!!

فانظر عزيزي القارئ إلى هذه الصورة البلاغية البديعة التي تقدمها السورة :

سحب تعدو مصدرة صوتا ثم تجتمع هذه السحب الكثيفة المثقلة فتحتك فتوري من خلال هذا الاحتكاك فيكون برق وبذلك تضيء هذه السحب وتصبح صبحا بالنسبة للناس وبهذا الاحتكاك والقدح تثار ذرات المياة الموجودة والراكدة في السحب فتنزل فتتوسط جمعا أي جمع كان من نبات أو حيوان أو بشر! فانظر إلى عرض الله لنعمه على البشر ثم بعد ذلك يكون ردهم هو الجحد والنكران، لذا يكون من المنطقي أن تأتي الآية التالية معلقة على موقف الإنسان من ربه الذي أغرقه في هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى فتقول "إن الإنسان لربه لكنود "

أما على قول السادة المفسرين فلست أدري ما وجه إيراد هذه الآية ؟! فالآيات السابقات على زعمهم تتحدث عن فعل جاهلي مخالف لتعاليم الإسلام! فهل من المعقول أن يندد الله بعد ذلك بفعل الإنسان قائلا " إن الإنسان لربه لكنود "، بعد هذا المذكور على قولهم لا بد أن يكون هذا هو الفعل الطبيعي من الإنسان ولا يُعترض عليه !!! أما على قولنا نحن فإن الله تعالى يذكر نعمه السابغات على الإنسان ويعددها عليه وكيف أنه يقابلها بالكنود، فما هو الكند ؟

الكند كما جاء في المقاييس:

" الكاف والنون والدال أصل صحيحٌ واحد يدلُّ على القَطْع. يقال كَنَدَ الحبْلَ يكنُده كَنْداً. والكَنُود الكفور للنِّعمة. وهو من الأوَّل، لأنَّه يكنُد الشكر، أي يقطعُه. ومن الباب: الأرضُ الكَنود، وهي التي لا تُنبِت. " اهـ

ونلاحظ أن الكند قريب من العند والفارق بينهما في المعنى طفيف! إذا فالله يذكر للإنسان نعمه عليه والتي تقابل منه بكفر النعمة وعدم الشكر عليها!

ثم يؤكد الله تعالى للإنسان ويذكره بشهادته على ذلك فيقول " وإنه على ذلك لشهيد ". ونجد أن السادة المفسرين اختلفوا في الضمير في " إنه " فمنهم من قال أن الضمير يعود على الإنسان ومنهم من قال أنه يعود على الله تعالى. والعجيب أنهم لم يختلفوا تقريبا حول " ذلك " فقالوا أن المراد من ذلك هو الكنود! بحجة أن العود هو على أقرب المذكورات!

والذي أراه أنا أن الضمير في " إنه " لا بد أن يعود على الإنسان لأن الحديث عنه في الآية السابقة وكذلك في التالية، فمن الأولى أن يستمر الكلام على وتيرة واحدة بدلا من القول بوجود القطع

والاعتراض، فما الدليل على قطع الكلام وعلى أن هذه الجملة جملة اعتراضية، حتى نعود بالضمير على الله عزوجل ؟ كما أن عود الضمير هنا على الإنسان أولى ليقابله في آخر السورة " إن ربهم بهم يومئذ لخبير " فالإنسان شهيد على نعم الله والله خبير بعباده! إذا فالضمير في " إنه " عائد على الإنسان، فما المراد من "ذلك " ؟ هل هو الكنود ؟ الذي أراه أن المراد من " ذلك " هو الآيات السابقات والنعم التي أغدقها الله عليه، وبهذا يستقيم المعنى فالآية السابقة تتحدث عن كفر الإنسان للنعمة وعدم شكره عليها والتالية تنبه على أنه شهيد على هذه النعم وعلى الرغم من ذلك فهو لا يشكر! وبذلك يحدث تقابل بين معرفة النعمة ومشاهدتها وبين كفرها وعدم الشكر عليها أما القول بأن المراد من " ذلك " هو " الكنود " فبعيد، فكيف يكون الإنسان شاهدا على كنوده ؟!

ثم يواصل الله تعالى توصيف الإنسان الكافر لنعمته المتناقض مع نفسه " وإنه لحب الخير لشديد " قال السادة المفسرون أن المراد من الخير هو المال، ولكن هذا تخصيص ما أنزل الله به من سلطان، الخير هو الخير وهو اسم عام يدخل تحته المال وكل منفعة خير للإنسان، أما التخصيص بالمال فهذا ما لا يصح .

ونلاحظ أن الله تعالى ينبه بهذه الآيات الثلاث على تناقض فعل الإنسان، فهو يكفر نعمة الله وينكر فضله عليه على الرغم من وضوحه أمام عينيه ثم على الرغم من ذلك هو محب شديد للخير، فكيف يتفق هذا مع تصرفه ؟

إن الخير كل الخير هو في استمراره، أما الخير القليل المنقطع الذي يورث شرا فلا خير فيه، بل هو ابتلاء وأذى وشر، فإذا كان الإنسان محبا للخير حقا فعليه أن يفعل العكس وهو أن يشكر الله على نعمائه

وبذلك يستمر الخير الذي يحبه ويصبح من الفائزين في الدنيا والآخرة!

ثم ينتقل الله تعالى إلى التخصيص الفعلى الثنائي لهذا الإنسان فينبهه بآيتين فعليتين فيقول: " أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور " ، فينبه الله تعالى هذا الإنسان المحب للخير المستكثر في جمعه الدافع للشر عنه إلى أن مصيره وآخرته هي إلى الموت والدفن في القبر مع غيره من الأموات .

وأكثر المفسرين إن لم يكن كلهم يرون أن هذا حادث يوم القيامة ولكني أرى أن هذا التوصيف في الدنيا يراه الإنسان بعينه ثم يمر به بعد ذلك .

فلقد قال المفسرون في ذلك كما جاء في تفسير الفخر الرازي:

" لقائل أن يسأل لم قال: { بُعْثِرَ مَا فِى القبور } ولم يقل: بعثر من في القبور؟ ثم إنه لما قال: { ما في القبور } ، فلم قال: { إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ } ولم يقل: إن ربها بها يومئذ لخبير؟ الجواب عن السؤال الأول: هو أن ما في الأرض من غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب، أو يقال: إنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك، فلا جرم كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء. " اهـ

أما نحن فنقول أن الله تعالى يذكر الإنسان بحال من يراه في القبور، فعندما نذهب لدفن أي عزيز علينا أو عندما تُنقل المقابر أو لأي سببٍ كان يكون الإنسان في المقابر يرى عملية البعثرة لما في القبور حيث تُحرك عظاما وتوضع جثث أو تنقل تماما أو أو ....، وهنا يتناسب استعمال " ما " مع ما في القبور لأنها عبارة عن عظام نخرة وجثث عفنة أما يوم القيامة فيخرج الناس من الأجداث سراعا كما هم أناسا

بالغين !

كما أن القول بأن هذا التوصيف في الدنيا مؤذن بالمقابلة بين الخير الذي أتى وخرج من العاديات والخراب والدمار والهلاك الذي يكون في القبور والذي أشار الله تعالى إليه من خلال قوله " بعثر "

و" حصل ما في الصدور "، والتحصيل معروف ونحن نستعمله في أيامنا هذه استعماله الصحيح ونلاحظ هنا وجود مقابلة بين البعثرة والتحصيل. والتحصيل كما جاء في المقاييس:

" الحاء والصاد واللام أصلٌ واحد منقاس، وهو جمع الشيء، ولذلك سمِّيت حَوصلةُ الطائر؛ لأنَّه يجمع فيها. ويقال حصَّلت الشيءَ تحصيلا. وزعم ناسٌ من أهل اللغة أنّ أصل التحصيل استخراجُ الذهب أو الفضّة من الحجر أو من تراب المَعدِن؛ ويقال لفاعله المحصِّل. " اهـ

والسادة المفسرون اختلفوا في معنى التحصيل هذا فقالوا:

" قال أبو عبيدة، أي ميز ما في الصدور، وقال الليث: الحاصل من كل شيء ما بقي وثبت وذهب سواه، والتحصيل تمييز ما يحصل والاسم الحصيلة قال لبيد: وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه ... إذا حصلت عند الإله الحصائل

وفي التفسيرِ وجوه أحدها: معنى حصل جمع في الصحف، أي أظهرت محصلاً مجموعاً وثانيها: أنه لا بد من التمييز بين الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والمحظور، فإن لكل واحد ومنه قيل للمنخل: المحصل وثالثها: أن كثيراً ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره، أما في يوم القيامة فإنه تتكشف الأسرار وتنتهك الأستار، ويظهر ما في البواطن، كما قال: { يَوْمِ تبلى السرائر } [الطارق: ٩]. " اهـ

والذي أراه أن التحصيل هو الجمع والاستخراج، وكما قلنا فإن هذا يكون في الدنيا، فما هو هذا الحدث الذي يكون في الدنيا ؟ إنه بداهة

ساعة الموت، عندما تأتي الملائكة لتأخذ وتستخرج ما في الصدور وهو نفس الإنسان. أما على قولهم بأن هذا يكون في الآخرة فلا مناسبة فيه ولا تخريج منطقي لزعمهم! إذا فالله تعالى ينبه الإنسان إلى ما يراه من هلاك أخيه الإنسان ومن موته أمامه وكيف أنه سيكون ويصير إلى ما صار إليه، فنفسه ستؤخذ وتجمع وهو سيصير إلى التراب ويبعثر، ثم يعرف الله تعالى الإنسان بإحاطته به في جميع أحواله وخاصة في هذا اليوم العسير فيقول " إن ربهم بهم يومئذ لخبير " ونجد أن عود الضمير هنا إلى الجمع! مع أنه كان من المفترض أن يقال – كما يظن بعض الحمقى – " إن ربه به يومئذ لخبير " بل ومن الأولى أيضا ألا يكون هناك " يومئذ " لأن الله عالم بالناس وخبير بهم في كل وقت وحين !!

إن الله تعالى يعرض للإنسان صورة من يموت ويصير إلى التراب وكما وضحنا فإن هذا العرض لشيء يكون في الدنيا يراه الإنسان على غيره، وهذا الغير بداهة وكما جاء في الآيات جمع وغائب فالناس كثيرة في القبور وهم الذين يموتون ويراهم الإنسان حين ذلك أما عند الموت فلا يرى الإنسان نفسه وإنما يراه غيره! لذلك يقول الله تعالى للإنسان :

لا تحسبن أن حياتك في هذه الدنيا أو حياتهم هي الحياة الوحيدة، وأنهم بموتهم قد انتهى الخير والشر بالنسبة لهم! بل هناك حياة بعد الموت، وأنت وغيرك عند موتكم وعند كونكم في قبوركم فإني خبير بكم محيط بكم مطلع عليكم!

لذلك فإنه من المنطقي جدا أن يستعمل الله تعالى ضمير الجمع وضمير الغائب من أجل توصيل هذه الصورة للإنسان!

ونحن نرى أن القول بأن آخر هذه السورة هو ساعة الموت في الدنيا هو المناسب لبداية السورة التالية حيث أنها تبدأ بالقارعة وهي أول يوم

القيامة، فهنا تنتهي السورة بالموت وتبدأ التالية بالقرع الذي يوقظ الموتى !

فانظر أخي في الله في هذا المنظور الذي قدمناه لك وقارن بينه وبين ما يقوله المفسرون، واحكم بعقلك لاحقا – لأن الإنسان لا يقبل الجديد بسرعة عامة! – أي القولين أحق بالصواب!

الوحدة الموضوعية للسورة :

كما رأينا من خلال هذا التصور الشامل فإن الوحدة الموضوعية بينة أيما بيان فالسورة تدور في دائرة تأكيد كفر الإنسان لنعم الله الكثيرة عليه (والمذكور بعضها في القسم) على الرغم من حبه واستكثاره لها ومشاهدته إياها وعلى الرغم من أنه هو نفسه سيموت ويفنى لذلك فهي تنبهه بأنه لن ينتهي الخير أو الشر بذلك بل هناك إله خبير بالإنسان سيجازيه خير الجزاء على فعله !



سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين له وحده الحمد كله وبيده الأمر كله وإليه المرجع والمآل! نواصل الحديث عن السور التي تتخذ متكئا لهؤلاء الطاعنين في القرآن الكريم القائلين بعدم بيانه! واليوم نتناول بإذن الله وعونه وعليه التوكل وبه الحول والطول أول سورة النازعات! ونبدأ في تقديم التصور العام للسورة ثم بعد ذلك نبدأ بتناول السورة .

المنظور العام للسورة :

سورة النازعات من أولها إلى آخرها تدور في فلك الإنذار بالعذاب الذي ينزل بالكافرين المنكرين المعاندين، فهي تبدأ بمشهد نزول العذاب بالكافرين ثم تصف حال الكافرين عند نزول العذاب ثم تضرب لنا نموذجا معروفا لمن نزل بهم العذاب وهم فرعون وقومه ثم توضح للإنسان مقداره الحقير وفضل الله عليه وقدرة الله على إنزال العذاب به في أي وقت شاء ولكن العذاب لا ينزل هكذا عبثا أو اعتباطا بل هو

مرتبط بأسبابه فإذا توفرت استحق الإنسان العذاب والذي لا يعرف الإنسان ميعاده فلا يعرفه إلا الله تعالى .

ونبدأ الآن في تناول هذه السورة التي أشكلت على المفسرين أيما إشكال وتخبطوا فيها أيما تخبط! ولأنهم لا يحاولون أن يقدموا صورة واحدة متكاملة للسورة اختلفوا في المذكورات الخمس في أول السورة هل لهن كلهن مدلول واحد أم أنهن مختلفات المداليل ؟ فقالوا أنهن كلهن في الملائكة وعادوا فقالوا أن الثلاث الأول في الكواكب أو النجوم والإثنتان الأخريتان هما في الملائكة وقيل بالعكس! وقيل أنها كلها في الكواكب! وبسبب هذا التخبط الشديد نجد أن الأستاذ سيد قطب عند تعرضه لهذه السورة في الظلال أقر بهذا الغموض! فقال: " هذه السورة نموذج من نماذج هذا الجزء[9] لإشعار القلب البشري حقيقة الآخرة، بهولها وضخامتها، وجديتها، وأصالتها في التقدير الإلهي لنشأة هذا العالم الإنساني، والتدبير العلوي لمراحل هذة النشأة وخطواتها على ظهر الأرض وفي جوفها، ثم في الدار الآخرة، التي تمثل نهاية هذه النشأة وعقباها. وفي الطريق إلى إشعار القلب البشري حقيقة الآخرة الهائلة الضخمة العظيمة الكبيرة يوقع السياق إيقاعات منوعة على أوتار القلب، ويلمسه لمسات شتى حول تلك الحقيقة الكبرى. وهي إيقاعات ولمسات تمت إليها بصلة. فتلك الحقيقة تمهد لها في الحس وتهيئه لاستقبالها في يقظة وفي حساسية. يمهد لها بمطلع غامض لكنه يثير بغموضه شيئاً من الحدس والرهبة والتوجس. يسوقه في إيقاع موسيقي راجف لاهث، كأنما تنقطع به الأنفاس من الذعر والارتجاف والمفاجأة والانهيار " اهـ

مطلع أدبي جميل للحديث عن السورة ولكنه لا يقدم لنا شيئا بل

---

[9] جزء عم .

يقر بغموضها كما هي، لأن السادة المفسرين ما استطاعوا أن يجزموا في أقوالهم برأي واحد، والمشكلة في أقوال المفسرين في هذه السورة أنهم كعادتهم انشغلوا بكل كلمة على حدة، فلم يحاولوا أن يقدموا لنا رابطا يربط آي هذه السورة ببعض، وإنما جعلوا كل جزء من هذه الأجزاء مستقل بنفسه، وجعلوا الكلام مقطعا فمنه في الدنيا ثم ينتقل مباشرة إلى الآخرة، ثم يعود مرة أخرى إلى الدنيا ثم يأتي الرد من الملائكة، هكذا بدون أي ترابط أو تناسق!

وعلى الرغم من أن المفسرين توصلوا أو كادوا فعلا إلى معان المفردات الواردة في أول السورة إلا أن هذا لم ينفعهم في أن يحددوا لنا أين وكيف ومتى هذه الأحداث في أول السورة! بل جعلوها قطعا منفصلات غير مرتبطات، لذا نبدأ بحول الله وعونه في تناول هذه السورة - والتي لا يكاد يغفل القارئ عن معان مفرداتها إلا في في مفردتين إثنتين فقط، أما ما عداهما فمعروف مألوف -موضحين ترابط هذه الآيات ترابطا متينا، حامدين الله على أننا أول من قدم هذه الصورة المتماسكة المتصلة المتناسقة للنازعات :

إذا نظرنا في أول السورة نجد أنها تبدأ بقول الله تعالى " والنازعات غرقا " والكلمتان معروفتان، فالنازعات جمع نازعة والنزع معروف للقارئ، ونزيد في الإيضاح فنقول، النزع كما جاء في المقاييس:

" النون والزاء والعين أصلٌ صحيح يدلُّ على قَلْع شيء. ونَزَعْت الشيءَ من مكانِه نَزْعاً. والمِنْزَع الشَّديد النَّزْع. والمِنْزعة كالمِلعقة يكون مع مُشْتارِ العَسل. ونَزَع عن الأمر نُزُوعاً: تركه. " اهـ

وفي اللسان: " .... وقولهم فلان في النزْعِ أي في قَلْعِ الحياةِ. يقال: فلان يَنْزِعُ نَزْعاً إِذا كان في السِّياقِ عند الموْتِ " اهـ

إذا فالنزع كما نفهم بداهة هو القلع، إذا فالله تعالى يقول:

والنازعات غرقا، فما هو الغرق ؟ الغرق معروف، وهو كما يفهم مجاوزة الأمر للمدى، لذلك جاء في اللسان: أَغْرَقَ في الشيء: جاوز الحد وأَصله من نزع السهم. ..... وفي حديث عليّ: لقد أَغْرَقَ في النَّزْع أي بالغ في الأمر " اهـ

وهو كما جاء في المقاييس: " الغين والراء والقاف أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على انتهاءٍ في شيء يبلغ أقصاه. من ذلك الغَرَق في الماء. والغَرِقة أرضٌ تكون في غاية الرِّي. واغْرَوْرَقت العينُ والأرض من ذلك أيضاً، كأنها قد غَرِقت في دمعها.ومن الباب: أغرَقْتُ في القَوس: [مدَدتُها] غايةَ المدّ. .... " اهـ

إذا فهناك في أول السورة نازعات مبالغات في النزع، فما هي هذه النازعات ؟ اختلف المفسرون في هذه النازعات بين النجوم والكواكب والملائكة والخيل الغازية! والأكثرون على أنها الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين! فما هو المرجح في هذه الأقوال ؟

مما هو معلوم بداهة أنه لكي نحدد مفهوم لفظة في كتاب الله نحتار فيها فعلينا أن نرجع إلى كتاب الله تعالى لنر ما هو المراد منها! فإذا نحن بحثنا عن النزع في كتاب الله تعالى وعن نازعات وجدناها تتأرجح بين الملائكة والريح! وذلك كما جاء في قوله تعالى " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ [الحجر: ٤٧]، وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ [القصص: ٧٥] "

وكما في قوله تعالى: " إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ [القمر: ١٩، ٢٠] "

فهل من الممكن أن تكون الريح هي النازعات ؟ لا، لأن باقي الأوصاف الواردة في الآيات لا تنطبق عليها، فلا يبقى أمامنا إلا القول الآخر وهو

أنها الملائكة! وهذا ما يرجحه أيضا ما جاء في آخر سورة النبأ، حيث خُتمت السورة بقوله تعالى " إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) "

فإذا ختمت سورة النبأ بالإنذار بعذاب يوم القيامة فمن المناسب أن تبدأ السورة التالية لها وهي النازعات بأول مواقفها وهي نزع الأنفس! ولكن ليس الأمر مجرد ساعة قدوم الملائكة من أجل نزع الأنفس، بل الأمر أعم من ذلك، فهو – كما سيظهر للقارئ الكريم من خلال السورة كلها – نزع أنفس الكافرين ونزع الكافرين أنفسهم من الحياة عند نزول العذاب. إذاً فنحن نرى أن النازعات غرقا هي الملائكة المنزلات للعذاب النازعات للكافرين أنفسا وأجسادا من هذه الدنيا، لذلك نجد الوصف الرحماني لهذا المشهد وصفا يثير الفزع والخوف " والنازعات غرقا " فليس في الأمر تهاون أو شفقة، بل هو اجتثاث من الجذور! فلقد أنذرناكم في النبأ وأتأكم تباشير العذاب في النازعات! إذا فالسورة تبدأ بمشهد تحاول كل نفس أن تبعد عنه قدر الإمكان وهو مشهد الملائكة النازعات للأنفس المنزلات للعذاب المؤذنات بالموت والتي تنزع الأنفس تمام النزع فلا تبقي منها شيئا! والسادة المفسرون على أن النازعات غرقا هي الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين فتبالغ في نزعها وأن الناشطات نشطا هي التي تنزع أرواح المؤمنين فتنزعها نزعا هينا لينا، ولكنا نرى رأيا آخر في المسألة، فالسورة كلها تصور وتقدم مشهدا واحدا وهو مشهد إنزال العذاب بالكافرين وقبضهم لذا فليس للمؤمنين أي علاقة بقولهم والناشطات نشطا! إذا فالنازعات غرقا هي الملائكة التي تنزع الأنفس التي يحيق بها العذاب بجميع أنواعها صالحها وطالحها – لأنه قد يكون في القرية التي ينزل بها العذاب أناس صالحون ولكن عند نزول العذاب يعم – وبعد ذلك يستكمل الرب القدير توصيف هذا المشهد فيقول: " والناشطات نشطا " ويأتي هذا الأمر أيضا كوصف

للملائكة ولكن هذه الملائكة غير الملائكة التي تنزع فلهذه دور ولتلك دور آخر، فهذه ملائكة تنشط نشطا في مثل هذا الموقف فتتحرك تحركا لا يدري به أحد ولكنه نشط موافق لطبيعة الملائكة من أجل تنفيذ مهمتها. ونذّكر القارئ الكريم أن النشط والنشاط والناشط هو معروف للقارئ الكريم فهو كما جاء في المقاييس: " نشط: النون والشين والطاء: أصلٌ صحيح يدلُّ على اهتزازٍ وحركة. منه النّشاط معروفٌ وهو لما فيه من الحركة والاهتزاز والتَّفتُّح. يقال نَشِطَ ينشَط. وأنْشَطَ القومُ: كانت دوابُّهُم نَشِيطة. .... ونَشَطْتُ الشَّيءَ: قشرتُه، كأنَّهُ لما قُشِرَ أُخرِجَ من جِلده . والأُنْشُوطة: العُقدة مثل عُقدة السَّراويل ونَشَطْتُه بأُنشوطة. وأنْشَطتُ العِقال: مَدَدْت أُنشوطتَه فانحلّت. وقال قوم: الإنشاط: الحَلُّ، والتَّنشيط: العَقْد. " اهـ

و في اللسان: " ...... ونشَط من المكان يَنْشِطُ: خرج، وكذلك إذا قطع من بلد إلى بلد. .... ونَشَطَتِ الإبلُ تَنْشِطُ نَشْطاً: مضت على هُدّى أَو غير هدى. .... ونَشَطَ الدَّلْوَ من البئر يَنْشِطُها وينشُطها نشْطاً: نَزَعها " اهـ

والناظر في معان النشط في اللغة يجد أنها تدور في فلك الحركة والنشاط والانتقال وهذا ما تقوم به الملائكة فهي تنشط وتتحرك وتنتقل .

إذا فالله تعالى يقول: والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا، فما هي السابحات ؟ بداهة قد يصدق لفظ السابحات على أي سابح، حتى أن بعض المفسرين قالوا أن المراد من السابحات هي السفن؛ وقال آخرون أن المراد من السابحات هنا هي الكواكب بدليل قوله تعالى "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [الأنبياء: ٣٣]، لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ

النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس: ٤٠] " ولكن كما قلنا فإن الكواكب والأجرام لا ينطبق عليها باقي الأوصاف، ومفهوم السبح معروف، وهو كما يعرفه القارئ وهو كما جاء في المقاييس:

" السين والباء والحاء أصلان: أحدهما جنسٌ من العبادة، والآخر جنسٌ من السَّعي. " اهـ، فإذا نحن نظرنا في كتاب الله تعالى وجدناه يقول للرسول الكريم: " إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً [المزّمّل: ٧] " فوردت لفظ السبح في خطاب النبي الكريم، فالله تعالى يقول للرسول: أن لك في النهار تقلبا وفراغا تقضي فيه حوائجك أما الليل فتقومه! إذا فهنا سابحات سبحا، وكما قلنا السبح إما عبادة وإما سعي، ولكن لا بد أن نراعي أن هذه السابحات سبحا موصوفة بوصف آخر، فهذه السابحات سبحا سابقات سبقا ومدبرات أمرا! وهذا ما لا يكون إلا في الملائكة! فالملائكة تسبح مسبحات لله عزوجل! " وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ [الصافات: ١٦٦، ١٦٥] "

إذا فهناك ملائكة نازعات لأنفس الناس منزلات للعذاب وهناك متحركات ناشطات تنشط من مكانها وهناك ملائكة تسبح سباحة في الكون مسبحات لله تعالى مطيعات له وهي سابقات سبقا! وهنا نتوقف لنسأل: ما هو السبق الذي تسبقه الملائكة ؟ بداهة ليس المراد من الآية تسابق الملائكة بينها وبين بعضها وإنما المراد السبق في فعل شيء، فما هو هذا السبق ؟ إذا نحن نظرنا في وصفه سبحانه وتعالى للملائكة وجدناه يقول: " لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول " [الأنبياء: ٢٧] أي أنهم قبل الإذن والأمر لا يفعلون ولا ينطقون تعظيماً لله تعالى وإجلالا له، فإذا نظرنا في وصفهم هنا وجدناه سبحانه يصفهم بالسبق أي إذا جاءهم الأمر، فإنهم يتسارعون إلى امتثاله. أي أن هذه الملائكة السابحات سابقات إلى تنفيذ أمر الله تعالى إذا جاءها، فإذا جاءهم الأمر بفعل كذا أوقبض نفس فلان أو إنزال العذاب بقرية كذا تسارعوا وسبقوا سبقا في فعله

فلا يتأخرون عن هذا التنفيذ، وهذا العذاب ليس أمرا غيبيا أو منقطعا كان يحدث في الأزمان الغابرة، بل هو مستمر إلى قيام الساعة! فالملائكة منفذة لأمر الله تثير براكين وزلازل وأعاصير ... إلخ أشكال العذاب الذي ينزله الله بالبشر، فإن أمر الله المنفَذ بهؤلاء السابحات السابقات إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون !، إذا فهؤلاء الملائكة سابحات منتظرات لأمر الله فإذا جاء سبقوا إلى تنفيذه ثم إن هؤلاء الملائكة مدبرات أمرا! والملاحظ أن الله تعالى قال أنهن مدبرات أمرا وليس أمورا، ومن المعلوم أن الملائكة تدبر أمورا كثيرة، فما هو هذا الأمر المُدبر في هذا الوقت ؟ نقول: الله تعالى أعلم بمراده فلم يظهر لنا تحديد هذا الأمر، فالله تعالى نكرّه فليس لأحد أن يجزم بمراد الله فيه ولكن كل يجتهد فيما يظهره الله تعالى له، لذا فإنا نقول أن المراد من المدبرات أمرا أي أنهم يدبرون الأمر الذي سبقوا به، فكما قلنا إن الملائكة يسبقون من أجل تنفيذ الأمر، ومن المعلوم أنهم يأيتهم الأمر فيسبقون سبقا من أجل تنفيذه ثم يدبرونه ساعة تطبيقه، إذا فالمراد فالمدبرات أمرا أتاهم بفعل كذا أو كذا، فأشكال إنزال العذاب تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر.

إذا فحتى الآن لا يزال المعنى والتصور متصلا فالله تعالى يعرض لنا مشهد نزع الأنفس وإنزال العذاب والاجتثاث عن طريق الملائكة النزعات وصورة الملائكة الناشطات التي تنشط وتتحرك وتخرج لتنفذ وكيف أن هناك ملائكة سابحات في الجو تسبح الله وتطيعه وهي تسبق سبقا في تنفيذ الأمر الآتي لها من الله (هنا مثلا الإهلاك وقبض الأنفس بشكل من الأشكال يريده الرب القدير) فإذا أتته دبرته كما أراد الله تعالى! ويحدث كل هذا يوم ترجف الراجفة!

و الناظر في أقوال المفسرين بدأ من هذه الآية يجد أنهم قد نزعوا! هذه الآية عن سابقتها من الآيات فجعلوا هذه في واد وتلك في آخر!

وذلك لظنهم أن يوم رجف الراجفة هو في اليوم الآخر، حيث أن الراجفة عندهم هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية التي تكون في الصور، فهل هذا ما تقوله الآيات ؟

إذا قبلنا بقولهم هذا من أن المراد من الراجفة والرادفة هو النفخة الأولى والثانية لا يستقيم للكلام أي معنى، لأنه يفترض على قولهم أن المشركين والكافرين يقولون يوم القيامة: أئنا لمردودون في الحافرة أإذا كنا عظاما نخرة .... إلخ فهل يعقل أن يقول الكافرون أو العصاة هذا الكلام يوم القيامة ؟ وعلى الاحتمالية الأخرى للكلام أن يقطعوا الكلام عن بعضه، فيصبح الكلام قد انتهى قبل ذلك ثم حدث استئناف جديد بدون أي عود للضمير المذكور، فيأتي الكلام هكذا عن غائب بدون أي ذكر مسبق له! أما نحن فنربط الكلام ببعضه فنقول أن الملائكة تفعل هذا الفعل يوم ترجف الراجفة ؟ والرجف معروف بالنسبة للقارئ، ولكنا نزيده إيضاحا فنقول: الرجف كما جاء في اللسان :

" الرَّجَفانُ: الاضْطِرابُ الشديدُ: رجَفَ الشيءُ يرجُف رَجْفاً ورُجوفاً ورجَفاناً ورَجِيفاً وأَرْجَفَ: خَفَقَ واضْطَرَبَ اضْطِراباً شَديداً، أَنشد ثعلب: ظَلَّ لأَعلى رأْسه رجيفا ورَجْفُ الشيء كرَجَفانِ البعير تحت الرحل، وكما تَرْجُفُ الشجرةُ إذا رَجَفَتْها الرِّيحُ، وكما تَرْجُف السنّ إذا نَغَضَ أَصْلُها. والرجْفةُ الزَّلْزَلَةُ. ورجَفَتِ الأَرض تَرْجُفُ رجْفاً: اضطَربت. وقوله تعالى: فلما أَخذتهم الرَّجفةُ قال رَبِّ لو شئتَ أَهلكتهم من قبل وإيَّاي؛ أَي لو شئتَ أَمَتَّهم قبل أَن تقتلهم. ويقال: إنهم رَجَفَ بهم الجبلُ فماتوا. ورجَفَ القلبُ: اضْطَربَ من الجزَع. والرّاجِفُ: الحُمّى المُحَرِّكَةُ، مذكّر؛ قال: وأَدْنَيْتَني، حتى إذا ما جَعَلْتَني على الخَصْرِ أَو أَدْنى، اسْتَقَلَّك راجِفُ ورجَفَ الشجرُ يَرْجُفُ: حرّكَتْه الريحُ، وكذلك الأَسْنانُ. ورجَفَتِ الأَرضُ إذا تَزَلْزَلَتْ. ورَجَفَ القومُ إذا تَهَيَّؤُوا للحرب. وفي التنزيل العزيز: يوم تَرْجُفُ الراجفة تَتْبَعُها الرَّادِفةُ؛ قال الفراء: هي النَّفْخةُ

الأَولى، والرّادِفةُ النفخةُ الثانية؛ قال أَبو إسحق: الرَّاجِفةُ الأَرض تَرْجُفُ تَتحرَّكُ حركة شديدة، وقال مجاهد: هي الزَّلْزَلَة. وفي الحديث: أَيها الناسُ اذكُروا اللّه، جاءتِ الراجفةُ تتبعها الرّادِفةُ؛ قال: الراجفةُ النفخةُ الأُولى التي تموت لها الخلائق، والرادفة الثانية التي يَحْيَوْنَ لها يومَ القيامة. وأَصل الرجْف الحركةُ والاضْطِرابُ؛ " اهـ

إذا فالرجف هو الحركة والاضطراب وهو على هذا المعنى في كتاب الله، كما جاء في قوله تعالى "فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [الأعراف: ٧٨]، وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ [الأعراف: ١٥٥]، يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً [المزّمّل: ١٤] "

والرجف يأتي مع البشر والشجر والأرض ويأتي بمعنى الزلزلة، وكل اضطراب هو رجف، وهنا لم يحدد الله تعالى الراجف وإنما قال: ترجف الراجفة وهنا نسأل القارئ اللبيب: ما هو الذي يرجف ساعة نزول العذاب ، فالسورة من أولها حتى الآن تدور حول هذه اللحظات ؟ هل الأرض أم الريح أم الشجر أم البشر ؟ بداهة الذي يرجف في هذه اللحظة هو كل ما ذكر[1]، فعند نزول العذاب بالبشر والذي يظهر في شكل زلازل أو صيحة أو براكين أو ريح، تضطرب الأرض ويضطرب كل ما حول الإنسان بل إن النفوس عينها تضطرب اضطرابا عظيما وتبدأ في الرجف! إذا فالمراد من قوله تعالى يوم ترجف الراجفة أي يوم ترجف الأرض والجبال والشجر - والنفس التي ينزل بها العذاب عند بدأه تباعا - " تتبعها الرادفة " قال المفسرون في الرادفة أنها النفخة

---

[1] ويمكن إدخال البشر من باب التجوز والتوسع !!

الثانية، وكما قلنا فإن هذا لا يتناسب مع سياق السورة من أولها، إذا الراجفة في الدنيا وهي عامة وهي بدأ الاختلال وبدأ نزول العذاب، والردف معروف بالنسبة للقارئ ولكنه قد يغيب عن ذهنه، فإذا نحن نظرنا في المعاجم سيتذكر القارئ أنه عارف باللفظ، والردف كما جاء في اللسان:

" الرِّدْفُ: ما تَبِعَ الشيءَ. وكل شيء تَبِع شيئاً، فهو رِدْفُه، وإذا تَتابع شيء خلف شيء، فهو التَّرادُفُ، والجمع الرُّدافَى؛ قال لبيد:عُذافِرةٌ تَقَمَّصُ بالرُّدافَى، تَخَوَّنَها نُزولي وارْتِحالي ويقال: جاء القوم رُدافَى أَي بعضهم يتبع بعضاً. .... وهذا أَمْر ليس له رِدْفٌ أَي ليس له تَبِعةٌ. " اهـ

إذا في يوم قبض الأنفس ويوم نزول العذاب ترجف الأرض أو الجبال أو الأشجار وكذلك النفس الكافرة العاصية وتتبعها في الرجف الرادفة أي الموجة الثانية والتالية من العذاب والتي تقضي على من ينزل بهم العذاب! فيرتجف هؤلاء العصاة خوفا من الموت ومن الرحيل عن الدنيا ويحصل لهم اضطراب عظيم، ففي هذا اليوم " قلوب يومئذ واجفة "[11]، وهنا في هذه الآية تقابلنا أول كلمة يغيب معناها عن القارئ متوسط الثقافة وهي الوجف، فما هو الوجف ؟

الوجف كما جاء في اللسان:

" الوَجْفُ: سُرْعة السير. وجَفَ البعيرُ والفرس يَجِف وجْفاً ووجِيفاً: أَسْرَعَ.

والوجِيف: دون التقريب من السير. .... وفي الحديث: ليس البِرُّ بالإيجاف. وفي حديث عليّ، كرم الله وجهه: وأَوجَفَ الذِّكْرَ بلسانه أَي حرَّكه، وأَوجفه راكبُه. وحديث علي، عليه السلام: أَهونُ سيرِها فيه

---

[11] نلاحظ أن هذه الآيات الثلاث انتهت بكلمات متقاربات المبنى وهي " راجفة ، رادفة ، واجفة " !

الوَجِيف؛ هو ضرب من السير سريع. وناقة مِيجْاف: كثيرة الوجيف. وراكب البعير يُوضِع وراكب الفرس يُوجِف. قال الأَزهري: الوجيف يصلح للبعير والفرس. ووَجَف الشيءُ إذا اضطرب. ووجَف القلب وجِيفاً: خَفَق، وقلب واجِف. وفي التنزيل العزيز: قلوبٌ يومئذ واجفة؛ قال الزجاج: شديدة الاضطراب؛ قال قتادة: وجفَت عما عاينت، وقال ابن الكلبي: خائفة. " اهـ

ومعنى الوجف وإن كان مجهولا بالنسبة للكثيرين ولكنه يستنتج من خلال السياق ويأتي الاستنتاج متفقا مع المعنى المعجمي، ففي هذا اليوم القلب يكون القلب مضطربا[١٢] خافقا خفقانا شديدا !، ثم يواصل الله توصيف قلوب الأنفس الكافرة العاصية في هذه الساعة فيقول " أبصارها خاشعة "، وأنا أعرف أن القارئ سيقول أن المراد من " أبصارها خاشعة " هو أبصار الأنفس الكافرة وليس أبصار القلوب لأنه من المستغرب أن يكون للقلوب أبصار. فنقول: لما نظرنا في كتاب الله تعالى وجدناه يقول:

" خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ [القلم: ٤٣]، خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ [المعارج: ٤٤] "

أما هنا فقال " أبصارها خاشعة " فعلمنا أن المراد ليس أبصار الناس وإنما أبصار القلوب، والمشكلة عند القارئ هي في فهمه لمسألة الأبصار، فلقد قمنا سابقا بتعريف عملية البصر وما هو المراد من الأبصار، وقلنا أن المراد من الإبصار هو القدر على الفهم عن طريق التمييز، لذا فلا حرج أبدا في أن يكون للقلوب أبصار تكون في هذه الساعة خاشعة، أي أن الكافرين ساعة نزول العذاب تصبح أبصار قلوبها – وليس أبصار عيونها

[١٢] لاحظ الشبه الشديد بين الوجف والرجف في المبنى والمعنى !

– خاشعة، فالكافر لا تخشع عينه ساعة نزول العذاب بل تضطرب اضطرابا شديدا، أما بصر قلبه فيخشع، والخشوع معروف بالنسبة للقارئ، ففي هذا اليوم الذي ينزل العذاب تخشع أبصار القلوب ويذهب كبرها فلا يعد هناك أي مجال للمجادلات وللتنطعات الفكرية التي يصدع بها الملاحدة والمشركون أدمغتنا، بل يقرون بالحق إقرارا ويبدأون في التفكر في اليوم الآخر وهل هناك حساب وهل ما جاء به الأنبياء صحيح أم أننا سنموت وينقضي الأمر. ففي هذه اللحظة تكون المصراحة مع النفس، فيسألون: " أئنا لمردودون في الحافرة "، فأبصار الكافرين خاشعة يقولون أئنا لمردودون في الحافرة، فهم يتساءلون ويفكرون فيما جاءت به الأديان كلها، فهل من الممكن فعلا أن نعود إلى الحياة مرة أخرى بعد موتتنا هذا، وبهذا يكون ما يقوله الأنبياء صواب وهناك ثواب وعقاب أم أن الحياة تنتهي بالموت ولا شيء بعد ذلك ؟! وهنا نتوقف لنسأل: ما المراد من الحافرة ؟ الحافرة كما هو واضح لكل ذي عينين مشتق من الحفر! والحفر معروف، ولكن المشكلة هنا في كلمة الحافرة، فما هو معنى هذه الكلمة في هذا السياق ؟ ما هي مناسبة الحديث عن حافرة ؟ بسبب عدم ظهور معنى لهذه الكلمة اختلف المفسرون في معنى الحافرة اختلافا كبيرا فمنهم من قال أن الحافرة هي القبر، أي أن الحافرة بمعنى المحفور! وهذا مردود بداهة، ومنهم من قال أنها النار، ولست أدري ما علاقة النار بهذا السياق، هل سيرد الناس في النار يوم القيامة أم أنهم سيردون ثم يحاسبون ؟ وما علاقة النار بالحفر ؟ وقيل أن المراد من الحافرة الدنيا، ونعرض لك عزيزي القارئ مثالا من تخبط المفسرين عند تعاملهم مع هذه الكلمة، كما جاء في تفسير الرازي :

" قوله تعالى: { يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الحافرة } يقال رجع فلان في حافرته أي في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيه

فيها جعل أثر قدميه حفراً فهي في الحقيقة محفورة إلا أنها سميت حافرة، كما قيل: { فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ } [الحاقة: ٢١] و{ مَّاء دَافِقٍ } [الطارق: ٦] أي منسوبة إلى الحفر والرضا والدفق أو كقولهم نهارك صائم، ثم قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه رجع إلى حافرته، أي إلى طريقته وفي الحديث: " إن هذا الأمر لا يترك على حاله حتى يرد على حافرته " أي على أول تأسيسه وحالته الأولى وقرأ أبو حيوة في الحفرة، والحفرة بمعنى المحفورة يقال: حفرت أسنانه، فحفرت حفرا، وهي حفرة، هذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفور، إذا عرفت هذا ظهر أن معنى الآية: أنرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنا . " اهـ

بل إن الحيرة وصلت إلى معاجم اللغة فجعلوا هذه الكلمة أصلا مستقلا بذاته، فنجد ابن فارس يقول في المقاييس :

" الحاء والفاء والراء أصلان: أحدهُما حَفْر الشّيء، وهو قلعه سُفْلا؛ والآخَر أوَّل الأمر.فالأوَّل حفَرتُ الأرض حَفْرا . وحافِر الفَرسِ من ذلك، كأنّه يحفر به الأرض. ومن الباب الحَفْرَ في الفَم، وهو تآكل الأسنان. يقال حفَر فُوه يَحْفر حَفْراً. والحَفَر التُراب المستخرَج من الحُفْرَة، كالهَدَم؛ ويقال هو اسمُ المكان الذي حُفِر........ والأصل الثاني الحافرة، في قوله تعالى: أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ [النازعات ١٠]، يقال: إنه الأمر الأوَّل، أي أنحْيا بعدما نموت. ويقال الحافرةُ من قولهم: رجع فلانٌ على حافرته، إذا رجع على الطريق الذي أخَذَ فيه، ورجع الشَّيْخُ على حافرته إذا هَرِم وخَرِف. ... " اهـ

فابن فارس يروى هذا التفسير بصيغة التضعيف " يقال " ولا يجزم فيها بشيء، فما هي هذه الحافرة المحيرة ؟

الحافرة اسم فاعل من الحفر، وهو متعلق بالرد، وهو شيء يشك

فيه الكافر، وهو شيء يستعمل معه حرف الجر " في " فما هو هذا الشيء ؟ لا يمكن أن يكون الأرض لأنها ليست حافرة وليست الدنيا لأنها ليست حافرة وليست حياتهم الأولى لأنها ليست حافرة. بداهة هو وصف ليوم القيامة! فإذا كان من بعض أوصاف أيام اليوم الآخر يوم القيامة والفصل والحشر ... إلخ الأسماء، فهنا أيضا سمي باسم هام من أسمائه وهو الحافرة، حيث تحفر الأرض فيخرج الناس " خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ [القمر: ٧] يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج: ٤٣] " " يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ [ق: ٤٤] " ففي يوم القيامة تُحفر الأرض وتقلب ويخرج الناس، وما يؤيد هذا الفهم حديث وجدته في لسان العرب عن سراقة وفيه: " قال: يا رسول الله، أَرَأَيتَ أعمالنا التي نَعْمَلُ؟ أَمُؤَاخَذُونَ بها عند الحافِرَةِ خَيْرٌ فَخَيْرٌ أو شَرٌّ فَشَرٌّ أَو شيء سبقت به المقادير وجَفَّت به الأَقلام؟ ... " اهـ فهذا مع السياق يرجح أن المراد من الحافرة هو وصف لليوم الآخر، إذا فالكافر العاصي الذي ينزل به العذاب يتساءل هل نعود إلى الحياة مرة أخرى و.... ولكن " أإذا كنا عظاما نخرة " أي هل من الممكن أن نخرج من الأرض مرة أخرى فنبعث بعد أن كنا عظاما نخرة، والمعنى معروف أإذا كنا عظاما بالية قد نخرت، والأصل في النخر هو صوت، لذلك يقال: إذا كنا عظاما بالية يخرج منها صوت إذا مر فيها الهواء! ويستمر الكافر الذي ينزل به العذاب في هذا التصور والتساؤل وفي نهاية المطاف يعترف بأنه إذا حدث ذلك فسيكون من الخاسرين، " قالوا تلك إذا كرة خاسرة " إي إذا حدث ذلك الذي نخافه ونخساه فسيكون رجوعا خاسرا، والكر هو الرجوع والتكرار وهو معروف، وهو كما جاء في اللسان:

" الكَرُّ: الرجوع. يقال: كَرَّه وكَرَّ بنفسه، يتعدّى ولا يتعدّى. والكَرُّ

مصدر كَرَّ عليه يَكُرُّ كرًّا وكُروراً وتَكْراراً: عطف. وكَرَّ عنه: رجع، وكَرّ على العدوّ يَكُرُّ؛ ورجل كَرَّار ومِكَرّ، وكذلك الفرس. وكَرَّرَ الشيء وكَرْكَره: أعاده مرة بعد أُخرى. والكَرّةُ المَرَّةُ، والجمع الكَرَّات. والكَرُّ الرجوع على الشيء، ومنه التَّكْرارُ. ابن بُزُرجٍ: التَّكِرَّةُ بمعنى التَّكْرارِ وكذلك التَّسِرَّة والتَّضِرَّة والتَّدِرَّة. الجوهري: كَرَّرْتُ الشيء تَكْرِيراً وتَكْراراً؛ .... والكَرَّةُ البَعْثُ وتَجْديدُ الخَلْق بعد الفَناء. اهـ

ونلاحظ أن هنا فاصل بين القول والسؤال وبين الإجابة، فنلاحظ أن الله تعالى قال " يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أإذا كنا عظاما نخرة " ثم عاد فقال " قالوا تلك إذا كرة خاسرة " فهم السائلون في الأولى وهم المجيبون المعترفون في الثانية! ثم يوضح لهم الله تعالى أن الأمر ليس بالكبير ولا بالصعب العسير ولا يأخذ من الوقت الكثير " فإنما هي زجرة واحدة، والزجر معروف وهو كما جاء في المقاييس: " الزاء والجيم والراء كلمة تدل على الانتهار. يقال زَجَرت البعيرَ حتَّى مضَى، أزجُره. " اهـ

والصحيح كما ورد في لسان العرب وكما يعرفه الذوق السليم أن الزجر " صوت يدل على ... " وليس " كلمة " كما قال ابن فارس، وتأمل استعمالات الزجر في اللغة فستعلم أنها كلها تشير إلى صوت! إذا فالله تعالى يقول " فإنما هي زجرة واحدة " أي فإنما هي صيحة واحدة وهذه الصيحة ستكون من الملائكة، فهن " فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً [الصافات: ٢] "، وهنا نتوقف لنسأل: هل ستكون هذه الزجرة في الدنيا أم تكون في الآخرة ؟ بداهة يكون هذا الموقف في الآخرة، والناظر في القرآن يجد أنه ألغى أي احتمالية للبس في هذا الموقف بسورة أخرى حيث ذكر في سورة الصافات " "إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ [الصافات: ١٩] "، فهذا دليل على أن الحديث انتقل مصورا يوم القيامة للرد على المشركين الذين يرون أنها كرة خاسرة_ ليس بالنسبة لهم

فقط وإنما بالنسبة لله تعالى، فكأنهم يتساءلون كما يفعل بعض ملاحدة هذه الأيام: ما الذي سيستفيده الله عندما يبعثنا ويحاسبنا ولم يمتحننا أساسا ؟ فكأن هذا البعث والإخراج من القبور مسألة إعادة خاسرة بالنسبة لله تعالى، فرد الله عليهم بقوله " فإنما هي زجرة واحدة " فلن يكلف الأمر أي شيء إلا زجرة من الملائكة، " فإذا هم بالساهرة " وهنا نتوقف لننبه القارئ أن السادة المفسرون على أن المراد من الباء هو " في " أي " فإذا هم في الساهرة " وهذا ما لا يقبل في كتاب الله عزوجل، فلا يقبل حرف مكان حرف، فإذا استعمل الله عزوجل حرف الباء فحتما ولزاما هو المراد وليس أي حرف آخر، وانطلاقا من فهمنا لحرف الباء والذي يكون بمعنى السببية والواسطية سنحدد بإذن الله تعالى معنى الساهرة! لما قال المفسرون أن الباء بمعنى " في " اختلفوا في المراد من الساهرة ؟ فقيل أن المراد منها الأرض، سواء أرض بيضاء مستوية أو أرض ينشأها الله تعالى أو .. أو ... إلخ هذه الأقوال التي تخبطوا فيها! أما نحن فنربط الآية بالسابقة فنقول: إن الله تعالى يرد على من يستصعب رد وبعث العظام النخرة فيقول لهم فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم: و" هم " هنا حتما الناس كاملون وليس فقط العظام، إذا فعند الزجرة تصبح العظام ناسا " هم "، فكيف وبم تصبح العظام بشرا كاملا يستحق أن يعاد عليه بالضمير " هم " ؟ يوضح الله تعالى لنا أنهم يصبحون كذلك بالساهرة! وتصور معي المشهد: زجرة واحدة فإذا هم (يكونون أو يصبحون أو يشكلون) بالساهرة، فلما عرفنا أن الساهرة هي التي يكون منها وبها الناس، نسأل ما هي الساهرة ؟

الساهرة مشتقة من السهر، والسادة اللغويون لم ينجحوا في أن يعطوا معنى دقيقا للسهر، لذا نجد ابن فارس يقول في المقاييس :

" السين والهاء والراء معظم بابه الأرَق، وهو ذَهاب النوم. يقال سَهَرَ يَسْهَرُ سَهَراً. ويقال للأرض: السّاهرة، سمِّيت بذلك لأن عملها في النَّبت

دائماً ليلاً ونهاراً. ولذلك يقال:"خَير المالِ عينٌ خَرّارة، في أرض خوَّارة، تَسْهَرُ إذا نِمتَ، وتشهَد إذا غِبْتَ". .... وقال آخر، وذكر حَميرَ وحْش:
يرتَدْنَ ساهرةً كأنَّ عميمَها وجَميمَها أسدافُ ليلٍ مظلمٍ
ثم صارت السّاهرةُ اسماً لكلِّ أرض. قال الله جلَّ جلالُهُ: فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات ١٣ -١٤] .... " اهـ
فابن فارس يرى أن معظم باب السهر هو في الأرق أي عدم النوم، فإذا نحن نظرنا في باقي المعاجم مثل اللسان أو غيرها لا نجدها تخرج عن هذا المعنى، ولكنا نعود فنجدهم يوردون تحت هذا الأصل معان أخرى لا علاقة لها بالأرق، فنجد على سبيل المثال في اللسان:

" ..... وقال الفراء: الساهرة وجه الأَرض، كأَنها سميت بهذا الاسم لأَن فيها الحيوان نومهم وسهرهم، وقال ابن عباس: الساهرة الأَرض؛ وأَنشد: وفيها لَحْمُ ساهِرَةٍ وبَحْرٍ، وما فاهوا به لَهُمُ مُقِيمُ وساهُورُ العينِ: أَصلها ومَنْبَعُ مائها، يعني عينَ الماء؛ قال أَبو النجم: لاقَتْ تَمِيمُ المَوْتَ في ساهُورِها، بينَ الصَّفَا والعَيْسِ من سَدِيرِها ويقال لعين الماء ساهرة إِذا كانت جارية. وفي الحديث: خير المال عَيْنٌ ساهِرَةٌ لِعَيْنٍ نائمةٍ؛ أَي عين ماء تجري ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم، فجعل دوام جريها سَهَرا لها. ويقال للناقة: إِنها لَساهِرَةُ العِرْقِ، وهو طُولُ حَفْلِها وكثرةُ لبنها " اهـ

فنخرج من هذا الجماع للاستعملات المختلفة للكلمات أن السادة اللغويون لم يحالفهم الصواب والدقة عند تحديد معنى السهر، فقالوا أنه بمعنى الأرق مع أنه من الأولى ومن الأدق أن يقال أن السهر هو بمعنى الدوام والسفلية والمطاوعة! قد يعجب القارئ ويسأل: من أين أتينا بهذا المعنى ؟ فنقول: استخرجنا هذا المعنى من خلال النظر في المعنى الجامع للمدلولات المشتركة تحتها وكذلك من خلال تقليبات الكلمة المحتملة، فمن المعلوم أنه إذا استعصى عليك تحديد معنى كلمة فقم بتقليبها كل التقليبات الممكنة يخرج لك معناها

من خلال هذه التقليبات. فإذا نحن قلبنا كلمة " سهر " وجدناها " رهس، وهي كما جاءت في المقاييس:

" الراء والهاء والسين أصلان: أحدهما الامتلاء والكثرة، والآخَر الوطء. فالأول قولهم: ارتهَسَ الوادي: امتلأ. وارتهَسَ الجرادُ: ركِب بعضُه بعضاً. والأصل الآخر: الرَّهْس: الوطء. " اهـ

إذا فالرهس يدل على الوطء والوطء الشديد المكثف، وعكس الرهس مبنى ومعنى هو السهر! فالسهر هو الذي يوطىء! فإذا نحن قلبنا الكلمة من النصف أصبحت " هرس " وهي معروفة المعنى، وهي كما جاءت في المقاييس: " الهاء والراء والسين: أصلٌ صحيح يدلُّ على دَقٍّ وهَزْمٍ في الشَّيء. وهَرَسْت الشّيءَ: دقَقْتُه. " اهـ

فالهرس يدل على الدق والكسر في الشيء إلى قطع صغيرة، فنخرج من تجميع هذه المعاني أن المراد من الساهرة فعلا هو الأرض اللينة أو الأرض عامة، وبهذا يكون ما قاله المفسرون في هذا المعنى صحيحا على الرغم من حيرتهم الشديدة في العلاقة بين الساهرة والأرض وظنهم ألا علاقة بينهما! وأن الأمر من باب التوقيف، لذلك وجدنا بعضهم يجعلها أرضا مخصوصة أو أرض يوم القيامة إلخ تلك الأقوال التي لم تعرف وتحدد العلاقة بين السهر والأرض .

إذا فعندما تزجر الزجرة الواحدة يعاد تكوين الناس مرة أخرى بالساهرة وهي كما رأينا بمعنى الأرض وبمعنى عين الماء السائلة، فيخلق الناس من التراب ومن الماء، أي أن الناس يعاد تشكيلهم وإخراجهم مرة أخرى من الأرض كما خرجوا أول مرة، فإذا مروا بالمراحل المألوفة المعروفة واكتمل خلقهم يخرجون من الأرض مكتملين ناضجين كما خرجوا أول مرة عند خلقهم على كوكب الأرض " يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ [ق: ٤٤]"

فكما حدث في المرة الأولى يحدث في المرة الآخرة مصداقا للقانون الرباني الرحماني " ... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ [الأنبياء: ١٠٤] "

أي كل ما هنالك صيحة واحدة فيكوّن الناس من الأرض مرة أخرى ولا يحتاج الأمر أكثر من ذلك!

ثم انتقل الله عزوجل نقلة نوعية كبيرة فقال " هل أتاك حديث موسى " فما هو الرابط بين هذه الآية وبين الآيات السابقات ؟

يُحمد للإمام الفخر الرازي أنه حاول أن يوفق بين الآية والآيات السابقات فقال: " اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين: الأول: أنه تعالى حكى عن الكفار إصرارهم على إنكار البعث حتى انتهوا في ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء في قولهم: { تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسرة } [النازعات: ١٢] وكان ذلك يشق على محمد صلى الله عليه وسلم فذكر قصة موسى عليه السلام، وبين أنه تحمل المشقة الكثيرة في دعوة فرعون ليكون ذلك كالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم الثاني: أن فرعون كان أقوى من كفار قريش وأكثر جمعاً وأشد شوكة، فلما تمرد على موسى أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فكذلك هؤلاء المشركون في تمردهم عليك إن أصروا أخذهم الله وجعلهم نكالاً ." اهـ

والأمر ليس له علاقة بالتسلية ولا بالتثبيت كما يحسب الإمام الفخر وإنما هو استمرار للنسق الذي تسير عليه السورة من أولها! فإذا كانت السورة من أولها تتحدث عن العذاب الذي ينزل بالكافرين بواسطة الملائكة نتيجة تكذيبهم وعنتهم ومحاربتهم واضطهادهم للرسل وللرسالة ناسب أن يذكر الله عزوجل هنا للرسول قصة نزول العذاب بفرعون وقومه فهو يذكّره بأن فرعون لما جاءه موسى ودعاه إلى

عبادة الله تعالى طغي[13] وتجبر وادعى الألوهية والربوبية فأخذه الله هو وجيشه ونزل بهم العذاب بواسطة الملائكة الذين شقوا البحر استدراجا له فأغرق هو وجيشه، فإن هذا قانون عام يسري على من يظهر له ويناطحه، وكان فرعون أحد من سقطوا فيه! وفي هذا عبرة لمن يخشى، فهل يعتبر أحد! ثم يعود الله تعالى للرد على المتجبرين المتكبرين المنكرين للبعث وللعقاب الرباني والذين يرون أن ما ينزل بهم هو من الطبيعة وأنه ما هي إلا حياتهم الدنيا يموتون ويحيون وما يهلكهم إلا الدهر فيوضح لهم مقدارهم بقوله: " أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها .... " ثم يواصل الحديث عن نعمه عليهم إلى أن يصل إلى قوله تعالى " فإذا جاءت الطامة الكبرى " والطامة معروفة فهي بمعنى الكارثة والداهية العظيمة والتي لا يستطيع أحد أن يدفعها أو يردها، ولم يقل لنا أحد من المفسرين لم وصف الله تعالى يوم القيامة هنا بقوله " الطامة الكبرى " واكتفوا بالقول أن هذا من أسماء يوم القيامة، أما على فهمنا نحن للسورة من أولها إلى آخرها فإن هذا هو المناسب للذكر، فالله تعالى من أول السورة يتحدث عن العذاب الذي ينزل بالكافرين ثم ذكر لنا نموذجا على ذلك وهو ما حدث لفرعون، وهذا العذاب الذي ينزل بالكافرين والعصاة المفسدين هو بداهة من الطوام، ولكن كل عذاب لا يقارن بالآخرة، فهي الطامة الكبرى! فإذا جاءت الطامة الكبرى فيومها يتذكر الإنسان ما سعى .... إلخ مواقف يوم القيامة! ثم تختم هذه التحفة البديعة بما يؤكد

---

[13] لم تذكر قصة سيدنا موسى في هذا السياق بهذا الشكل عبسا بل هي نموذج مختصر جامع للمراد منه وهي بمن وكيف ولماذا ينزل العذاب ، فالناظر في السرد العام السريع للقصة يجد انها مجرد ذكر عام للأحداث الرئيسة، فمبرر الإرسال ومن ثم نزول العذاب هو الطغيان " إذهب إلى فرعون إنه طغى " ، ثم هي توضح أن العذاب لا ينزل إلا بعد وجود البينات " فأراه الآية الكبرى " ، وكيف أن الإنسان بإعراضه " ثم أدبر يسعى " وباغتراره بنفسه وبقوته وبإفساده " فحشر فنادى " يستحق العذاب الذي لا راد له ولا عاصم منه " فأخذه الله نكال الآخرة والأولى " .

السورة الماضية، ففي آخر السورة الماضية قال الله تعالى " إنا أنذرناكم عذابا قريبا " وهنا يقول الله تعالى " يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا [النازعات: ٤٢] " ويرد عليهم بقوله " فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها " فأمرها إلى الله عزوجل فقط، فلا يعلم غيره بها، ولكن هذا اليوم واقع واقع! وأنت فقط منذر " إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا [النازعات: ٤٥] "، وقارن هذه الآية بآية النبأ " إنا أنذرناكم عذابا قريبا " فالإنذار جاء في النبأ والتأكيد جاء في النازعات وستجد أن ختام السورة موافق لختام النبأ " كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها " فما أقرب العذاب إذا. وسبحان من كانت كلمته واحدة لا مبدل ولا مغير لها!

فانظر أخي في الله إلى هذا التناسق البديع والتصوير الأبدع للآيات وتناسبها واتفاقها وجريانها كلها في مجر واحد متصل غير منقطع يؤكد أولها آخرها ويؤازر آخرها أولها، وانظر إلى اتصال السورة بما قبلها وتأكيدها لما فيها وانظر إلى الموضوع البديع وسل نفسك: هل ما قلناه من خلال تلك الوحدة الموضوعية للسورة التي تسير عليها من أولها إلى آخرها هو الصواب أم ما جاء به الأقدمون من القطع والفصل؟

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

نواصل الحديث عن سور الأقسام المتعددات وهي خمس سور في القرآن وهي سورة العاديات والنازعات والمرسلات والذاريات والصافات، ونتناول اليوم بإذن الله تعالى سورة المرسلات! وهذه السورة مثل إخوتها من السور سببت للسادة المفسرين الكثير من المشقة والعنت في تحديد معانيها والربط بين أجزائها، وهذه السورة وإن كانت أقل صعوبة في المجمل من العاديات والنازعات لذا نجحوا بنسبة كبيرة في تحديد معاني مفرداتها إلا أنهم كالعادة لم ينجحوا في إظهار الوحدة الموضوعية للسورة والرابط الذي يربط آيات السورة من أولها إلى آخرها، لذا نبدأ متوكلين على الله اللطيف الخبير لنوضح للقارئ الكريم كيف أن هذه السورة بالذات تختلف في الأسلوب وفي المبنى عن باقي أخواتها من السور وكيف أنها أتت بأسلوب بلاغي متقدم لم يُسبق محمد إليه، فمحمد هو أول من أتى في البشرية بنص أدبي مثل هذا الموجود في سورة المرسلات، وإن كان بعض الكتاب الغربيين قد

بدأوا ينتهجون أسلوبا قريبا من هذا الأسلوب في كتاباتهم، إلا أنه أسلوب حديث الظهور وأول من أتى به هو الرسول، لذا هلم معي عزيزي القارئ نتدبر قليلا في هذه السورة العظيمة .

سورة المرسلات سورة مكية المبنى والمحتوى، فكما يرى القارئ فهي من السور ذوات الآيات القصار المتواليات التي تحتوي كماً من المعاني والإشارات تجعل السامع والقارئ يلهث من تتابعها ويقشعر بدنه من شدتها، وهذه السورة في رأي هي من أشد سور القرآن، فلقد احتوت أسلوبا أقل ما يوصف به بأنه رهيب مخيف يقدم إنذارا شديد اللهجة للمكذبين باليوم الآخر يزلزل به أسسهم ويقضي على آمالهم كما أنه يسخر منهم ويرشدهم إلى مآلهم في الآخرة وبئس المآل مرجعهم ومنقلبهم !

المنظور العام للسورة :

الناظر في السورة يجد أنها كلها تدور في فلك آية واحدة وهي قوله تعالى " إنما توعدون لواقع " فقبلها مقسمات بها على هذه الآية وبعدها عرض لبعض مظاهر هذه الآية وبعده استدلالات منطقية على إثبات وقوع هذه الآية وبعده إرشاد لحال الناس عند وقوعها وبعده عرض لسبب وقوع ما وقع بمن وقع به! والناظر في مدلولات السورة يجد أنها كلها كذلك تدور في فلك الآية الأولى، فهي تبدأ بالمرسلات عرفا وسيرى القارئ الكريم كيف أن السورة كلها تدور في فلك المرسلات وفي فلك العرف!

تقسيم السورة :

تعد هذه السورة من أكثر سور القرآن تداخلا ولكن قبل ذلك

نعرض له بعض ما لاحظناه في الجانب الرقمي لآيات هذه السورة:

السورة مكونة من خمسين آية، آيات القسم فيها خمس آيات، وآية " ويل يومئذ للمكذبين " مكررة عشر مرات (٥× ١٠= ٥٠)

أول آية ذكر فيها " ويل يومئذ للمكذبين " هي الآية الخامسة عشر (٥ + ١٠= ١٥)

الآية الخامسة هي قوله تعالى " فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً " والآية الخمسون هي قوله تعالى " فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ "

الآية الخامسة والسادسة هي قوله تعالى "فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً عُذْراً أَوْ نُذْراً " والآية الخامسة والثلاثون والسادسة والثلاثون هما قوله تعالى " هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ "

وبخلاف غيرها من السور لن نقوم بعرض عرض تقسيم هذه السورة قبل البدء فيها لأنه قد يؤدي إلى إساءة الفهم أو القول أننا نُعدّل على ترتيب السورة ولكن سيرى القارئ من خلال عرضنا للسورة كيف أن النص القرآني كان يطرح ويجيب ويعلق ويدلل في تداخل بديع لا يعطل المعنى أو يقطعه، فقد يأتي الطرح في آية والتعليق أو الرد في مكان آخر في داخل السورة، وهذا مما تفرد به النص القرآني ولم يظهر في أي كتابة أدبية في تلك الأزمنة الغابرة. ونكتفي هنا بعرض تقسيمة بسيطة واضحة جلية في السورة وهي أن الله تعالى أقسم بخمس مقسمات " وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (٥) " على تحقق أمر واحد، ثم ذكر أربعة مظاهر من مظاهر هذا المقسم عليه "فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ (١١) " ثم دلل على هذا المقسم عليه بثلاثة أدلة يرد بها على المكذبين " ألم نهلك الأولين، ألم نخلقكم من ماء مهين،

ألم نجعل الأرض كفاتا " ثم أجاب على هذه المظاهر بإثنين من الأوامر للمكذبين " انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) " ثم أتبعها بأمر واحد للمتقين " كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ "، ثم أمر مماثل كذلك للمكذبين " كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ "، فسبحان من أتى بمثل هذا التقسيم البديع .

ونبدأ مع السورة متوكلين على الله: بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بخمس من الأقسام، بدأ اثنان منها بالواو وثلاث بالفاء، ولقد اختلف المفسرون في المراد من هذه الأقسام فقال بعضهم أنها كلها في الملائكة وقال آخرون أنها كلها في الرياح وقال آخرون أنها كلها في القرآن وقال آخرون أن بعضها في الرسل، وقال آخرون أن المراد من الثلاثة الأوائل هي الرياح والإثنان الأخريان هما الملائكة! وهذه الأقوال كلها مرجوحة – كما سنبرهن للقارئ بإذن الله تعالى – فعندما نظرت في الآيات ظهر لي فيها فهم آخر والحق يقال أني وجدته لبعض المعاصرين فلست أول من أتى به ولكن يشهد الله أنه من نظري في القرآن، فحاولت أن أعرف إذا كان أحد من السابقين قد قال بهذا القول، فوجدت الإمام الفخر الرازي يذكره في تفسيره احتمالا! فيقول:

" القول الثاني: أن الاثنين الأولين هما الرياح، فقوله: { والمرسلات عُرْفاً ❖ فالعاصفات عَصْفاً } هما الرياح، والثلاثة الباقية الملائكة، لأنها تنشر الوحي والدين، ثم لذلك الوحي أثران أحدهما: حصول الفرق بين المحق والمبطل والثاني: ظهور ذكر الله في القلوب والألسنة، وهذا القول ما رأيته لأحد، ولكنه ظاهر الاحتمال أيضاً، والذي يؤكده أنه قال: { والمرسلات عُرْفاً، فالعاصفات عَصْفاً } عطف الثاني على

الأول بحرف الفاء، ثم ذكر الواو فقال: { والناشرات نَشْراً } وعطف الاثنين الباقيين عليه بحرف الفاء، وهذا يقتضي أن يكون الأولان ممتازين عن الثلاثة الأخيرة " اهـ

ونبدأ الآن في تناول الآيات لنثبت للقارئ أن الرأي الذي ما رآه الإمام الرازي لأحد هو الراجح بإذن الله تعالى :

تبدأ السورة بقوله تعالى " والمرسلات عرفا "، الملاحظ أن هذه السورة هي الوحيدة من بين سور الأقسام الخمسة " الصافات، الذاريات، المرسلات، النازعات، العاديات " والتي بدأت باسم مفعول، أما باقي السور فبدأت باسم فاعل! فالمرسلات اسم مفعول من أرسل وهي جمع مرسلة. إذا فالله تعالى يقسم بمرسلات عرفا، فما هو العرف ؟

العرف معروف بالنسبة للقارئ، فإذا أطلقت الكلمة هكذا يقفز إلى ذهنه معنيان وهما بالفعل أصل هذه اللفظة، فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدناه يقول:

" العين والراء والفاء أصلان صحيحان، يدلُّ أحدُهما على تتابُع الشيء متَّصلاً بعضُه ببعض، والآخر على السكون والطُّمَأنينة. فالأوّل العُرْف: عُرْف الفَرَس.

وسمِّي بذلك لتتابُع الشَّعر عليه. ويقال: جاءَت القَطا عُرْفاً عُرْفاً، أي بعضُها خَلْفَ بعض. .... والأصل الآخر المعَرِفة والعِرفان. تقول: عَرَف فلانٌ فلاناً عِرفاناً ومَعرِفة. وهذا أمر معروف. وهذا يدلُّ على ما قلناه من سُكونه إليه، لأنَّ مَن انكر شيئاً توحَّشَ منه ونَبَا عنْه. ..... والعُرْف: المعروف، وسمِّي بذلك لأنَّ النفوس تسكُن إليه. " اهـ

إذا فالله تعالى يقسم بمرسلات عرفا، فما هو الشيء الذي يصدق عليه هذا الوصف ؟ إذا نحن نظرنا في الواقع وجدنا أن أكثر ما يصدق عليه هذا الوصف هو الرياح، وبالنظر في القرآن نخرج بنفس النتيجة،

فعلى الرغم من أن الله تعالى أرسل أشياءا كثيرة في القرآن مثل الصواعق أو السماء " المطر " أو الحفظة أو شواظ، إلا أن أكثر ما أرسل وينطبق عليه الوصف هو الرياح، فنجد قوله تعالى " وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ [الأنعام: ٦١]، وقوله " وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [الأعراف: ٥٧]، وقوله " أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [النمل: ٦٣] وقوله " وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [الروم: ٤٦] " وقوله " اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الروم: ٤٨] "

إذا حتى الآن يصدق هذا الوصف على الرياح، فإذا نحن نظرنا في الآية التالية وجدناها تزيد المعنى تأكيدا ففيها يقول الله تعالى " فالعاصفات عصفا " ونلاحظ أن الله تعالى عطف الآية على سابقتها بالفاء وليس بالواو مما يفيد أنها نفس الأولى مع حدوث تغير في الحال فقط، أما لو عطف بالواو لأفاد التغير. إذا فالمرسلات عرفا تعصف بعد ذلك عصفا، فيرجح ذلك أن يكون المراد منها الرياح وليس الملائكة، فمعنى العصف معروف بالنسبة للقارئ، ولكن نظرا لأنه قد يعرف مدلولا جزئيا للكلمة نقدم له المدلول الشامل حتى يستطيع أن يكون تصورا شاملا للفظة وكيف تكون في الواقع :

العصف كما جاء في المقاييس :

" العين والصاد والفاء أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على خِفَّةٍ وسرعة. فالأوَّل من ذلك العَصْف: ما على الحبِّ من قُشور التِّبن. والعَصْف ما على ساق الزَّرع من الوَرَق الذي يَبِس فتفتَّت، كل ذلك من العَصْف. قال الله سبحانه: فَجَعَلَهُم كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ [الفيل ٥]، قال بعضُ المفسِّرين: العصف: كلُّ زرعٍ أُكِل حَبُّه وبقي تبنُه.

وكان ابنُ الأعرابي يقول: العَصْف: ورقُ كلِّ نابت.... " اهـ

ومن ضمن معانيها في اللسان:

" ... وفي التنزيل: والحبُّ ذو العَصْف والرَّيْحانُ؛ يعني بالعصف ورق الزرع وما لا يؤكل منه، وأَمّا الريحان فالرزق وما أُكل منه، وقيل: العَصف والعَصِيفةُ والعُصافة التِّبْن، وقيل: هو ما على حبِّ الحِنطة ونحوها من قُشور التبن. " اهـ

فإذا نحن نظرنا في كتاب الله تعالى وجدناه يقول :

" وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ [الرحمن: ١٢]، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ [الفيل: ٥]، هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [يونس: ٢٢]، مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ [إبراهيم: ١٨]، وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ [الأنبياء: ٨١] "

فنخرج من هذا أن المقسم به هو الرياح في الآية الأولى لأنها ترسل متتابعة ثم تصبح بعد ذلك ريحا في الآية التالية لأنها أصبحت عاصفة ويبعد قول من قال أن المراد من ذلك أنها عاصفة في حمل

الخير، والراجح أنه المراد منها العاصفة كما يفهمها أي إنسان، تلك الريح التي تعصف بما يقابلها!

إذا فالله تعالى يقسم بقوى خفية من قوى الطبيعة قد تحمل في طياتها الخير والرخاء ولكنها في نفس الوقت قد تتحول إلى عذاب ووبال يحمل في طياته الموت والهلاك، وهذه القوة الطبيعية ليست متحركة بذاتها أو بطريقة عشوائية وإنما هي مرسلة بواسطة مرسل مدبر ينشر ويفرق !

ثم ينتقل الحديث بعد ذلك إلى صنف آخر بدليل استعماله سبحانه وتعالى الواو، فيقول الله تعالى " والناشرات نشرا " فما هي الناشرات ؟

بداهة لفظة النشر هي من الألفاظ المعروفة المألوفة للقارئ ونزيده معرفة فنقول، نشر كما جاء في المقاييس :

" النون والشين والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على فَتْحِ شيء وتشعُّبه. ونَشَرت الخشبةَ بالمنشار نَشْراً. والنَّشْر الرِّيح الطيِّبة. واكتَسَى البازِي ريشاً نَشَراً. أي منتشِراً واسعاً طويلاً. ومنه نَشَرتُ الكِتاب. خِلاف طويتُهُ. ونَشَر الله الموتَى فَنَشَروا. وأنْشَرَ الله الموتَى أيضاً. قال تعالى: ثُمَّ إذا شَاءَ أَنْشَرَه [عبس ٢٢]، ثم قال الأعشَى: حَتَّى يقولُ الناسُ لمَّا رأوا يا عَجَباً للميِّت الناشِرِ ونَشَرت الأرضُ: أصابها الرَّبيعُ فأنبتت، وهي ناشرة، وذلك النَّباتُ النَّشْر، ويقال إنَّه للرَّاعيةِ رديّ ...... " اهـ

وعلى الرغم من سهولة ووضوح المعنى اللغوي فإن الوصف قد ينطبق على أشياء كثيرة، فما هو المرجح لتحديد مدلول من بينها ؟ ننظر في كتاب الله تعالى لنر فيه من الذي ينشر ؟ فإذا نحن نظرنا في كتاب الله خرجنا باليقين التام أن المراد من الناشرات نشرا هي الملائكة، فنجد قوله تعالى:

" وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً [الكهف: ١٦]، وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ [الشورى: ٢٨]، أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ [الأنبياء: ٢١]، وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [الزخرف: ١١]، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ [الدخان: ٣٥]، بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً [المدثر: ٥٢]، ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ [عبس: ٢٢]، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ [التكوير: ١٠] "

فالنشر كله سواء كان بمعنى إحياء الموتي أو نشر الأرض الميتة أو نشر الرحمة أو الكتب في الآخرة كله متعلق بالله عزوجل، والله يجري هذا في الدنيا بواسطة الملائكة. إذا فالناشرات نشرا هن الملائكة والمراد من النشر هنا بداهة هو نشر الأرض الموات ونشر رحمة الله ونشر السحب. وفي استعمال هذا القسم فائدة في الرد على منكري البعث، فكما ينشر الله في الدنيا فكذلك سينشر في الآخرة. وقيل أن المراد من ذلك هو أن الملائكة تنشر أجنحتها عند صعودها أو نزولها! ولم نجد لهذا أصلا في كتاب الله عزوجل وليس له علاقة بالسياق !

وهنا يتوقف القارئ ليسأل: أقسم الله بالرياح ثم عاد فأقسم بالملائكة كما تقول، فما العلاقة بينهما وما الغرض من ذلك ؟ نقول: نلاحظ كما قلنا أن الله تعالى أقسم بالمرسلات وهي صيغة اسم مفعول تفيد البناء للمجهول، فهذا محفز للتفكر فيمن أرسلها ؟ إن من أرسلها هو الله عزوجل بواسطة الملائكة فهي التي ترسل الريح سواء إرسالا لطيفا متتابعا أو سريعا عاصفا! والقاسم المشترك بين الإثنين أن كلاهما قوى خفية لا يراها الإنسان، فلا أحد يرى الريح ولكننا كلنا نشعر بها وبأثرها ونراه، فكذلك الملائكة قد لا نراها ولا نشعر بها ولكنا نرى أثرها، فليس كل ما لا يراه الإنسان ليس موجودا! والناظر يجد أن

الآيات الخمس ترسم صورة طبيعية متكاملة لدورة الحياة، فالرياح ترسل ثم تشتد فتعصف ثم تأتي الملائكة فتنشر وتحيي ما عصفت به الريح ثم تفرق بين ما أنشرته ثم تلقي ذكرا للناس ![14]

فالفارقات فرقا: إذا أقررنا أن الناشرات هي الملائكة فحتما الفارقات هي كذلك ويؤيد هذا أيضا النظر في كتاب الله تعالى، فنجده يقول :

" فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ [الدخان: ٤]، وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ [البقرة: ٥٠]، تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً [الفرقان: ١]، وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً [الإسراء: ١٠٦]، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [الروم: ١٤] " فالملائكة هي حتما ولزاما التي تقوم بعملية الفرق هذه، ولقد قال السادة المفسرون أن المراد من الفرق أنها تفرق بين الحق والباطل، ولقد اقتربوا في قولهم هذا من المعنى المراد، ونحن نرى والله أعلم أن المراد من ذلك هو ما جاء في سورة الدخان حيث أن الملائكة هي التي تقوم بتسيير الكون بأمر الله تعالى، فيأمرها بفعل كذا وتنظيم كذا وتسيير كذا إلى آخر الأوامر التي تتلقاها الملائكة من الرحمن، فبها تفرق كل شيء. ويواصل الله وصف الملائكة فيقول " فالملقيات ذكرا " وبداهة أن الملائكة هي التي تلقي الذكر بدليل قوله تعالى " كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً [طه: ٩٩]، وكذلك قوله تعالى " فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً [الصافات: ٣] " فتكرار هذا المعنى في سورة الصافات يؤكد ويحتم أن المراد منها هنا هو الملائكة، وكما أشرنا إلى أن الآية الخمسين من

---

[14] ومن الممكن القول ان هذه الآيات المتعلقات بالملائكة تكمل المشهد من خلال إشارات إلى الآخرة ، فالريح العاصفة إشارة إلي الهلاك ثم يكون النشر بعد ذلك فيحي الناس ثم يفرقون " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [الروم : ١٤] " ثم تلقي الملائكة ذكرا لكل فريق منهم فتعرفهم مصيرهم وإلى أين منطلقهم فتعذر هذا وتنذر هذا ، فهؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار !

السورة تحتم أن يكون المراد من الذكر هنا هو القرآن والذكر وإن كان عاما يصدق على كل ما أوحاه الله ولكن هنا يرجح حصره في القرآن .

" عذرا أو نذرا " الناظر في أقوال المفسرين في هذه الآية يجدهم قد حصروها في الاية السابقة لها أي " فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا " مع أنه من الأولى أن تعمم فتجعل في الخمس آيات الماضيات، فيكون المعنى أن الله يرسل المرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالتاليات ذكرا كلها عذرا أو نذرا فكل أفعال الله في الكون إما هي عذر للناس[15] وكذلك هونذر لوقوع العذاب في الآخرة فلقد قدمنا لكم من الدلائل والآيات ولكنكم لم تؤمنوا فتستحقون العذاب: " وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [الأعراف: ١٦٤]، فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ [الروم: ٥٧] "

فهي عذرا أو نذرا لهم، فالمؤمن والكافر ينبغي عليهم أن ينذروا بما يحدث للآخرين ويتذكروا ويتفكروا ويعلموا أن الله هو المسيطر على الكون كله.

إذا فالله تعالى يقدم للإنسان صورة بديعة متمثلة في حركة الرياح المرسلة من عند الله ودورها في الإعمار وكذلك في الهدم والهلاك ثم يستكمل الصورة بدور الملائكة في النشر وإحياء ما مات وتفريق كل أوامر الكون وتنظيمها من أجل الإنسان ومصلحته ثم يصل الأمر إلى ذروته بإلقاء الذكر للإنسان من أجل هدايته ثم يقدم له علة هذه الصورة كذلك حتى لا يظل عقله مضطربا حائرا في تفسيرها أو

---

[15] للمؤمنين منهم ، لأن عقابه سبحانه لا يكون إلا على وجه الحكمة ، فإذا نزل ببعض المؤمنين في الدنيا كان من الإعذار !

تبريرها " عذرا أو نذرا " فمن أجل ماذا يقدم الله تعالى هذا كله ؟

يقدم الله تعالى هذا كله ليقول للبشر: " إنما توعدون لواقع " فهذه الجملة هي جواب المقسمات الخمس، فما وعد الله به البشر في الذكر " فالملقيات ذكرا " واقع واقع، ولكن ما هو الموعود ؟

الناظر في الآية يجد أن المذكور عام " ما توعدون " فيصدق على كل وعد أتى في الذكر، ولكن الناظر في السورة يجد أنها من أولها إلى آخرها تحتم أن يكون المراد من الوعد هو البعث والفصل بين المنشرين إلى النار أو إلى الجنة! فالسورة كلها رد على من ينكر البعث أو أن يكون هناك جنة أو نار! لذلك توعد الله هؤلاء المنكرين لهذه المسألة بقوله " ويل يومئذ للمكذبين "!

وبعد هذه الآية يبدأ التداخل البديع لهذه السورة والذي أرهق كثيرا من المفسرين في استخراج وحدتها، فبدلا من أن يبدأ القرآن في ذكر بعض الأدلة على وقوع هذه اليوم بدأ في ذكر بعض النصائح والإرشادات والتعريفات للكافرين، وبدأ هنا بتعريفهم بوقائع من التي تقع في اليوم الآخر وباقي النصائح المتعلقة بالدنيا ستأتي في آخر السورة، فيبدأ هنا بذكر أحداث في يوم الفصل من باب التعريف بها ضمنا ومن أجل إرشاد المكذبين إلى مصيرهم في يوم الفصل، فهذه الأربعة ليست علامات ليوم القيامة وإنما هي أحداث تكون فيها، تُذكر من أجل أمر معين سنوضحه، فقال لهم عندما يحدث هذا افعلوا ما سنأمركم به: " فإذا النجوم طمست " والطمس معلوم وهو كما جاء في المقاييس :

" الطاء والميم والسين أصلٌ يدلُّ على محوِ الشيء ومسحِهِ. يقال طَمَسْتُ الخَطَّ، وطَمست الأثرَ. " اهـ، وكما جاء في دعاء سيدنا موسى " ربنا اطمس على أموالهم "، فتطمس النجوم ويذهب نورها فلا ترى،

وكذلك " وإذا السماء فرجت " والفرجة معروفة وهي أصل يدل على تفتح في الشيء، ومن ذلك قول الله تعالى " إذا السماء انشقت "، " وفتحت السماء فكانت أبوابا " ولكن لا بد أن نلاحظ أن تشقق السماء غير كونها فتحت فصارت أبوابا، بل الشق أمر والفرجة أمر أكبر من الشق وأقل من الأبواب، فليس هذا هو ذاك، والناظر في السماء في الدنيا يجد أنها كلها وحدة واحدة، لذلك يقول الله تعالى " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ [ق: ٦] " أما في هذا اليوم فستفرج السماء! وكذلك " وإذا الجبال نسفت " والنسف معروف للقارئ المعاصر، وقيل أن المراد من النسف هو القلع من الأصول، يقال: نسف البناء إذا قلعه من أصوله، ولكن الصحيح هو ما يتبادر إلى ذهن القارئ عند سماعه للنسف ويؤيد هذا ما جاء في الكتاب العزيز في وصف أحوال الجبال يوم القيامة فيقول الله تعالى فيها: { وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً } [الواقعة: ٥] { وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً } [المزمل: ١٤] { فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً } [طه: ١٠٥] كما قال في حق عجل قوم موسى: " لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا " وكذلك " وإذا الرسل أقتت " الرسل هم هنا لا محالة رسل البشر لأن كلمة الرسل لم تأت في القرآن إلا مع الرسل من البشر مثل رسولنا الكريم، فالآية تقول " وإذا الرسل أقتت " أي حدد لهم الوقت الذي يأتون فيه للشهادة على أقوامهم، فجعلوا هم المواقيت لأقوامهم، ويصدق هذا قوله تعالى " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ [يونس: ٤٧] " فلقد أقت للرسل ميعاد لكي يأتوا فيه ليشهدوا على أقوامهم وهذا الميعاد هو يوم الفصل بين الناس، " ليوم الفصل " <u>ومن هذا نخرج بأن يوم الفصل ليس المراد منه اليوم الآخر بأكمله أو هو اسم من أسمائه وإنما هو اسم لموقف معين فيه</u>، كما أن باقي الأسماء توصيف معين لموقف فيها، فيوم الحشر غير يوم القيامة! فيوم

الحشر هو يوم الحشر ويوم القيامة هو يوم القيامة! وهكذا. ثم عظم الله تعالى هذا اليوم فقال " وما أدراك ما يوم الفصل " ولم يذكر الله تعالى هذه الآية فقط ليشير إلى التفخيم وإنما سيوضحها لنا الله تعالى في آيات لاحقات. والعجيب أن السادة المفسرون لعدم ربطهم الآيات ببعضها رأينا لهم أفهاما عجيبة في هذه الآية، فنجد الإمام الفخر الرازي يقول في تفسير آية " وإذا الرسل أقتت " :

" في التأقيت قولان: الأول: وهو قول مجاهد والزجاج أنه تبيين الوقت الذي فيه يحضرون للشهادة على أممهم، وهذا ضعيف[16] وذلك لأن هذه الأشياء جعلت علامات لقيام القيامة[17]، كأنه قيل: إذا كان كذا وكذا كانت القيامة، ولا يليق بهذا الموضع أن يقال: وإذا بين لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم قامت القيامة لأن ذلك البيان كان حاصلاً في الدنيا ولأن الثلاثة المتقدمة هي الطمس والفرج والنسف مختصة بوقت قيام القيامة، فكذا هذا التوقيت يجب أن يكون مختصاً بوقت قيام القيامة. القول الثاني: أن المراد بهذا التأقيت تحصيل الوقت وتكوينه، وهذا أقرب أيضاً إلى مطابقة اللفظ، لأن بناء التفعيلات على تحصيل تلك الماهيات، فالتسويد تحصيل السواد والتحريك تحصيل الحركة، فكذا التأقيت تحصيل الوقت ثم إنه ليس في اللفظ بيان أنه تحصيل لوقت أي شيء، وإنما لم يبين ذلك ولم يعين لأجل أن يذهب الوهم إلى كل جانب فيكون التهويل فيه أشد فيحتمل أن يكون المراد تكوين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم وأن يكون هو الوقت الذي يجتمعون فيه للفوز بالثواب، وأن يكون هو وقت سؤال الرسل عما أجيبوا به وسؤال الأمم عما أجابوهم، كما قال: { فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين } [الأعراف: ٦]

---

[16] وهو الصحيح بإذن الله تعالى !!

[17] النص لا يقول بهذا بل هي في يوم القيامة ومذكورة لغاية !

وأن يكون هو الوقت الذي يشاهدون الجنة والنار والعرض والحساب والوزن وسائر أحوال القيامة، وإليه الإشارة بقوله: { وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ } . اهـ

فانظر كيف أن عدم وجود تصور كامل للسورة يؤدي إلى تخبط ما بعده تخبط، وتتبع باقي تفسيره للآيات التاليات فسترى قولا عجيبا، ونظرا لوقوع الخطأ منه في أول الأمر كان لا بد لهذا الخطأ أن يتواصل فنجده يقول بعد ذلك :

" أين جواب قوله: { فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ } ؟ الجواب: من وجهين أحدهما: التقدير: إنما توعدون لواقع، إذا النجوم طمست، وهذا ضعيف، لأنه يقع في قوله: { فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ }، الثاني: أن الجواب محذوف، والتقدير { فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ } وإذا وإذا، فحينئذ تقع المجازاة بالأعمال وتقوم القيامة. " اهـ

وكلا القولين ضعيف وتقوّل على الله يغير علم، فجواب الشرط موجود في السورة كما أن الرد على قوله تعالى " وما أدراك ما يوم الفصل " موجود كذلك، ولكنه لم ينظر في السورة بما فيه الكفاية! فإذا نحن نظرنا في السورة وجدنا أن جواب الشرط لقوله تعالى " فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ (١١) لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ " هو قوله تعالى " انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب " فهذا هو جواب الشرط، فالآيات تقول للمكذبين المنكرين للبعث بعد أن أخبرتهم أن ما يوعدون به واقع: إذا حدث كذا وكذا فانطلقوا إلى النار التي كنتم بها تكذبون. وكما قلنا فلقد بدأ القرآن بتوجيه المكذبين إلى النار قبل عرض الأدلة على الوقوع – والتي سنعرض لها حالا – كأنه يشير بذلك إلى حتمية وقوع هذا الأمر وأنه لا يحتاج

إلى تدليل ويقول لهم: إذا وقع فاعملوا كذا وكذا. أما الجواب على قوله تعالى " وما أدراك ما يوم الفصل " فهو قوله تعالى " هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ " فالله نعم يفخم هذا اليوم ولكنه يعود فيوضح للرسول كنه هذا اليوم بهذه الآيات .

وبعد أن يتوعد الله تعالى المكذبين فيقول لهم " ويل يومئذ للمكذبين " والملاحظ كما قلنا أن هذه الآية تكررت في السورة عشر مرات، وليس في هذا تكرار بل كل وعيد في يوم " ساعة، موقف " مخصوص، يستحق بسبب تكذيبه الوعيد فيه، فعندما ينزل العذاب سيعرف تحقق الوعيد! وفي هذا إشارة إلى أن التوعد حق للرحمن، فلقد أرسل النذر المتتاليات الجلية والخفية ولكنهم كذبوا وعاندوا.

" ألم نهلك الأولين " يبدأ الله تعالى هنا في التدليل على وقوع البعث والفصل بين المبعوثين إلى جنة ونار فيذكر تصديقا لقوله السابق " إنما توعدون لواقع " ثلاثة استدلالات يرد بها على المكذبين لهذا، ويبدأ هذه الاستدلالات بوقوع هذا الأمر فعليا وجزئيا في الدنيا، فليس الأمر من الغيبيات التي تشككون فيها، فيقول لهم " ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين " فعملية الإهلاك والاتباع مما يراها الإنسان في حياته، فلقد رأينا نحن بأعيننا مثلا عملية إهلاك أمم ثم اتباعها بآخرين وإحيائها (ألمانيا على سبيل المثال) ثم ستهلك ولو بالدهر بأمر الله، وبداهة ستأتي الإجابة من الإنسان على هذا السؤال ببلى، فلقد أهلك الله الأولين لما كذبوا وعاندوا الرسل فاستحقوا الهلاك[18]، ثم إن عملية الإهلاك ذاتها مستمرة حتى قيام الساعة،

[18] ومن يشكك في هذا يأمره الله تعالى بالسير في الأرض في آيات كثيرات للتحقق من ذلك، نذكر منها : " قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [آل عمران : ١٣٧] "

لذلك قال الله تعالى " ثم نتبعهم " فاستعمل صيغة المضارعة ليدل على استمرارها، ومن أمثلتها في الآخرين إهلاك الله تعالى لأصحاب الفيل لما أرادوا أن يهدموا الكعبة وهذه لا يشكك فيها إلا الملاحدة الذين ينسبون الفعل إلى الطبيعة أو إلى العبثية أو إلى الصدفة! ولست أدري أي صدفة هذه التي تجعل مرضا فتاكا ينتشر في جيش موجود في بلدة ويترك أهلها فلا يمسهم ؟! إذا فكما أهلكنا الأولين والآخرين " كذلك نفعل بالمجرمين " فليس الأمر عسير أو جديد بل هو فعل مكرور وفي هذا اليوم، يوم الإهلاك " ويل يومئذ للمكذبين ". إذا الاستدلال الأول هو وقوع الأمر جزئيا في الدنيا، ثم يأتي الاستدلال الثاني وهو قوله تعالى " ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم " السادة المفسرون على أن المراد من الآية هنا هو خلق الإنسان في بطن أمه ويرون أن المراد من القرار المكين هو رحم الأم، حيث يتمكن الحيوان المنوي منه ويصبح مستقرا له، أما القدر المعلوم فهو ساعة الولادة، وهذا القول محتمل وإن كنا نرى أن المراد من ذلك هو خلق الإنسان الأول حيث خلق كذلك من ماء مهين وُضِع في أرحام أرضية ومنها خرج الإنسان كاملا حين قدر الله تعالى ذلك [١٩].
" فقدرنا فنعم القادرون " قيل أن المراد: فقدرنا على خلقه وتكوينه وإنشاءه وقيل أنه من التقدير أي تقدير الأجل أو الموت وهو بعيد، فالآية تمدح القادر فكيف يكون ذلك فيمن يميت، أما في القدرة فمقبول إلى حد ما، أما إذا قلنا أن المراد من التقدير هو تقدير الإخراج والظهور فمقبول وبهذا يستقيم المعنى وينتظم. وفي الآية إشارة إلى أن بطن الأرض – أو رحم الأم على أقوال المفسرين – هي مثل القبر، فعندما أراد الله عزوجل خرج الإنسان منها، وكذلك عندما يريد الله عزوجل يخرج الإنسان يوم القيامة. " ويل يومئذ للمكذبين " ما هو عود "يومئذ"

---

[١٩] لمزيد من التوضيح في هذه المسألة يرجى مراجعة نظريتنا في خلق الإنسان المنشورة على موقعنا www.amrallah.com

هنا ؟ نقول هي والله أعلم عائدة إلى يوم البعث وهو ليس يوم الفصل، ففي يوم الفصل يُفصل بين الناس، أما في يوم البعث فيُبعث الناس، أما الدليل على ترجيح كونها راجعة إلى البعث فهو أن الآيات السابقات تتكلم على قدرة الله تعالى على الخلق وإخراج الخلق في المرة الأولى فمن قدر عليه مرة يقدر عليه أبدا! إذا فالاستدلال الثاني هو أن من يقدر على الشيء مرة يقدر عليه دوما، أما الاستدلال الثالث فهو قوله تعالى " أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) "

وقبل أن نبدأ في التعرض لاستدلال الله عزوجل بهذه الآيات لا بد من التوقف مع قوله تعالى " كفاتا " فما المراد من الكفت ؟ إذا نظرنا في المقاييس وجدناه يقول: " الكاف والفاء والتاء أصلٌ صحيح، يدلُّ على جَمْعٍ وضمّ. من ذلك قولهم: كفَتُّ الشَّيءَ، إذا ضممتَه إليك. ..... وأمَّا قولهم إنّ الكَفْتَ: صرفُكَ الشّيءَ عن وجهه فيَكْفِتُ أي يرجع، فهذا صحيح، " اهـ

وهو كما جاء في اللسان: " الكَفْتُ: صَرْفُكَ الشيءَ عن وَجْهه. كَفَتَه يَكْفِتُه كَفْتاً فانْكَفَتَ أَي رَجَعَ راجعاً. وكَفَتَه عن وَجْهه أَي صَرَفه. "

والعجيب أن الناظر في أقوال المفسرين يجدهم أنهم قد أضاعوا الاستدلال العظيم الذي ذكره الله عزوجل، فأتوا بقول آخر ماسخ المعنى والدلالة مخالف للفظ الآية التالية لها فجعلوا أنه كان من الأولى أن تكون بشكل آخر! فنجدهم يقولون في تفسيرهم! لهذه الآية كما جاء عند الفخر الرازي في تفسيره – وهم كلهم تقريبا مجمعون على هذا الأمر – :

" ... ثم في المعنى وجوه أحدها: أنها تكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها والمعنى أن الأحياء يسكنون في منازلهم والأموات يدفنون في

قبورهم، ولهذا كانوا يسمون الأرض أما، لأنها في ضمها للناس كالأم التي تضم ولدها وتكفله، ولما كانوا يضمون إليها جعلت كأنها تضمهم. وثانيها: أنها كفات الأحياء بمعنى أنها تكفت ما ينفصل من الأحياء من الأمور المستقذرة، فأما أنها تكفت (الأحياء) حال كونهم على ظهرها فلا. وثالثها: أنها كفات الأحياء بمعنى أنها جامعة لما يحتاج الإنسان إليه في حاجاته من مأكل ومشرب، لأن كل ذلك يخرج من الأرض والأبنية الجامعة للمصالح الدافعة للمضار مبنية منها. ورابعها: أن قوله: { أَحْيَاء وأمواتا } معناه راجع إلى الأرض، والحي ما أنبت والميت مالم ينبت، بقي في الآية سؤالان: الأول: لم قيل: { أَحْيَاء وأمواتا } على التنكير وهي كفات الأحياء والأموات جميعاً ؟ الجواب: هو من تنكير التفخيم، كأنه قيل: تكفت أحياء لا يعدون، وأمواتاً لا يحصرون. " اهـ

وهنا لم يذكر لنا السادة المفسرون علاقة هذه الآية بالاستدلال على البعث، ولكن إذا نحن فهمنا الآية كما ينبغي، وكما ذكر الإمام الفخر احتمالا – ولم يأخذ به – في الوجه الرابع وهو أن المراد من أحياءا وأمواتا هو الأرض فنكون قد أخرجنا وجه الاستدلال بها، ونوضح للقارئ فنقول:

الكفت كما جاء في اللسان صرفك الشيء عن وجهه ورده، والكفات جمع كافتة، فالله تعالى يسأل الإنسان: ألم نجعل الأرض كفاتا ؟ قطعا متقلبات نغيرها من حال إلى حال، أحياءا وأمواتا ؟ فمنها ما هو حي (ولكونها كفاتا فسيموت هو الآخر ثم يحي وهكذا) ومنها ما هو ميت وسنحييه هو الآخر لأنه كفات! والحي من الأرض هو الذي ينبت وفيه خير والميت ما لا ينبت، وليس ما قالوه وزعموه، ومن أجله أرادوا أن يجعلوا الآية هكذا: " كفات الأحياء والأموات! "

فالله تعالى يذكر الإنسان بما تراه عيناه من تقلب الأرض بين الإماتة والإحياء ويذكره كذلك بأنه جعل فيها رواسي شامخات أي جبال مرتفعات عاليات، " وأسقيناكم ماءا فراتا " ولكن ما العلاقة بين الجبال الشامخات والأرض الكفات ؟ العلاقة هي أن الله يذكر للإنسان نعمه عليه في تنويع الطبيعة حوله فلقد جعل الأرض كفاتا مختلفة بين الميتة والحية وجعل في هذه الأرض كذلك أشكالا أخرى فمن هذه الأرض الجبال الشامخات .[٢٠] " وأسقيناكم ماءا فراتا " والماء الفرات هو أشد الماء عذوبة، والحق يقال أني كنت قد توقفت في هذه الآية فما علاقتها بسابقتها أو بالسورة عامة ؟ ثم فتح الله لي فيها، فأولا يمكننا القول كما يقول أنصار التفسير العلمي أن للجبال دور في سقوط الأمطار، فعندما ترتطم الرياح المرسلات بالجبال الشامخات تسقط الأمطار فيشرب ماءا فراتا، لذلك حسن مجيء السقيا بعد الجبال، ولكن الناظر يجد أن النسق العام للسورة هو ذكر التقليبات والتغيرات في الأحوال، فالجبال الشامخات هذه لم تكن في مبتدأ الأمر هكذا ولكنها ظهرت وخرجت عندما أرساها الله عزوجل وكذلك هذا الماء الفرات كان ماءا ثم تحول إلى بخار ثم عاد مرة أخرى ماءا فراتا على الرغم من أن معظمه يخرج من الماء المالح! فمن يرى مثلا بحيرة قد جف ماءها ييأس أن تمتلئ مرة أخرى ولكن دورة الطبيعة التي أوجدها الله دائرة فتسير الرياح المرسلات بالسحاب المنشورات بيد الملائكة الفارقات فينزل الماء فيشرب الإنسان وتمتلئ البحيرة مرة أخرى، وهكذا الإنسان فهو كذلك خاضع لدورة الكفت ،فهو سيموت ويتحلل ثم يختفي كما تبخر الماء، ثم يُحيى كما أحييت الأرض بعد موتها

---

[٢٠] الناظر يجد أن ما يصدق على الأرض يصدق على الجبال بشكل أو بآخر، ويذكره الله عزوجل أن هذه الجبال الشامخات المتكبرات التي يحسبها الإنسان باقية لا تفنى أو لا تتغير سيكون لها موقفا آخر " وإذا الجبال نسفت " فهي أيضا خاضعة لمسألة الهلاك !

" يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [الروم: ١٩] " وله في الجبال الشامخات وفي دورة الماء في الطبيعة خير عبرة وعظة لعوده مرة أخرى يوم البعث، فكما عاد هؤلاء وتقلبوا سيعود ويقف بين يدي الله عزوجل. " ويل يومئذ للمكذبين " ففي هذا اليوم " يوم النشر " وهو من أول مشاهد اليوم الآخر حيث يُنشر الناس محولين من أموات إلى أحياء للمكذبين الويل ! إذا فالله تعالى استدل لخلقه على البعث بثلاث من الأدلة: الحدوث الجزئي الواقعي للإهلاك، ثم دليل منطقي وهو وأن القادر مرة قادر أبدا وأخيرا الحدوث الجزئي الواقعي للبعث والنشر، فها هي أدلة واقعات أمام عينك أيها الإنسان، فماذا أنت قائل ؟

وبعد أن عرض الله تعالى الأدلة الواقعات على وقوع الموعود به، يبدأ في استكمال توجيهه للمكذبين في يوم الفصل، فبعدما قال لهم :

" فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ (١١) يقول لهم هنا " انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون "

يأمرهم بالانطلاق إلى النار، وعلى الرغم من أن النار ليس لها ذكر صريح في السورة إلا أن الإشارات والدلائل على أن المراد منها هو النار أكثر من واضحة، ففي غير السورة قال الله تعالى " هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ [الطور: ١٤] " ويقول " .... وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ [سبأ: ٤٢] "، ثم إن هذا الذي كانوا به يكذبون " ترمي بشرر كالقصر "، فيفهم بداهة أن المراد من ذلك ليس عاما وإنما هو النار، فيقول الله تعالى لهم: انطلقوا إلى النار التي كنتم بها تكذبون! " انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب " ما المراد من الظل ذي ثلاث شعب ؟

اختلف المفسرون في المراد من هذا الظل، فقالوا كما جاء في مفاتيح الغيب :

" وقوله: { إلى ظِلّ } يعني دخان جهنم كقوله: { وَظِلّ مّن يَحْمُومٍ} [الواقعة: ٤٣] ثم إنه تعالى وصف هذا الظل بصفات :

الصفة الأولى: قوله: { ذِى ثلاث شُعَبٍ } وفيه وجوه أحدها: قال الحسن: ما أدري ما هذا الظل، ولا سمعت فيه شيئاً وثانيها: قال قوم المراد بقوله: إلى ظل ذي ثلاث شعب: كون النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومحيطة بهم، وتسمية النار بالظل مجاز من حيث إنها محيطة بهم من كل جانب كقوله: { لَهُمْ مّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مّنَ النار وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ }[٢١] [الزمر: ١٦] وقال تعالى: { يَوْمَ يغشاهم العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ } [العنكبوت: ٥٥] وثالثها: قال قتادة: بل المراد الدخان وهو من قوله: { أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا } [الكهف: ٢٩] وسرادق النار هو الدخان، ثم إن شعبة من ذلك الدخان على يمينه وشعبة أخرى على يساره، وشعبة ثالثة من فوقه. .... ورابعها: قال قوم: هذا كناية عن كون ذلك الدخان عظيماً، " اهـ

نقول: الملاحظ أن الآية قالت " ظل " وهم قالوا بشيء غير ذلك، وذلك لتحيرهم ولعدم رؤيتهم أو معرفتهم بوجود ظل متشعب، ثم جعلوا هذا الظل في النار أو هو النار أو نابع من النار، ولكنا نرى أن هذا يكون قبل الولوج إلى النار. ولكن كيف يكون هذا الظل المتشعب ؟ نقول الله أعلم، فلا يستطيع أحد أن يجزم بهيئة المراد من الظل ذي ثلاث شعب هذا، فالآية وإن كانت واضحة المعنى لألفاظها ولها تصورها الواضح في الذهن ولكن لا يستطيع المرء أن يجزم بأن هكذا سيكون الحال في الآخرة، ولكنا نعرضه للقارئ من باب أن هذا التصور

---

[٢١] ولكن هذا في الظلل وهي جمع ظلة وليس ظل .

تنطبق عليه الآية: بادئ ذي بدأ نُعرّف القارئ بمعنى الشعب، وهي وإن كانت معروفة المعنى ولكن نزيدها تحديدا، فنقول: الشعب جمع شعبة وأصلها: شعب، وهي كما جاء في المقاييس:

" الشين والعين والباء أصلان مختلفان، أحدهما يدلُّ على الافتراق، والآخر على الاجتماع. ثمَّ اختلف أهلُ اللغة في ذلك، فقال قومٌ: هو من باب الأضداد. (أي أنها تأتي بالمعنى وضده) وقد نصَّ الخليلُ على ذلك. وقال آخرون: ليس ذلك من الأضداد، إنّما هي لغات. ...... وقولهم للصَّدْعِ في الشيء شَعْب. ومنه الشَّعْب: ما تشعّبَ من قبائل العرب والعجم، والجمع شعوب. قال جل ثناؤه: وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ [الحجرات ١٣]. ويقال الشَّعب: الحَيُّ العظيم. .... ويقال: انشعبت بهم الطُّرق، إذا تفرَّقَتْ، وانشعبت أغصانُ الشجرة .... والشِّعب: ما انفرَجَ بين الجبلَين. وشَعوبُ: المنِيّة؛ لأنَّها تَشعَب، أي تفرِّق. ويقال شَعبتْهم المنيّة فانشعبوا، أي فرّقتْهم فافترقوا. ... قال:قال ابن دريد: "وسمِّي شعبانُ لتشعُّبهم فيه، وهو تفرُّقُهم في طلب المياه." وفي الحديث: "ما هذه الفُتْيا التي شعَّبت الناس؟ ". أي فرّقتهم. وأما الباب الآخر فقولهم شَعَبَ الصَّدْعَ، إذا لاءمَه. وشَعَبَ العُسَّ وما أشبهه . ويقال للمِثْقَب المِشْعَب " اهـ

إذا فالتشعب هو بمعنى التشعب! أو التفرع باستعمالنا المعاصر، فلكي يحدث تشعب لا بد من وجود أصل واحد يصدر عنه المتشعبون، لذلك لا بد من حدوث التجمع والافتراق وليس في الأمر عجب، فهذا ما نراه مثلا في الشجرة ففيها أصل واحد ومنها يتشعب الفروع وكذلك في البحر يتشعب منه الخلجان. فإذا نحن نظرنا في الآية الموجودة بين أيدينا وجدنا أنها تشير إلى وجود أكثر من مصدر للضوء في هذا اليوم والله أعلم بكيفية وجود مصادر الضوء هذه، وعند وجود هذه المصادر المتعددة المختلفة يتكون هناك ظل ثلاثي الشعب، ونزيد

الصورة توضيحا وتقريبا للقارئ فنقول:

لقد أصبحنا نرى هذا المشهد من الظل في أيامنا هذه، فلاعب كرة القدم في الملعب له أربعة ظلال لوجود كشافات في الاتجاهات الأربعة، ومن المعلوم أن الظل يتكون من وقوع الضوء على جسم فتحدث عملية حجب للضوء عن المساحة خلف هذا الجسم لأن الجسم حجب الضوء عنها ويظهر الظل متشكلا بشكل الجسم الحاجب للضوء، أما في حالة وجود مصادر الضوء في الاتجاهات المختلفة فإنا نرى ظلا فعلا ولكن هذا الظل يكون رفيعا نحيلا لا يُجدي ولا ينفع. لذا فإن تصوري للمشهد يوم القيامة أنه مماثل لما نراه في أيامنا هذه من وجود مصادر مختلفة للضوء وليس مصدرا واحدا، ونذكر القارئ أن الله تعالى قال: " يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [إبراهيم: ٤٨] " فالكون يوم القيامة كون غير كوننا هذا، فالله أعلم بمصادر الضوء فيه[٢٢]

ولوجود الضوء من اتجاهات مختلفة فُقدت فائدة الظل، لذلك قال الله تعالى " لا ظليل ولا يغني من اللهب " .[٢٣]

ثم يصف الله تعالى النار التي كذبوا بها فيقول: " إنها ترمي بشرر كالقصر " والشرر معروف وهو ما يتطاير من النار، ولكن هل المراد من القصر هو البناء العظيم المعروف ؟ الناظر يجد أن بعض المفسرين قالوا أن المراد من القصر هو البناء الكبير المعروف! ولست أدري ما العلاقة بين القصر وشرر جهنم ؟! فالقصر في الفكر البشري كله رمز للنعيم والثراء، فكيف يشبه به نار جهنم ؟! أما إذا أراد التشبيه في

---

[٢٢] ولكن لم سيكون الظل ذا ثلاث شعب لم ليس أربع ؟ نقول والله أعلم لأن الاتجاه الرابع هو جهنم ومن هذا الاتجاه لا يأتي أي ضوء وإنما تأتي الأضواء من الاتجاهات الأخرى ، لذلك كان الضوء ذا ثلاث شعب وليس أربع والله أعلم .

[٢٣] كل ما ذكرناه في مسألة الشعب هو احتمال وتصور الله أعلم به ولكنه غير مخالف للنص .

الحجم فهناك الكثير من المشبهات الأخرى التي تناسب هذا الموقف! ثم إن السادة القائلين بهذا القول غفلوا عن أن القصر مشبه به بالنسبة للشرر وهو جمع وكذلك هو مشبه بالجمالات الصفر وهي جمع، فكيف يأتي مفرد بين جمعين ويكون مشتركا بينهما ؟! الراجح أن المراد إذا من القصر هنا هو صيغة جمع وليس اسما مفردا، فإذا نحن نظرنا في اللغة وجدنا أن القصر جمع " قصرة "، كما أن التمر جمع تمرة! فما هي القصرة ؟

القصرة هي: الواحد من الحطب الجزل الغليظ وقيل أن المراد منها أصول النخل أو الشجر، ولقد جاء في الأثر: " قال عبد الرحمن بن عابس: سألت ابن عباس عن القصر فقال: هو خشب كنا ندخره للشتاء نقطعه وكنا نسميه القصر " وبغض النظر عن كونه حطب غليظ أو أصول الشجر فالمعنى واضح وهو أن شرارة النار والتي هي شيء حقير في الدنيا مثل أصل الشجرة، ومن المعلوم بداهة العلاقة بين الشجر والنار. إذا فالمراد من القصر هو جمع وليس مفردا وهو نبات والنبات يستعمل في الإيقاد، فهناك علاقة بين القصر والشرر، وكذلك فإنه من الممكن أن يشبه هذا القصر بالجمالات الصفر والمراد من الجمالات الصفر جمع جمل أو جِمالة وهي الحيوان المعروف، وقيل أن المراد منها حبال السفن الغليظة. والأرجح والله أعلم أن المراد من ذلك الحيوان لا الحبال، لأن الحيوان فيه حركة واندفاع كما يكون من الشرر بخلاف الحبال الخاملة.

إذا فالله تعالى يوضح للمكذبين عظم مقدار النار وكيف أن شررها كالقصر وكيف أنه متتابع ذو لون أصفر[٢٤] مثل مشهد الجمال

---

[٢٤] الناظر في أقوال المفسرين في الصفر يجد أنهم يميلون إلى جعلها مسودة وليست صفراء ! ولقد رد عليهم الإمام الفخر الرازي فقال : " أما قوله : صفر فالأكثرون على أن المراد منه سود تضرب إلى الصفرة، قال الفراء : لا ترى أسود من الإبل إلا وهو مشوب صفرة، والشرر إذا

المتتابعات وفي هذا اليوم الذي يذهبون فيه إلى النار " ويل يومئذ للمكذبين " .

ثم يعود الله تعالى إلى تحديد يوم الفصل للرسول، فبعد أن قال له: " وما أدراك ما يوم الفصل " يقول له هنا " هذا يوم لا ينطقون " ففي هذا اليوم لا ينطق المكذبين، ونُذكّر بأن اليوم الذي لا ينطق فيه المكذبون ليس طيلة اليوم الآخر ولكنه يوم الفصل، والمشكلة أن السادة المفسرين لما جعلوا يوم الحساب ويوم الفصل ويوم القيامة ويوم البعث ويوم الحشر أسماءا مترادفات لليوم الآخر تخبطوا وأوجدوا تعارضات في النص القرآني حاولوا هم أن يردوها، فقالوا أن المراد مثلا هنا أنهم لا ينطقون بحجة أو بشيء نافع ليوفقوا بين قوله تعالى " ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ [الأنعام: ٢٣] " وقوله " يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً [النساء: ٤٢] " ولكن الآية واضحة فهي تقول: " هذا يوم لا ينطقون " والمعروف أن النطق أقل في الكم والكيف من الكلام والقول، فالآية نفت أن يخرج منهم أي صوت، فكيف نجعل مراد الآية أنهم لم يقولوا قولا نافعا ؟!

أما على فهمنا نحن فلا تعارض، فيوم الفصل يكون بعد يوم البعث والذي يكون بعده يوم الحشر ثم يكون يوم الحساب ثم يكون يوم الفصل، وفي يوم الفصل حيث يقاد المكذبين إلى النار ويكون المؤمنون في الجنة!

إذا فيوم الفصل يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون فلا محاجة

تطاير فسقط وفيه بقية من لون النار كان أشبه بالجمل الأسود الذي يشوبه شيء من الصفرة . وزعم بعض العلماء أن المراد هو الصفرة لا السواد، لأن الشرر إنما يسمى شررا ما دام يكون نارا، ومتى كان نارا كان أصفر، وإنما يصير أسود إذا انطفأ، وهناك لا يسمى شررا، وهذا القول عندي هو الصواب ." اهـ

ولا جدال ولا إذن أساسا حتى بالإقرار من أجل الاعتذار، لأن الله تعالى قد ألغى حجة الإنسان بما أرسل إليه من النذر والرسل البشرية والطبيعية، وتذكر أول السورة إلى الآية السادسة، ففي هذا اليوم " ويل يومئذ للمكذبين "، " هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين " أي أنكم مجمعون أيها المكذبون أنتم والأولين، فكما أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين فكذلك نجمعهم كلهم يوم القيامة فلا يغيب عنا أحد. " فإن كان لكم كيد فكيدون " فكأن الله تعالى يقول للمكذبين: ها أنتم مجمعون مع أقرانكم منذ قيام الساعة، فماذا أنتم فاعلون بتجمعكم هذا وهل هو مفيدكم في شيء ؟ هل لا يزال لديكم نفس التفكير الأحمق " أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ [القمر: ٤٤] " ؟ فكلكم موجودون مجموعون ولكن لا ينفعكم ذلك في شيء، ففي هذا اليوم يوم لا ينفعكم مكركم ولا كيدكم ولا جمعكم " ويل يومئذ للمكذبين "

وكعادة القرآن دوما يقوم باستكمال الصورة، فإذا ذكر أهل النار يذكر أهل الجنة فيقول: " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) " فهناء الجنة هناء أبدي غير منقطع، ونلاحظ المقابلة البديعة التي أجراها القرآن بين أهل النار وأهل الجنة، فعندما قال لهم " انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب " قال هنا في حق المؤمنين " إن المتقين في ظلال وعيون " فهم في ظلال وليس ظل كما أنهم في عيون حيث يتوفر الشراب والرخاء بخلاف من في النار، فكل أيها المؤمن واشرب كما يحلو لك بما كنت تعمل، فهكذا نجزي المحسنين! فبسبب إحسانك كان الجزاء وبسبب تكذيب الآخر كان العقاب. وفي هذا اليوم أي يوم أن يكون المؤمنون في الجنة " وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) " فهم في النار يصلون سعيرها!

وبعد أن عرض الله موقف المكذبين والمؤمنين في يوم الفصل عاد فذكر لهم الإرشادات والنصائح المخوفة في الدنيا استكمالا لما ذكره في قوله " إنما توعدون لواقع، فإذا النجوم طمست .... " فهناك ذكر أحداث الآخرة وهنا يعود فيقول لهم: " كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون " فمهما طالت أعماركم فهي قصيرة وأنتم ميتون وبعد الموت سيقع ويكون ما نحن به مخبرون، ونلاحظ أن الله تعالى قال للمتقين " كلوا واشربوا هنيئاً " أما المكذبين فقال لهم " كلوا وتمتعوا قليلا " فبين الإثنين فارق كبير! لأنكم أيها الآخرون مجرمون وعند تكذيبكم " ويل يومئذ للمكذبين " " وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون " قيل أن المراد من الركوع هنا هو الركوع المعروف في الصلاة ولكن هذا بعيد والأرجح أن المراد من الركوع هو الخضوع والخشوع لله، فإذا حدث وتحقق خوطب الإنسان بباقي الأوامر، أما أن أخاطبه بالركوع الجسدي وهو لم يركع قلبا وعقلا فهذا ما لا يُقبل، ثم إن الآية القادمة دليل على هذا الفهم ؟ " ويل يومئذ للمكذبين " أي ويل لهم يوم لا يؤمنون ولا يخضعون فهذا سبب كل ما ينزل وسينزل بهم. " فبأي حديث بعده يؤمنون " أي فبأي حديث بعد ما ذكرنا في القرآن عامة والذي هو الذكر الملقى في أول السورة وما جاء في هذه السورة خاصة يؤمنون ؟ فلقد ذكرنا لكم الدلائل الجلية والخفية وذكرناكم بما كان منكم وما كان من غيركم وعرفناكم ما سيكون ويقع بكم، وعلى الرغم من ذلك لم تؤمنوا، فماذا تريدون إذن لتؤمنوا ؟

فانظر أخي في الله إلى هذا الأسلوب الأدبي العالي الذي لم يسبق، وكيف عرض الصورة بطريقة متداخلة بديعة تقطع على المفكر كل فكرة وتنقله من واد إلى آخر، فلا يملك من يسمع هذا الحديث الواثق إلا أن يعرف أن من يقوله قادر على أن يفعله .

هدانا الله لما فيه خير الصواب وعصمنا من الزلل والخلل .

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين وصلاة وسلاما على المبعوث رحمة للعالمين، أما بعد: نواصل حديثنا عن سور الأقسام المتعددات ونتناول اليوم بإذن الله تعالى وعونه سورة الذاريات وهي سورة مكية النزول كما جاء في الروايات وهي مكية المبنى والمحتوى، وعلى الرغم من أن السورة لا تعتبر من السور الغامضة المحتوى إلا أن المفسرين اختلفوا كعادتهم في المقسم به فلم يتفقوا عليه ولم يحددوا العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه وعلاقتهما كليهما بالسورة! كما لم يعرضوا لنا الوحدة الموضوعية لهذه السورة العظيمة، لذا نبدأ متوكلين على الله العلي لنبين ما في هذه السورة من تناسب وتناسق ووحدة واتفاق في النهج مع إخوتها من سور الأقسام السابقات التي تعرضنا لها :

المنظور العام للسورة :

إن الناظر في سورة الذاريات يجد أنها كلها تدور في فلك الآيتين " إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع " أي أن السورة هي من أولها إلى

آخرها تأكيد لصدق وعد الله ونصرته للدين ووقوعه! فقبلهما صورة لعملية طبيعية متصلة ممثلة في أربعة أقسام عليهما " وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) " وبعدهما قسم آخر نابع كنتيجة منطقية لموقف المخالف وهذا القسم هو قوله تعالى " وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ "، ثم بعد ذلك عرض لنماذج من وقوع القسم الأول في الآخرة ثم استدلال بالطبيعة عليه ثم استدلالات تاريخية عليه تبدأ بقصة جامعة للمقسمين عليهما وهي قصة المرسلين مع نوح ولوط ثم بعد ذلك إرشاد إلى كيفية التعامل مع هذا الواقع الوارد في الأقسام ثم تنتهي السورة بتوعد الكافرين بحدوث ما جاء في الآيتين المذكورتين كنتيجة منطقية لفعلهما فليس في الأمر أي مظلمة أو غبن .

ونبدأ مع السورة الكريمة: بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بقوله تعالى " وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) " اختلف المفسرون في المراد من هذه المقسمات بها الأربعة فقال بعضهم أنها كلها أمر واحد وهي الرياح وهو الراجح بإذن الله تعالى، وقيل أنها مختلفات، فقيل أن الذاريات هي الرياح والحاملات هي السحب والجاريات هي السفن والمقسمات هي الملائكة، وقيل أن هذا قسم تصاعدي بُدأ فيه بالرياح ثم السحب ثم الكواكب ثم الملائكة. وبداهة فإن مراد الله من هذه المقسمات مراد واحد، فهل كل هذه المقسمات أمر واحد أم أمور مختلفات ؟ إذا نحن نظرنا في هذه الأقسام وجدنا أنها بدأت بالواو ثم عطفت كلها بالفاء فلم يُثن الله تعالى بواوٍ أخرى، وفي هذا دليل على أنها أوصاف وأفعال مختلفات لشيء واحد لا أنها أشياء مختلفات، فإذا نحن نظرنا فيها وجدنا أن الأوصاف الواردة فيها كلها تنطبق مع موصوف واحد متغير الفعل والحال مرتبط بباقي المقسمات بها في

باقي السور، فالذاريات هي المرسلات وكلاهما الرياح[25]، والحاملات وقرا هي الرياح التي تحمل السحب والسحب هي العاديات كما وضحنا والجاريات يسرا هي الرياح بالسحب كذلك والمقسمات أمرا هي الرياح وفيها إشارة إلى الملائكة. ونبدأ الآن في تناول مفردات هذه الآيات لنوضح لم قلنا أنها الرياح :

تبدأ السورة بقوله تعالى " والذاريات ذروا " الذاريات جمع ذارية وهي من الذرو وهو كما جاء في المقاييس:

" الذال والراء والحرف المعتل أصلان: أحدهما الشَّيءُ يُشرِف على الشَّيء ويُظلِّه، والآخر الشَّيء يتساقط متفرّقا . فالذُّروة أعْلَى السَّنامِ وغيره، والجمع ذُرىً. والذَّرَا: كلُّ شيءٍ استترْتَ به. تقول: أنا في ظِلِّ فلانٍ، أي ذَرَاه. اهـ

إذا فالذرو كما يتصوره الإنسان هو عملية بعثرة وإثارة وتطاير للشيء البسيط، والذي يقوم بهذا هو الرياح، فإذا نحن نظرنا في كتاب الله تعالى وجدناه يقول " وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً [الكهف: ٤٥] "، فنخرج من هذا أن الذاريات هي الرياح والتي تذروا التراب وغيره — وليس المراد من المذري هنا التراب ولكن شيء آخر سنوضحه لاحقا - ومما يؤكد هذا هو باقي الأوصاف الواردة فيها، فنجد أن الوصف التالي للذاريات هي الحاملات وقرا، فهذه الذاريات تحمل وقرا، والوقر معروف وهو الثقل وهو كما جاء في المقاييس:

" الواو والقاف والراء: أصلٌ يدلُّ على ثِقَل في الشَّيء. منه الوَقْرُ: الثِّقَل في الأُذُن. يقال منه: وَقِرَتْ أذنُه تَوْقَر وَقْراً. قال الكسائيّ: وُقِرَتْ

---

[25] مع ملاحظة اختلاف الدور التي تقوم به في كل سورة من السورتين !

أذنُه فهي موقورة. والوِقْر الحِمْل. ويقال نخلةٌ مُوقرَةٌ ومُوقِرٌ، أي ذات حَملٍ كثير. " اهـ

فهذه الذاريات تحمل وقرا فما هو الوقر التي تحمله الرياح ؟ قال المفسرون إن المراد من الوقر هو السحاب فهذا هو الحمل الوحيد ولكن هذا جزء من المعنى وسنوضح التصور الكامل بعد سطور قلائل. فالجاريات يسرا وهذه الريح تجري بيسر وفيها يسر، واليسر معروف وهو بمعنى السهولة والليونة والخير والرخاء، ويدلل على أن الرياح تجري قوله تعالى " فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ [ص: ٣٦] " وكذلك قوله " وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ [الأنبياء :٨١] " فهي تجري رخاءا ويسرا وعاصفة كل حيب مراد الله تعالى وأمره، أما من يقول أن المراد من الجاريات يسرا هي السفن فهو بعيد لأن الله تعالى لم يقسم إلا بما هو من خلقه أما ما ينشأه الإنسان فلا يقسم الله تعالى به، ثم إن هذا يقطع التناسق الموجود في هذه المقسمات والغرض من القسم بها، لذلك فإنا نجد أن القول الذي يقول أن المراد منها هو الكواكب أكثر رجحانا من هذا القول وإن كنا لا نقول به كذلك، فالمقسمات أمرا وهي أيضا الريح تقسم أمرا أراده الله عزوجل، ولكن ما هو هذا الأمر ؟ لم يحدد السادة المفسرون المراد من الأمر، لأنهم لم يربطوا هذه الآيات ببعضها وجعلوها منفصلات وحتى من وصلها وقال أنها كلها في الريح لم يخرج لنا صورة واحدة منها نستطيع أن ندرك منه هذا الأمر لأنه لم يقل لنا ما فائدة حرف الفاء الرابط للمقسمات بها ؟ لذا نبدأ بإذن الله تعالى في عرض الصورة التي تقدمها هذه المقسمات بها :

إن هذه المقسمات بها تقدم لنا صورة طبيعية واحدة وهي عملية تكون الأمطار ونزوله، فالذاريات ذروا هي الرياح التي تثير الماء فيخرج

منه البخار والذي يتكون منه السحاب كما قال الله تعالى " اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الروم: ٤٨] " أو تثير غيره من المواد والتي هي لازمة وضرورية من أجل تكون السحب كما قال " وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ [فاطر: ٩] "، وبعد أن تحدث عملية الإثارة هذه عن طريق الذرو - أي تحويلها إلى ذرات[٢٦] تبدأ عملية الحمل، فالرياح هي التي تحمل هذه الذرات إلى أن تتجمع وتصير سحابا، فهي الحاملة لها في الحالتين، حال تكونها وتحولها إلى سحاب وبعد أن صارت فعلا سحابا مرئيا للأعين. إذا فالذاريات ذرت فحملت ثم جرت يسرا أي بعد أن كونت الرياح السحب وحملته تجري به ومن دونه يسرا رخاءا حيث أراد الله عزوجل، فالرياح تجري يسرا بما فيه منفعة الناس ويكون فيها إشارة إلى قرب نزول المطر، لذلك يقول الله تعالى " وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [الروم: ٤٦] " فالرياح تأتي بالبشرى، ثم بعد ذلك هي " مقسمات أمرا " فإذا نحن أدركنا الصورة التي قدمتها الآيات الماضيات عرفنا أن المراد من تقسيم الأمر هو عملية نزول المطر، فالرياح على الرغم من كونها حاملات للسحب ابتداءا مثيرات وذاريات لأصله في أول تكونه، إلا أنها كذلك هي المسببات لسقوط المطر في مرحلته الأخيرة، كما قال الله تعالى " وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ [الحجر: ٢٢] " فالرياح بما تحمله من مواد وذرات وعناصر مختلفة تلقح السحب فينزل المطر،

[٢٦] مصطلح الذرة في القرآن لا يساوي مصطلح الذرة المعاصر كما يدعي بعض المعاصرين ولكنه يشير عامة إلى الأجزاء المتناهية في الصغر.

وبهذا تكون قد قسمت أمرا وهو نزول المطر بالكم الفلاني في الوقت الفلاني على البلد الفلاني بأمر الله عزوجل وبواسطة الملائكة التي تحركها وتوجهها.

إذا فالله تعالى يقسم بدور الرياح في عملية سقوط الأمطار من مبتدأها عن طريق الذرو ثم الحمل ثم التسيير والجري ثم نزول الأمطار على أمرين إثنين وهما " إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع "، أي أن ما وعدكم الله عزوجل صادق حقيق والصدق معروف ولقد حاول ابن فارس أن يأتي بتعريف جامع للمفردات التي تندرج تحت الصدق فقال كما جاء في المقاييس :

" الصاد والدال والقاف أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشيء قولاً وغيرَه. من ذلك الصِّدْق: خلاف الكَذِبَ، سمِّيَ لقوّته في نفسه، ولأنَّ الكذِبَ لا قُوَّة له، هو باطلٌ. " اهـ

وهذا المدلول غير جامع بأي حال من الأحوال ولا متطابق مع المراد منه، وكعادة ابن منظور في لسانه لم يقدم معنى شاملا للصدق وإنما أخذ يقدم معنى جمل مختلفات جاء في كل منها الصدق بمعنى معين، والذي أراه أن الصدق هو بمعنى مطابقة الشيء للواقع وللغاية، فإذا توفر هذا العنصر الثنائي كان الشيء صادقا، وأسقط هذا المعنى على أي مفردة استعمل فيها الصدق فستجد أنها كافية لها. ونعود إلى السورة فنقول: جعل الله تعالى هنا جواب القسم " إنما توعدون لصادق " أي أنه لا كذب فيه فهو متطابق مع الواقع ومع الغاية وهو ما سيكون بأمر الله تعالى، ونلاحظ أن الله تعالى قال هنا " إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع " وقال في سورة المرسلات " إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ [المرسلات: ٧] " فاكتفى هنا بالحديث عن صدق الوعد ووقوع الدين أما هناك فقال بوقوع الوعد نفسه، فنخرج من هذا أن سورة الذاريات هي

إذا فوعد الله في القرآن كله صادق فهناك بعث وحساب وعقاب، وكذلك نصر واستقواء للمسلمين " إن الدين لواقع " أي أن الدين سيقع ويكون فهو واقع مستمر ولن ينتهي قبل أن يُتمه الله عزوجل، وهذه نبوءة تحققت بأمر الله، فلم يقدر أعداء الدين على أن يقطعوه أو يبيدوه أو يقتلوا رسوله لأن الله تعالى قال " هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [الصف: ٩] " ونجد أن هذا تحقق فقال الله تعالى " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ". والناظر في أقوال المفسرين يجد أن جلهم يقول أن المراد من الدين هنا هو الجزاء وليس الدين بالمعنى المألوف ويستندون في ذلك إلى الآية التالية القادمة في السورة وهي قوله تعالى " يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ [الذاريات: ١٢] " فقالوا أن المراد من " وإن الدين لواقع " هو أن الجزاء لوقع! مع أن هذا جاء في قوله تعالى " إنما توعدون لواقع " فالمشركين هم الذين وعدوا بالحساب والعقاب في الآخرة أما الرسول فهو الذي وعد بالنصرة وإتمام الدين، لذا فعلى قولهم هذا فإنه تكرار! والناظر في القرآن يجد أن كلمة الدين تأتي دوما بمعنى الدين المعروف سواء جاءت معرفة أو نكرة، إلا إذا أتت في هذه التركيبة " يوم الدين " فيفهم أن المراد منها هو يوم من أيام اليوم الآخر، لذا فإنا نرفض أن يكون الدين هنا بمعنى الجزاء ونرى أنه بمعنى الدين .

إذا فالله تعالى يقسم بدور الرياح في تكون المطر وسقوطه والتي اشترك فيها الرياح والسحب والملائكة أن ما توعدون لصادق مطابق للحقيقة وأن الدين لواقع. ولكن ما العلاقة بين المقسم به والمقسم عليهما ؟ العلاقة بينهما علاقة وطيدة جلية، فالله تعالى يشير للكافرين بهذه العملية أن من قدر على إرسال رياح فهيجت ذرات

ضعيفات وجرت بها ثم استقوت حتى صارت سحابا ثم صارت مطرا نازلا قد يكون خفيفا فينفع أو شديدا فيضر، قادر كذلك على أن يرسل رسولا كتابا فينضم حوله المؤمنون حتى يكثروا ويصيروا قوة كبيرة تنفع غيرها أو تضره[٢٧] وهذا هو وقوع الدين، وقادر على أن يبعث ويحي، ردا على من يقول: كيف يبعثنا الله بعد أن بلينا وتحللنا ؟ فيكون الرد: انظر في المطر، كيف يتكون وكيف ينشأ! فإذا نظرت في عملية سقوط المطر ستجد فيها أكبر دليل على إمكانية عملية البعث، فالمطر يُكوّن من ذرات تجمع من ماء، وتحدث عمليات تحويل كثيرة حتى ينزل مرة أخرى على شكل مطر، ومن قدر على التجميع والتحويل قادر على تجميع البشر وبعثهم[٢٨]. وبعد أن قدّم الله عزوجل القسم والمقسم عليه يقدم للبشر النتيجة المترتبة على ذلك والمتمثلة في أمر من أوامره سنعرض له عند تناوله. وبعد هذه الصورة الجميلة المثبتة للبعث وللنصرة للدين ينتقل الله تعالى ليعرض حال المخالفين في الدنيا والآخرة فيقول: " والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك " فيقسم الله تعالى بالسماء ذات الحبك والحبك جمع حبيكة وهي مشتقة من الحبك وهو لفظ معروف بالنسبة للقارئ العامي ولا نزال نستعملها في أيامنا هذه، وهو كما جاء في المقاييس :

" الحاء والباء والكاف أصل منقاسٌ مطّرِد؛ وهو إحكام الشَّيء في امتدادٍ واطّراد. يقال بعيرٌ مَحْبُوكُ القَرَى، أي قويُّه. ومن الاحتباك الاحتباء، وهو شد الإزار؛ وهو قياس الباب وحُبُك السماء في قوله تعالى: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ [الذاريات ٧]، فقال قومٌ: ذاتِ الخَلْق الحسن

[٢٧] تامل مثل الرسول ومن معه في الإنجيل في آخر سورة محمد !

[٢٨] قارن بين هذه الصورة التي قدمناها وبين العلاقة التي اظهرناها بين المقسم به والمقسم عليه وبين ما قاله الآخرون فستجد على قولنا اتصالا وتناسبا وتناسقا واضحا !

المُحكَم. وقال آخرون: الحُبُك الطرائق، الواحدة حَبيكة. ويراد بالطّرائِق طرائِق النُّجوم. اهـ.

ونحن نقول بالعامية " فلان محبّكها " وهو استعمال صحيح. إذا فالله تعالى يقسم بالسماء ذات الإحكام الشديد والطرائق المتعددة المتناسقة المتوافقة والتي لا تقبل الاختلاف على أنكم أيها المكذبون لفي قول مختلف بالنسبة للبعث وبالنسبة لما سيكونه هذا الدين، وإذا حدث الإختلاف فهو حتما قرين الظن والكذب في كل الأقوال ما عدا قول واحد، إذ لا يمكن أن يكون كل المختلفين على صواب، لذلك قال الله تعالى مادحا كتابه بخلوه من الخلاف والاختلاف " أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً [النساء: ٨٢] ". "يؤفك عنه من أفك ": الإفك معروف ومشهور ومن ذلك حادثة الإفك، ونزيده توضيحا فنقول هو كما جاء في المقاييس: " الهمزة والفاء والكاف أصل واحد، يدلُّ على قلب الشيء وصرْفِه عن جِهَته. يقال أُفِكَ الشَّيءُ. وأَفِكَ الرّجُلُ، إذا كذَب. والإفك الكذِب. وأفكتُ الرّجُلَ عن الشيء، إذا صرفتَه عنه. قال الله تعالى: قالُوا أَجِئْتَنا لِتأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا [الأحقاف ٢٢]. " اهـ

واختلف المفسرون في المراد من الإفك هنا، هل هو مدح أم ذم ؟! لذلك نجد أن الإمام الفخر الرازي يقول عند تناوله لهذه الآية :

" وفيه وجوه. أحدها: أنه مدح للمؤمنين، أي يؤفك عن القول المختلف ويصرف من صرف عن ذلك القول ويرشد إلى القول المستوي. وثانيها: أنه ذم معناه يؤفك عن الرسول. ثالثها: يؤفك عن القول بالحشر. رابعها: يؤفك عن القرآن " اهـ

وهنا نتوقف لنسأل: كيف يكون في الآية وجوه إذا كان فيها ضمير ؟! فإذا نحن نظرنا في الآية وجدناها تقول " يؤفك عنه " فعود الضمير

هنا يحتم معنى الآية، فالضمير يعود إلى القول المختلف، فيكون المعنى يصرف عن هذا القول المختلف من صُرف! فهل من الممكن أن يكون هذا الوصف مدحا للمؤمنين ؟![٢٩] ولكن كيف يكون الكافرون مأفوكين عن هذا القول ؟ هل تحولوا عنه ؟ لا، إن المعنى أن الكافرون المأفوكون ابتدءا يستمرون في إفكهم هذا بسبب القول المختلف، فإفكهم نابع عن القول المختلف، كما قال الله تعالى في حق سليمان " فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ [ص: ٣٢] " فحب الخير نابع عن ذكر الرب وكذلك الإفك نابع عن القول المختلف. ومما يرجح أن الوصف في الكافرين قول الله تعالى مكملا وصفهم " قتل الخراصون " أي لعن الخراصون القائلون بالظن، والقتل أصل واسع المعنى في اللغة لا يحصر في إزهاق الروح بل يتعدى إلى الإذلال وإلى اللعن، لذلك نجد ابن فارس يقول عند تعريفه لمعنى القتل كما جاء في المقاييس :

" القاف والتاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ. يقال: قتَلَهُ قتْلاً.

والقِتْلَة الحالُ يُقتَلُ عليها. يقال قَتَله قِتلةَ سَوء. والقَتْلة المرّة الواحدة.

ومَقاتِلُ الإنسان: المواضع التي إذا أُصِيبت قَتَله ذلك. ومن ذلك: قتلتُ الشيءَ خُبراً وعِلْماً. " اهـ

فالله لا يلعن القائل بالظن فقط وإنما يعيبه ولكن من يصبح هذا

---

[٢٩] الناظر في القرآن يجد أن الوصف بالأفك دوما مرتبط بالكافرين المكذبين ، والله تعالي يعيب عليهم ويعجب من إفكهم هذا فيقول " قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [يونس : ٣٤] " وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ [الروم : ٥٥] " فلا يمكن أن يكون المؤمنون أبدا ممن أفك بل هم حتما الكافرون.

عادته - بدليل استعمال صيغة المبالغة " خراص " - حتى أنه يجادل ويفني حياته من أجل ظن ووهم، فهؤلاء يتركون الصدق المتمثل في القرآن ووعد الرحمن ويتمسكون بالخرص، لذلك قال الله تعالى لهم: " ..... قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ [الأنعام: ١٤٨] " قتل هؤلاء الخراصون " الذين هم في غمرة ساهون " فهم لا يزالون في غمرة الباطل ساهون وغافلون ثم يجادلون ويشككون في ما جاء به القرآن ف " يسألون أيان يوم الدين " أي أيان يوم الجزاء الذي يجزون فيه عن أعمالهم، وليس يوم الدين هو كل اليوم الآخر ولكنه اليوم الذي يجزى فيه الصالحون والطالحون عن أعمالهم، ونظرا لأن هؤلاء القوم ساهون غافلون مأفوكون بالدنيا فلم يرد الله تعالى على سؤالهم وإنما تعجب من سؤالهم عن هذا اليوم فقال " يوم هم على النار يفتنون " والفتنة معروفة المعنى وهي كما جاءت في اللسان :

" جِماعُ معنى الفِتْنة الابتلاء والامْتِحانُ والاختبار، وأَصلها مأْخوذ من قولك فتَنْتُ الفضة والذهب إِذا أَذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيِّدِ، وفي الصحاح: إِذا أَدخلته النار لتنظر ما جَوْدَتُه، ودينار مَفْتُون. والفَتْنُ الإِحْراقُ، ومن هذا قوله عز وجل: يومَ هم على النارِ يُفْتَنُونَ؛ أَي يُحْرَقون بالنار. " اهـ

فهم يفتنون بالنار حيث يقال لهم تذكيرا بقولهم: " ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون " لقد كنتم تستعجلون دخولكم النار[٣٠] فها أنتم الآن فيها، فلقد أتى يوم الدين. وكعادة القرآن يعرض الصورة المخالفة للمكذبين المجرمين فيعرض صورة المتقين فيقول " إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين

---

[٣٠] قرأتها بعيني واسوا منها في بعض كتابات ملاحدتنا العرب العباقرة الأفذاذ !!!

" فلقد انتهى عهد الفتنة فلقد كانت بالنسبة لهم في الدنيا فقط " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [الأنبياء: ٣٥] " فهؤلاء انقطع بلائهم وفتنتهم عند ذوقهم الموت أما الآخرون ففتنتهم مستمرة كما استعجلوها فلم يظلمهم الله تعالى. ونلاحظ أن الله تعالى عندما قارن في سورة المرسلات قال " إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ... إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " وهنا بدأ بالجنات، لأن هناك كان الموقف كما قلنا في يوم الفصل وكان المكذبون يبحثون عن الظل الواقي فبدأ نعيم أهل الجنة بالظلال، أما هنا فهم في النار يفتنون فبدأ بالجنات حيث يتنعم المؤمنون. ثم بدأ في ذكر بعض وجوه هذه الإحسان فقال " كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون " أي أنه قليلا ما كان هؤلاء يغطون في الليل في النوم فليس هؤلاء أصحاب غفلة. "وبالأسحار هم يستغفرون " أي أنهم يستغلون السحر كله في الاستغفار. ولم ينتبه المفسرون إلى اللطيفة الموجودة هنا في استعمال حرف الباء، فقالوا أن المراد من ذلك هو " وفي الأسحار "! ثم أخذوا يتفننون في إثبات أن الحروف تستعمل مكان بعضها و... ولكنهم بقولهم هذا ضيعوا المعنى، فعندما استعمل الله تعالى الباء أشار بذلك إلى أنهم يستعملون الأسحار في الاستغفار، أما على قول المفسرين فجعلوهم يستغفرون في بعض هذا السحر، فشتان ما بين المعنيين. " وفي أموالهم حق للسائل والمحروم " فهم ملزمون أنفسهم بإخراج جزء من مالهم للسائل وللمحروم بغض النظر عما افترضه الله تعالى عليهم، فهم مؤدون لحق الله تعالى عليهم سواءا في الجسد أو في المال.

ثم يقول الله تعالى " وفي الأرض آيات للموقنين " وهنا نلاحظ أن الفخر الرازي انتبه إلى متعلق الآية هذه المرة فقال:

" وهو يحتمل وجهين. أحدهما: أن يكون متعلقاً بقوله: { إِنَّمَا

تُوعَدُونَ لصادق وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ وَفِي الأرض ءايات لِّلْمُوقِنِينَ } تدلهم على أن الحشر كائن كما قال تعالى: { وَمِنْ ءاياته أَنَّكَ تَرَى الأرض خاشعة } إلى أن قال: { إِنَّ الذى أحياها لمحيي الموتى } [فصلت: ٣٩]. وثانيهما: أن يكون متعلقا بأفعال المتقين ... " اهـ

وفي القول الأول الصواب بإذن الله تعالى، فبعد أن قال الله تعالى: إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع، - واعترض في المنتصف بتذكير الناس بأحوالهم – عاد فقال: وفي الأرض آيات للموقنين: أي ليس الأمر مجرد دعوى من محمد بل هناك آيات دالة على ذلك وهي منتشرات كثيرات ظاهرات، فهي في الأرض للموقنين وفي أنفسكم أيها المكذبون " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " ولقد ركز الله تعالى على مسألة وضوح الأدلة فقال: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [فصلت: ٥٣] ثم يقول الله تعالى " وفي السماء رزقكم وما توعدون " وهنا نتوقف لنسأل: ما هو المراد من هذه الآية ؟ اختلف المفسرون في مراد الله تعالى منها فقالوا أن المراد من الرزق المطر النازل من السحاب وقيل أنه مكتوب في السماء وقيل أنه تقدير الأرزاق. ولكنهم قد غفلوا هنا عن تقديم المعمول على العامل وهو قوله تعالى " وفي السماء " فالمعنى أن الرزق والوعد في السماء فقط ؟ فهل الرزق من السماء فقط ؟ لا، القرآن والواقع ينفيان ذلك، فنحن نرزق من غير السماء، لذلك قال الله تعالى "قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ [يونس: ٣١] "، فنحن نرزق من السماء والأرض بنص القرآن، فما المراد من الآية إذا ؟

لكي نفهم هذه الآية لا بد من أن نربطها بالآيتين السابقتين، حيث قال الله تعالى فيهما " وفي الأرض آيات للموقنين " فمن أيقن يجد في

الأرض آيات كافيات، ومن تشكك ففي نفسه آيات " وفي أنفسكم أفلا تبصرون "وهذا بداهة ليس للموقنين وإنما للشاكين المكذبين، ثم يقول الله تعالى لهم أن رزقهم وما يوعدون كلاهما في السماء فقط، ونلاحظ أنه قال " في السماء " وليس من السماء، أي أن الرزق يأتيكم من عند الله بواسطة وكذلك ما توعدون من العذاب هو في السماء، ثم يختم الله تعالى الصورة بقوله " فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون " أي ورب السماء التي فيها رزقكم وما توعدون والأرض التي فيها آيات للموقنين إنه لحق أي أن ما توعدون لحق، " مثل ما أنكم تنطقون " احتار السادة المفسرون في مراد الله من هذا التشبيه، فقالوا أن المراد من ذلك تشبيه الحق بالنطق أي أنه لحق مثل نطقكم في كونكم لا تشكون في نطقكم. والذي أراه أن المراد من ذلك هو عملية النطق نفسها وليس كون النطق حقا، فكما أنتم تنطقون فإن ما توعدون لحق وسيكون بأمر الله تعالى " إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: ٨٢] " فما توعدون سيكون بالأمر وهو مثل ما أنكم تنطقون، فالأمر لا يحتاج إلى وقت أو إلى زمان حتى يكون بل هو أسرع من لمح البصير " ووَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [النحل: ٧٧] " إذا فالمراد أن الوعد سيتحقق بأمر الله تعالى كما أنكم تنطقون ولكن عندما يريد.

ثم ينتقل الله تعالى فيقول للرسول الكريم " هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين "، الملاحظ أن الله تعالى قال هناك للرسول في النازعات بعد أن ذكر له أحوال الملائكة والمكذبين عند نزول العذاب " هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى " وقلنا أن هذه القصة كان فيها العبرة أن الله تعالى أخذ فرعون وقومه وأنزل بهم العذاب! فما هي العبرة من هذه القصة وما هو ارتباطها بما قبلها من الآيات ؟

قلنا أن السورة كلها تدور في فلك أمرين إثنين وهما تحقق الوعد الذي يعد به الله تعالى وهو نزول العذاب وكذلك نصرة الدين ولو بعد حين وحتى ولو لم يظهر من البوادر ما يشير إلى ذلك، وكيف أن هذا الأمر يتحقق بمجرد صدوره من الله عزوجل، وهذه القصة بالذات هي أكبر مثال جامع مانع لهذين الأمرين، وتأمل معي عزيزي القارئ هذه القصة فستجد أنها توافق كل ما قلنا به، فالقصة تقول:

" هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧) "

ففي هذه القصة نجد أن الله تعالى يأتي للخليل إبراهيم بما لم يتوقعه، ولقد جاء هذا التحقق على الرغم من عدم وجود ما قد يشير إلى تحققه، فتحققت البشرى بأمر الله تعالى وبقوله للشيء كن فيكون. ثم نلاحظ أن الله تعالى بعد أن ذكر وقوع هذه البشرى لإبراهيم ذكر سؤاله للملائكة " قال فما خطبكم أيها المرسلون " ثم ذكر له رد الملائكة " قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) " فهنا تخبر الملائكة إبراهيم بأمر الله الذي نزلوا من أجله وهو المذكور في الآيات، ونظرا لأن السورة تشير إلى حتمية تحقق وعد الله بمجرد

الإخبار به بدون الحاجة أو الفواصل " لحق مثل ما أنكم تنطقون " نجد أن الله تعالى في هذه السورة بالذات لا يذكر ذهاب الملائكة إلى سيدنا لوط أو المواقف التي شهدوها معه وإنما ينتقل مباشرة إلى نزول العذاب بهؤلاء القوم، فما الأمر إلا إخبار ووقوع فإذا أخبر الله تعالى به وقع لا محالة، فقال الله تعالى بعدها مباشرة " فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧) " فحكى الله تعالى فعل الملائكة المحقق لوعد الله تعالى المذكور قبله مباشرة.

إذا في هذه القصة عبرة وعظة للمكذبين، فكما تحققت البشرى مع إبراهيم بلا أسباب مادية ظاهرة وتحقق الوعيد مع قوم لوط بلا فواصل زمانية فكذلك من الممكن أن يتحقق الوعيد لكم أيها المكذبون ويتحقق النصر والتمكين لدين الله تعالى، وهذا ما وقع لاحقاً حقا! وبعد ذلك بدأ الله تعالى سرد بعض الأحداث المتتاليات المتواليات وهي قوله تعالى " وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) " أي وفي هؤلاء المذكورين آية بينة للذين يخافون العذاب المبين فلقد أرسلنا لهم رسلهم فكذبوهم فتحقق الوعد بهلاكهم ونصرة أنبيائنا وأتباعهم وكانوا هم الباقين. وفي تنويع المذكورين هنا إشارة إلى اختلاف الوسائل التي من الممكن أن يتحقق بها وعد الله تعالى، فليس الأمر محصورا في شيء واحد وإنما هناك أكثر من شكل فهناك غرق بالماء وهناك صاعقة وهناك ريح عقيم، والشاهد أنهم لما كذبوا نصرَ الله

تعالى رسله وأهلك المكذبين فكان مصيرهم إلى النار.

ثم قال الله تعالى " وقوم من نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين " علاما عطف " قومَ " حتى أنها نصبت ؟ اختلف المفسرون في المعطوف عليه فقالوا أنه معطوف على المحل! أي " وأهلكنا قوم نوح " ولست أدري ما الحاجة إلى المحل وإلى التقدير، فالمعطوف عليه هو الهاء في قوله تعالى " فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ " أي وأخذنا قوم نوح من قبل، فهذا هو مبرر النصب. والملاحظ أن عامل الهلاك في القومين واحد وهو الغرق، فلقد أغرق فرعون وقومه وكذلك قوم نوح من قبل لما كذبوا سيدنا نوح عليه السلام.

وبعد أن ذكر الله تعالى بعضا من الأدلة التاريخية على صدق ما ذكره في أول السورة انتقل إلى ذكر بعض الأدلة الطبيعية على تحقق وعده، فقال: " وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) " ولن نتوقف عند الإشارات العلمية الدقيقة الصحيحة في هذه الآيات فلقد أشبعها أنصار التفسير العلمي تفصيلا وتحليلا، ولكن نكتفي بأن نُذكر القارئ بأن الله تعالى في سورة النازعات بعد أن ذكر قصة هلاك فرعون قال " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى" ثم عقب بذكر بعض الحقائق العلمية فقال " أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها "، فنلاحظ أن المنهج العام للسورتين واحد، وهو قسم على أمر ثم حكاية لحال الناس تجاهه ثم ذكر لدليل تاريخي يؤكده ثم انتقال لذكر أدلة طبيعية علمية عليه، فليس الأمر فوضى كما يظن بعض الظانين[31].

---

[31] والناظر في سورة المرسلات يجد أنها تسير كذلك على نفس النسق في الاستدلال ، وإن كان الله تعالى لم يذكر قصصا تاريخيا ولكنا نلاحظ أن المنهج لم يتخلف هناك ، فلقد بدا أولا بالتاريخي " ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين " فهذا استدلال بالتاريخ المعروف المشاهد ،

وبعد ذلك يقول الله تعالى " ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين "، قلنا لك عزيزي القارئ في بداية حديثنا عن السورة أن ل " إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع " متعلق، وها نحن نصل إليه الآن، فكل ما ذكره الله عزوجل في وسط هذه السورة بعد المقسم عليه هو من باب الاعتراض والحكاية والتذكير، أما التعلق الحقيقي فهو هنا، فالله تعالى يوضح للإنسان ما الذي ينبغي عليه أن يفعله تجاه هذا الوعد، فيقول له على لسان الرسول " ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين " وفي الآية لطيفة عجيبة: فكما وضحنا لك أن مدار السورة على سرعة تحقق وعد الله بالسراء أو الضراء، لذلك لما قال الله تعالى لعباده " إنما توعدون لواقع " ودلل على ذلك وذكّر، قال لهم: ففروا إلى الله أي أسرعوا وأنقذوا أنفسكم قبل أن يأتيكم أمر الله فساعتها لن تستطيعوا الفرار أو النجاة، لذلك ليكن فراركم من الله إليه وبذلك تنجون! " ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين " فالكفر مؤذن حتما بالهلاك وأنا لكم نذير مبين. ثم يوضح الله تعالى أن فعل الكافرين وعنادهم مع الرسول ليس أمرا حديثا بل هو قديم مكرور مع باقي الرسل، لذلك قال الله تعالى " كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون " ولكم فيما ذكرنا لكم من فعل فرعون وقومه مع موسى المثال السيء، فلقد قالوا مثلما قلتم، لذلك يعجب الله من هذا الفعل فيقول " أتواصوا به ؟ " لا، بداهة فليس الأمر مسألة تواص بل هو أمر آخر " بل هم قوم طاغون " أي أن طغيان الإنسان يدفعه إلى اتخاذ بعض المواقف غير المنطقية ولما لم يكن هناك تبرير منطقي للرسل غير كونهم مرسلين من عند الله تعالى، نجد أن الأقوام يقولون انه ساحر أو مجنون! ولأن الإسلام دين السماحة يقول

ثم بعد ذلك قال " الم نخلقكم من ماء مهين ، الم نجعل الأرض كفاتا " وهذا استدلالا بالطبيعة تال له .

الله تعالى للرسول " فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين " فتول أيها الرسول فليس عليك أي ملامة من فعلهم وعدم إيمانهم وذكّر فما عليك إلا التذكير " فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ [الغاشية: ٢١] "

ثم ينتقل الله عزوجل إلى توضيح الغرض من خلق الإنسان على وجه الأرض وإلى عدم احتياج الله إليه فيقول: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) " فيوضح أن الله تعالى خلق الإنسان من أجل غاية واحدة وهي العبادة فإذا هو لم يؤدها كان من المنطقي أن يعذبه، فليس الأمر من باب الظلم أو عدم المنطقية وإنما هو جزاء عادل لمن رفض الاختبار وأصر على تخرصاته! فليس الخلق من أجل إكمال نقص أو سد رأب وإنما هو لغاية واحدة، ولقد تكفل الله تعالى للإنسان بإشباع حاجاته حتى يتفرغ لعبادته فقال له " إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين " فهو رزاق يرزق كيف يشاء متى يشاء بعلمه وحكمته! وهو ذو القوة فينصر من يشاء بقوته وبمتانته فليس هو إلها ضعيفا وإنما هو رزاق،[٣٢] وإذا كان كذلك وهو كذلك " فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠) " أي فإن لهؤلاء الظالمين المكذبين نصيبا وحظا من العذاب، نصيبا طاغيا مهلكا مجاوزا للحد آخذهم مثلما أخذ أصحابهم، فهم يستحقون ذلك فلقد تركوا سبب وجودهم فحق استئصالهم، فلا يستعجلون ويسألون " أيان يوم الدين "، " فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون " فويل للكافرين من هذا اليوم الذي يوعدون، وتختم السورة بمحورها الرئيس،

[٣٢] فإذا أنت جعلت من مالك حق معلوم للسائل والمحروم فلا تخش شيئا فالله هو الرزاق ذو القوة المتين .

وهو " إنما توعدون لصادق " ويوم يكون هذا الوعد ويل للكافرين المكذبين " ويل يومئذ للمكذبين " كما جاء في المرسلات، فالويل لهم في هذا اليوم الذي به يكذبون.

فانظر عزيزي القارئ إلى هذا النظم البديع في عرض هذه القضية وكيف يؤكد آخر السورة أولها وكيف أنها كلها سائرة على نسق واحد وهو نفس النسق الذي سارت به النازعات، نسق محكم منطقي منظم غفل عنه كثير من الغافلين، فهل القرآن مسؤول عن غفلتهم ؟

سورة القيامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين وصلاة على المبعوث رحمة للعالمين، أما بعد :

نتناول اليوم بإذن الله وعونه سورة القيامة وهي من السور التي اتهم فيها الملاحدة الرسول بأنه ما استطاع أن يأتي بسورة واحدة متكاملة المعنى وقال بعض المكذبين أن القرآن وقع فيه التحريف مستدلين بانقطاع المعنى الوارد في السورة، لذا نبدأ متكلين على الله في إبراز الوحدة الموضوعية لهذه السورة وإبراز النسق التي تسير عليه .

المنظور العام للسورة :

القارئ لسورة القيامة قد يشعر أنه لا يوجد فيها تناسق أو ارتباط بين موضوعاتها على الرغم من أنها تدور كلها في فلك يوم القيامة فهو سيشعر أنها موضوعات غير مرتبطة ببعضها وأن القرآن ينتقل من موضوع إلى آخر بدون أي رابط بين المواضيع على الرغم من أنها كلها تتعلق بموضوع واحد بل إنها كلها تدور في فلك قوله تعالى " يسأل أيان يوم القيامة "، وكل هذا نابع من أن القارئ لم ينظر إلى السورة

بالمنظور المناسب، فإذا نحن نظرنا إلى السورة من المنظور التي أتت هي به فسنجد أن الموضوعات مرتبطة تمام الترابط وتسير بنظم منطقي تماما، ولنتابع الآن منظور السورة :

تناقش السورة السؤال الأبدي للإنسان: متى يوم القيامة ؟ وهل يقدر الله على إحياء الموتي ؟! ولم تأت السورة لتقول للإنسان إنه سيكون في يوم كذا أو كذا وإنما أتت لتذكره وتسأله: ما هو موقفك فيها ومنها[33] ؟ ويتمثل ذلك في موقفك من الدين وفي السؤال الرئيس الذي يجب على كل إنسان أن يسأله نفسه: لم أُوجدت على ظهر الأرض ؟ هل هناك غاية أم أنها مسألة عبثية ؟ فهذا ما ينبغي أن يسأله الإنسان وليس تلك التنطعات الفكرية الجدلية !. لذا نجد أن السورة بدأت بأسلوب الاعتراض والاحتجاج " لا أقسم " بخلاف غيرها من السور التي بدأت بأسلوب قسم، فنجد أن السورة بدأت بالاعتراض على السؤال عن القيامة ثم ذكرت موقف الإنسان الظان منها وسؤاله المشكك عن حينها، وكان المنتظر أن يأتي الرد إما بالإخبار أو عدمه ولكن الله عرض الأمر للإنسان بمنظور مختلف، فبدأ بذكر ما سيكون يوم القيامة من الأهوال والأحداث وكيف أن الإنسان سيتنصل من أقواله ويحاول أن يبررها وذكر انقسام الناس في هذا الموقف، ثم يعود العرض القرآني إلى الخلف قليلا فيترك عرض يوم القيامة وينتقل إلى عرض موقف الموت وكيف يكون حال الإنسان فيه وكيف أنه أول مواقف القيامة، ثم يترك القرآن عرض موقف الموت وينتقل إلى عرض موقف ذلك الإنسان في حياته وماذا يفعل، ثم ينتقل إلى العرض والتذكير بالسببية والغائية في حياة الإنسان فيعرض بداية الإنسان

---

[33] ويتمثل التأويل النبوي الكريم لهذه السورة الكريمة كلها في الإجابة التي أعطاها للسائل : متى الساعة ؟ عندما قال له : ماذا أعددت لها ؟ فهذه هي الإجابة المفترضة للذي يسأل عن ميعاد الساعة .

ومنشأه ثم يختم السورة بالاستفهام عن قدرة الله على إحياء الموتى. إذا فالسورة عرضت القضية عرضا عكسيا ابتدأ بالقيامة وانتهى ببدأ الإنسان، على عكس كل من يعرضون هذه القضية فهم يبدأون بما انتهى به القرآن، والقرآن اتبع هذا النهج في سور أخرى ولكن في هذه السورة قلب المنظور في وجه السائل فأتاه من الخلف إلى الأمام عارضا له أهم أربعة مشاهد في حياته مشهد البعث، الموت، موقفه من الدين ثم منشأه ومنبته والغرض منه حتى يوضح له أنه متبع للهوى وليس للعقل أو المنطق .

ونبدأ في تناول السورة: بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بقوله تعالى: " لا أقسم بيوم القيامة "، وكما هو واضح من منطوق الآية فالمعنى أن الله تعالى لا يقسم بيوم القيامة! وليس أن المراد أن الله تعالى يقسم به وعلى أقوال المفسرين لا حرج من أن تكون " لا " زائدة ويكون المعنى " أقسم بيوم القيامة "![34] ثم يردف الله تعالى بقوله " ولا أقسم بالنفس اللوامة " وكذلك لا يقسم الله تعالى بالنفس اللوامة، واللوامة صيغة مبالغة من اللوم وهو معروف وهو العتب على فعل الشيء أو تركه. وهنا يسأل القارئ: إذا كان الله تعالى لا يقسم بيوم القيامة ولا النفس اللوامة فما معنى الكلام ؟

نقول: وضحنا سابقا في المنهج أن الله تعالى لا يحتاج إلى أن يقسم بأي شيء، فكلامه لا يحتاج إلى القسم، ولكنه يذكر للناس ما قد يكون عندهم نافعا للقسم وما هو مناسب لهذا الموقف، أما في هذه السورة المناسب هو إظهار الاعتراض وإظهار بداهيته لذلك فلا قسم. فالنفس اللوامة هي النفس التي تعتب على صاحبها على الفعل أو الترك،

---

[34] لقد فصلنا القول في كتابنا " لماذا فسروا القرآن " في أنه لا توجد زيادات في كتاب الله تعالى ، وليس هذا موضع التفصيل في هذه المسألة ، فليرجع إلى الكتاب على موقعنا www.amrallah.com ففيه البيان .

وكما هو واضح فإن هذه النفس كثيرة التلبس بالمعاصي أو إهمال المكتوبات والفرائض، هذا طبعا إذا قلنا أن هذه النفس مؤمنة! والناظر يجد أن الله تعالى لم يخص النفس المؤمنة بالذكر وإنما ذكر " النفس اللوامة " عامة! إذا فهي أي نفس تكثر من لوم نفسها، أي أنها نفس مضطربة متقلبة لا تستقر على حال، تأتي الفعل ثم تندم عليه وهكذا هو غالب حالها وعام شأنها، وهذا هو غالب حال البشر فهم يتقلبون بين خير وشر ولم يحققوا الاستقرار النفسي في أي من الطرفين، فلم يصلوا إلى الإطمئنان فيصيروا نفوسا مطمئنة أو ينحدروا إلى استحواذ الشيطان التام فيكونوا نفوسا أمارة بالسوء دوم الدهر، خيم عليها رين الهجر فعاشت في سواد مطبق لا ينفع معه قول أو نصح .

ويعد أن يذكر الله عزوجل ويبين أنه لا يحتاج إلى قسم في عرض كلامه لمخاطبيه، يبدأ في نقاش القضية الأساسية وهي قضية القيامة والبعث! فيقول: " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه " وهنا نلحظ أن المولى عزوجل لم يقل: أيحسب الإنسان أن لن نبعثه أو نحيه ؟ وإنما قال " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه " فدلف مباشرة إلى لب أصل الإنكار وهو الخاطرة التي تجول بذهن الإنسان، وهي الخاطرة الأزلية: كيف سيحييني الله عزوجل بعد أن رممت وبليت وصرت عظاما أو حتى ترابا ؟ فيخاطب الله عزوجل ذلك الإنسان المنكر عارضا قضيته الأساسية وهي مسألة " البعث بعد التحول والتغيير "، ونلاحظ أن الله عزوجل عبّر قائلا " نجمع عظامه " ولم يقل " نجمعه أو نركبه كاملا " وذلك لأن العظام هي آخر ما يبقى من الإنسان، فالجسد عندما يتحلل تذهب العضلات والأعضاء الداخلية والجلد ويبقى الهيكل العظمي ثم يصير إلى التراب كذلك بعد فترة من الزمان! ثم إن العظام هي أصل الإنسان التي يبنى ويكون عليها باقي الأعضاء فيكون

عليها الجلد ثم العضلات والأعضاء الداخلية، فالعظام هي أول ما يكون في عملية التخليق[35]، ونلحظ هذا جليا في قصة الذي مر على قرية، والذي يقول بعض المفسرين أنه عزير اليهودي !، فعندما خاطبه الله تعالى لكي يريه عملية الإحياء قال له: " وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما " .

وهنا يرد الله عزوجل مبينا أن هذا الفكر فكر ضال، فيقول " بلى قادرين على أن نسوي بنانه "، وهنا يوضح المولى القدير أنه قادر، فهو قادر قدير[36] لا يعجز شيء، فلا يجول بخاطرك أيها الإنسان أن الله يعجزه شيء! فآفة الإنسان في إنكار البعث أنه قاس الله الكبير على قدرته البشرية المحدودة فقال: كيف يحيي الله العظام بعد أن رمت وبلت ؟! وهذه هي آفة ضلال البشرية من مبتدأها إلى منتهاها وهي أنها ما قدرت الله حق قدره وتصر على قياسه على البشر!

فيقول الله: " بلى قادرين على أن نسوي بنانه " والعجيب أن بعض المفسرين قالوا أن المراد من تسوية البنان هو تسوية الأصابع فتكون كحافر الحيوان وحدة واحدة فلا ينتفع بها في شيء. ولست أدري ما علاقة هذا بالرد على مسألة إنكار البعث، ثم إن التسوية لم ترد أبدا عند الحديث عن الخلق في القرآن بهذا المعنى أبدا، وتتبع اللفظة في قصة خلق الإنسان وسترى ذلك! والتسوية مرحلة من مراحل التخليق وهي آخر مراحل التخليق العضوي وهي تعني أن يصيره الله " مساويا " لما ينبغي أن يكونه! أي أنه يصيره على الشكل الأمثل الأخير! فهو الذي أحسن كل شيء خلقه! وهنا نتوقف لنسأل: ما هو البنان ؟

---

[35] بعد أن يمر بالمراحل المذكورة في سورة المؤمنون بداهة !

[36] ستعالج السورة هذه الآية في الآيات القادمة ثم تعرض لها في آخر السورة مرة أخرى .

قال المفسرون: البنان هو أصابع اليدين والرجلين أو أطراف الأصابع أو هي اليدين والرجلين نفسها!

نلاحظ أن المعنى المشترك للبنان هو الخروج والبروز والطرفية، فيكون المعنى أن الله يرد على هذا المتشكك في جمع العظام أنه قادر على تسوية أطراف الإنسان من أيد وأرجل وهذه هي مناطق تركز احتواء المفاصل وتراكيب العظام المعقدة[٣٧]. وقيل أن المراد من البنان هو طرف الأصبع وخصه الله بالذكر لأنه يحتوي البصمة والتي تختلف من إنسان إلى آخر! كما أن البنان يحتوي أصغر العظام الظاهرة للإنسان، فالله يذكر للإنسان أنه قادر على جمع العظام من أصغرها إلى أكبرها، والراجح ما قلنا والله أعلم .

وبعد أن يبين الله قدرته في الإتيان بالمعقد من التراكيب وليس فقط بالعادي أو المركب تركيبا بسيطا يوضح لنا أن هذا الحسب البشري ليس مستندا على دليل أو منطق وإنما هو نابع من الهوى الداخلي للإنسان، فيقول العلي العظيم " بل يريد الإنسان ليفجر أمامه "، فالإنسان بهذا الحسب المنزوع الدليل يريد أن يفجر أمامه! ونتوقف لنسأل: ما هو مرجع الضمير في " أمامه " ؟ إذا نحن نظرنا في الآية وجدنا أن عود الضمير راجع على الإنسان، فهو الوحيد المذكور فيكون ما قاله المفسرون صحيحا من أن المراد من ذلك هو الإنسان نفسه أي أن الإنسان يريد أن يفجر فيما يستقبله من الزمان فيفعل ما تزينه له نفسه وتسوله له شهواته. فليست المسألة مسألة دليل وإنما مسألة رغبة في الفجر والتحرر. وحتى يريح نفسه من وخزات الضمير يستهزا ويسخر و: " يسأل أيان يوم القيامة " متى يأتي ويحين هذا اليوم ؟ فيرد الله العلي القدير ليس بذكر ميعاد حلول وحين هذا اليوم فهذا

---

[٣٧] ليتأمل الإنسان في يديه وقدميه ليرى كيف ابدع الله العلي القدير هذه الأطراف التي يتحرك بها ويستعملها في مختلف شؤونه بدون أن يتذكر فضل الله عليه .

مما اختص الله تعالى بعلمه ولن يُعلم الإنسان به، فهذا السؤال لا يسأله إلا صاحب كِبر متسفسط من باب الجدل من أجل الجدال، فلو ذكر الله تعالى للبشرية ميعاد القيامة في كتابه فلن يقدم هذا أو يؤخر فسيقول المنكرون: هذا تخرص ورجم بالغيب من محمد! وسيلغون هذا السؤال وينتقلون إلى أي سؤال آخر مثل قولهم: ماذا سيحدث في هذا اليوم أو ما هو الدليل على القيامة عقلا ؟ أو ما شابه من الأسئلة التي لا تنتهي، لذا نبه الله الإنسان أن سؤاله هذا بسبب رغبته في الفجر وبسبب حريته في الدنيا، وأنه غير جاد في سؤاله هذا بل هو سؤال من باب الفجور والتكبر، لذا ينتقل الله العلي الحكيم إلى عرض موقف الإنسان من هذا اليوم، سواء في ذلك اليوم " يوم القيامة نفسه " أو عند موته أو عند مشاهدته لموت الآخرين وكذلك موقفه منه طيلة حياته وكيف أنه جعل خلقه وحياته بلا غاية ولا هدف، فقال: " فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر"

قد تبدو الآية الأولى غير غامضة المعنى بالنسبة للقارئ، ولكن نتوقف لنبرز معان هذه المفردات المستعملة فنسأل ما هو البرق؟ البرق كما جاء في المقاييس: " الباء والراء والقاف أصلانِ تتفرع الفروع منهما: أحدهما لمعانُ الشيء؛ والآخر اجتماع السَّوادِ والبياضِ في الشيء " اهـ

وهنا نُذكر القارئ أن الله يتحدث عن لمعان البصر وليس لمعان العين، فالبصر هو القدرة على تمييز واستيعاب المدركات سواء وجدت العين أم لم توجد، فالإنسان المكفوف بصير[٣٨]!

قال المفسرون – كما جاء عند الإمام الفخر الرازي – المقصود من

[٣٨] لذلك يقول الله تعالى " فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور " فأي إنسان – ما عدا المجانين والبله – يستطيع أن يميز بين الحق والباطل ولكن القلب والهوى هما اللذان يهيأن له الاتباع أو الهجر.

برق البصر: "برق بصره بكسر الراء يبرق برقاً إذا تحير، والأصل فيه أن يكثر الإنسان من النظر إلى لمعان البرق، فيؤثر ذلك في ناظره، ثم يستعمل ذلك في كل حيرة، وإن لم يكن هناك نظر إلى البرق. " اهـ

ولكنا نجد أن الله تعالى لم يقل " النظر"، فهو يتحدث عن البصر وأنه سيبرق يوم القيامة. والبصر كما وضحنا عملية معنوية فلا يمكن أن يكون المقصود من البرق فيها هو اللمعان، وإنما يكون المقصود والله أعلم هو ما جاء في قول الله تعالى " فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد " فالإنسان في هذا اليوم يكشف عنه غطاءه فيستطيع أن يدرك ويتعرف الأشياء بسرعة كبيرة جدا لحدة البصر عند رفع الغطاء، وهذا هو المقصود من برق البصر والله أعلم، فالإنسان في هذا اليوم يستطيع أن يدرك بسرعة البرق ووضوحه وصفاءه، فلم يعد هناك أي ما يحول بين الإنسان وبصره، فالغطاء قد كُشف والهوى قد رفع! فيرى تأويل آيات الله أمامه كما أخبر الله عزوجل عنها في كتابه " يوم يأتي تأويله ... " وكل هذا يحدث بدون أي إنكار أو شك أو مكابرة فيكون البصر في سرعته كالبرق! فيفهم الإنسان القصة من أولها إلى آخرها ويتقين من صدق موعود الله عزوجل! إذا فالتعبير ببرق البصر هو علامة على انتهاء ظن الإنسان وتشككه في البعث، فكل ما سمعه أصبح يراه عين اليقين فيذهب الشك والظن والحسب ويبقى اليقين للإنسان الذي كان حاسبا، وحتما يظهر هذا في عين الإنسان فليست عين الحائر المتخبط كعين الذي خبر ووعى[٣٩].

إذا فقد أدرك الإنسان المتغافل ووعى وتأكد، ويقابله على الجانب

---

[٣٩] القول أن المراد ب " برق البصر" تعبير عن سرعة الأدراك والاستيعاب والمعرفة والفهم ليس عجيبا او غريبا فهو انسب تعبير ، حيث يجمع بين سرعة الظهور في الذهن وفجائيته ونقائه ، وكل هذا يجتمع في الفعل " برق" فقط ، ونسأل القارئ أن يستحضر فعلا آخرا يجمع هذه المعاني غير الفعل برق ، ولن يجد !

الآخر خسف القمر، فالقمر يخسف فيذهب نوره والقمر كما نعرف ليس جسما مضيئا بذاته وإنما يأخذ نوره من الشمس، لذا نجد أن القرآن يشير إلى هذه الحقيقة دوما، كما قال " هو الذي جعل الشمس ضياءا والقمر نورا "، وقال " وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا "، فالقمر سيخسف فيذهب نوره، ثم تكون علامة أخرى من علامات التغيير والتبديل وهي " وجمع الشمس والقمر "[10]، أما كيف يكون الجمع فالله وحده هو أعلم بالكيفية فالقوانين الحاكمة ليوم القيامة غير القوانين الحاكمة لدنيانا هذه، كما قال الرب العليم " يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات " فهذا حادث من حوادث تغير النظام الكوني، فإذا حدث هذا كله " يقول الإنسان يومئذ أين المفر " فلا جدال ولا مراء ولا شك، فهنا يعلم أن ما أخبر الله به على لسان رسله حق واقع، فلم يعد هناك أي مجال للسؤال، فيبحث عن نجاة ومهرب من هذا اليوم! فيأتي الرد من الرب القدير على هذا الإنسان الذي يريد أن يفجر أمامه والذي أصبح يبحث عن مفر: " كلا لا وزر "، لا مكان يلجأ إليه الإنسان ليحتمي به. ف " إلى ربك يومئذ المستقر " ففقط عند الرب العظيم وإليه يرجع مكان الاستقرار، فالذي يبحث عن " المفر " يُنبّأ بأن " المستقر " إلى الله الرب فهو الذي سيحدد مكان استقرارك أيها الآدمي! وفي هذا اليوم " ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر " فينبأ بما كان عنده مقدما وما كان مؤخرا وبما قدمه من الأفعال ففعله وما أخره فلم يفعله، فتعرض عليه أولوياته في حياته ليعلم كيف كان[11]! ثم يستدرك الرب الواحد فينبهنا قائلا أن

---

[10] وهذا يكون في الآخرة، أما في الدنيا ف " لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ... " ردا على بعض دعاة الإعجاز العلمي الذين يجعلون هذه الآية في الدنيا من علامات القيامة !!

[11] ويكون هذا الإنباء والله أعلم من خلال الكتاب الذي يأخذه كل إنسان يوم القيامة " وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا "

الإنسان لا يحتاج إلى هذه الإنباء قائلا " بل الإنسان على نفسه بصيرة"، كما قال العلي العظيم " إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا " فكل إنسان أدرى بنفسه ويعلم كيف كان حاله ولم فعل وما هي المبررات، فالإنسان ذاته هو الدليل على رسوخ الإيمان بالله فيه، " ولو ألقى معاذيره " فحتى لو جادل الإنسان، كما قال تعالى " يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها "، وكما قال " يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم " فالإنسان سيجادل وسيقسم كاذبا ولكنه في قرارة نفسه يعلم أنه مجادل بالباطل، لذلك يقول له الرب العليم: " لا تحرك به لسانك لتعجل به "، من المشهور في التعامل مع هذه الآية القول بأن المخاطب في هذه الآية هو النبي المصطفى لورود بعض الروايات التي تقول أن النبي المعصوم كان يتعجل القراءة فخوطب بهذه الآيات، من هذه الروايات: " روى سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه حفظ التنزيل وكان إذا نزل عليه الوحي يحرك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل مخافة أن لا يحفظ " اهـ. وبغض النظر عن صحة الرواية أو عدمها فهي اجتهاد من ابن عباس رضي الله عنه وليس تنصيصا من النبي المصطفى. ونحن نسأل: ما هو الدليل من النص على أن المخاطب هنا هو النبي محمد ؟ لا يوجد دليل أو حتى شبهة دليل! فالسورة من أولها إلى آخرها تدور حول القيامة وموقف الإنسان منها، فما المبرر للزج بالنبي المصطفى هنا ؟! إنه من الجلي الواضح أن المخاطب في هذه الآية هو نفس المخاطب من أول السورة وهو الإنسان، أي أنه يقال له يوم القيامة " لا تحرك به لسانك لتعجل به "، وعود الضمير في " به " هو " ما قدم وأخر " فالإنسان ينبؤ بما قدم وأخر، ثم يقال له بعد قراءة كتابه الذي به نُبؤ، " لا تحرك به لسانك لتعجل به "، وعلينا أن نتخيل صورة الإنسان الذي يقرأ كتابه فهو ينتقل بسرعة من أجل أن

ينتهي من هذا الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ونتخيل شكله وهو يحرك لسانه ولكنه لا يستطيع النطق فهو يقرأ ولكن لا تخرج الكلمات من فيه، لذلك كأنه قيل " يا أيها الإنسان المجادل الذي كنت تتشدق في الدنيا هذا هو حالك يوم القيامة تقرأ فأنت لا تستطيع أن تتفوه ببنت شفة فهناك حركة لسان ولا بيان خارج[42]! ويمكن القول أن الإنسان يحرك لسانه بما قدم وأخر لكي يقدم تبريراته فيقول فعلت كذا وكذا من أجل كذا وكذا وكذا بسبب كذا! فيُرد عليه: " لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرءانه " فنحن فقط المختصون بجمعه[43] وعلينا قرآنه، والقرأ أصل يدل على الجمع والاجتماع .

وهنا للقارئ أن يسأل: فلم قال " جمعه وقرءانه " هل هذا تكرار ؟

بداهة لا يوجد أي تكرار في القرآن ولا مترادفات، والمعنى واضح فالملائكة تجمع الأعمال ثم " تقرأنها " أي أنها تحولها إلى مقروء، فمن المعلوم أن الإنسان يعمل المعصية أو الطاعة في الدنيا وكلاهما أفعال، فعندما تسجل هذا الأعمال وتجمع في كتاب تدون في شكل نصوص مكتوبة – وقد تكون منطوقة أيضا – " فعل العبد فلان كذا في يوم كذا "، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، فإذا قرأت الملائكة الأعمال أي جعلتها مكتوبة مقروأة فاتبع هذا الجمع والقرن، فعليك أيها الإنسان أن تتبع القراءة. " ثم إن علينا بيانه " ولن تحمل أيها الإنسان عبأ الإقرار بأفعالك يوم القيامة، فكما جمعنا أعمالك وحولناها مقروأة مكتوبة في كتابك في الدنيا فإنه علينا كذلك بيانها يوم القيامة، فنخبرك

---

[42] هناك من يرى أن المقصود لا تحرك لسانك بالمعاذير لتستبق بها الكتاب ولكن منطوق الآية والآيات التالية لا تتوافق مع هذا القول .

[43] فأعمال الإنسان تستنسخ وتجمع في كتاب ينبؤ به الإنسان يوم القيامة " هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ "

ونعلمك بها في يومك هذا فلن نخفي أو نكتم منك شيئا وإنما سيظهر كل صغير وكبير. والبيان في القرآن يأتي بمعنى الإظهار والذي عكسه الإخفاء والكتمان " وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ". ثم ينتقل الله سبحانه وتعالى من وصف حال الإنسان الفرد في يوم القيامة إلى خطاب الجماعة في الدنيا فقال: " كلا بل تحبون العاجلة "، وهنا كالعادة اتبع السادة المفسرون أسلوب التقطيع، فقالوا أن المخاطب ب " كلا " هو الرسول الذي لم يسبق له ذكر من أول السور وباقي الآية خطاب للبشر! وقيل أن المراد من " كلا " هو حقا! أي: " حقا تحبون العاجلة "! وليس هذا بمستغرب على من لا يلتزم منهجا محددا في التعامل مع النص فكل شيء جائز!

نعود إلى الآية، نجد أن الله العظيم يقول " كلا بل تحبون العاجلة " فما هو متعلق " كلا " ؟ من يدقق النظر يجد أن " كلا " أتت جوابا لقوله تعالى " بل الإنسان على نفسه بصيرة "، أي أن الإنسان على الرغم من كونه بصيرة على نفسه وأدرى بها إلا أنكم تحبون العاجلة! والعاجلة هي: كل ما أمام الإنسان مباشرة فالإنسان يتعجل ما تراه عيناه وتلمسه يداه فيتحرك من أجله وكما يقال " عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة "، أما الإنسان المؤمن فأول شرط فيه هو الإيمان بالغيب! أما ذلك الآخر فهو يحب العاجلة ويذر الآخرة وليس المقصود بالآخرة هو اليوم الآخر فقط، ولكن كل ما تأخر عن الإنسان، وأهمه وأعظمه هو يوم القيامة. وفي هذا اليوم ينقسم الناس إلى فريقين " وجوه يومئذ ناضرة " ففريق المؤمنين نضّر الله وجوههم فهم من الفائزين، وكما نعلم فإن محل النعيم والراحة والغم والحزن هو الوجه، لذلك يخبر أن المؤمنين ستنضر وجوههم يوم القيامة فهم مطمئنون في الدنيا وفي الآخرة بخلاف ذلك الكافر المضطرب دنيويا وعند لقاء عذابه!

" إلى ربها ناظرة " فهي تنتظر ربها وفضله وثوابه وليس المقصود أو المراد أنها ترى الله عزوجل، فالآية تقول أنها " إلى ربها ناظرة " ونلاحظ أسلوب الحصر والقصر بتقديم الجار والمجرور كما نلاحظ كذلك استخدام الصيغة الاسمية التي تفيد الثبات والوصفية! أي أن حال هذه الوجوه الناضرة يوم القيامة أنها إلى ربها فقط ناظرة أي منتظرة، فهي وجوه متعلقة بربها مطمئنة به تعلم أن مرجعها إلى الله وهو سيدخلهم دار رضوانه" !

وكعادة القرآن في المقابلة بين الجنة والنار أو بين الفائزين والخاسرين تعرض الآية التالية الصورة الأخرى فتقول " ووجوه يومئذ باسرة " فيقابل هذه الوجوه الناضرة بوجوه باسرة شديدة العبوس والكلحة. " تظن أن يفعل بها فاقرة " تظن هذه الوجوه أنه سيفعل بها فاقرة! واختلف المفسرون في الفاقرة فقالوا أن المراد من الفاقرة " الداهية " أو الكارثة التي تكسر الظهر " تكسر الفقرات " ولكن هنا إشكال وهو أن الحديث عن الوجوه، كما أن الآية قالت " أن يفعل بها فاقرة " فلو كان المراد كما يقولون لقالت الآية " تظن أن تُفقر"، فإذا معنى الفقر غير ما يقولون، ويكون تبعا لذلك المعنى المراد هو معنى متعلق بالوجه. فإذا رجعنا إلى اللغة وجدنا أن الفقر هو " اسم للوسم الذي يفقر به على الأنف، قال الأصمعي: الفقر أن يحز أنف البعير حتى يخلص إلى العظم، أو قريب منه، ثم يجعل فيه خشبة يجر البعير بها، ومنه قيل: عملت به الفاقرة " وهذا المعنى الأخير بإذن الله تعالى هو

" في هذه الآية أخذ وجذب بين المثبتين للرؤية والنافين لها ولقد فصلنا فيها القول في كتابنا " عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام " فليرجع إليه ! ولكن نقول هنا فقط للمثبتين للرؤية في الموقف : انتم تقولون ان الأعين ترى الله يوم القيامة ولا تنفون انها ترى غيره!، اي انكم غيرتم عدة تغيرات فجعلتم الوجوه بمعنى الأعين ! وجعلتم النظر بمعنى الرؤية وجعلتم الصيغة الاسمية فعلية والغيتم اسلوب القصر الموجود في الآية ! اما نحن فتركنا الآيات كما هي ، فقلنا ان الوجوه منتظرة وما من ثمة إشكال في هذا ، فالترقب والانتظار والنضرة كل هذا يكون في الوجه !

المعنى المراد فهي تخشى أن تجر من أنفها التي كانت تتكبر به في يوم القيامة إلى نار جهنم وبئس المصير.

ثم يترك الله تعالى مشهد القيامة تماما وينتقل راجعا إلى المشهد السابق له وهو مشهد خروج النفس، فيقول تعالى " كلا إذا بلغت التراقي " ما هو متعلق " كلا " ؟ كما تعاملوا مع " كلا " السابقة تعاملوا مع " كلا " هنا! ولما كنا لا نقبل بهذا المنهج الاجتزائي فإنه لزام علينا أن نبحث عن ما تعلقت به " كلا "، فنقول إنا نرى والله أعلم أن متعلق " كلا " هو قوله سبحانه وتعالى السابق " يقول الإنسان يومئذ أين المفر " فالله تعالى يوضح أنه ليس فقط في يوم القيامة يقول الإنسان يومئذ أين المفر، وإنما أيضا ساعة الغرغرة يقول كذلك. وبهذا القول نكون قد حللنا مشكلة جواب الشرط في قوله تعالى " إذا بلغت التراقي وقيل من راق ..... " فلقد غفل بعض المفسرين عن ذكر جواب الشرط لهذه الجملة ومن انتبه منهم مثل الإمام الألوسي، قال: " ثم إن جواب إذا محذوف دل عليه ما ذكر أي كان ما كان أو انكشفت للمرء حقيقة الأمر أو وجد الإنسان ما عمله من خير أو شر" اهـ

إذا فجواب الشرط عند المفسرين إما منسي وإما محذوف! أما على تحديدنا لمتعلق " كلا " نكون قد أظهرنا جواب الشرط وهو نفس ما قيل سابقا " يقول الإنسان يومئذ أين المفر "، فلا مفر ولا مهرب من هذا اليوم، وبهذا نكون قد أتينا بجواب الشرط من السورة نفسها ولم نعمل على تخمينه أو توقعه من عند أنفسنا. " إذا بلغت التراقي " أي إذا بلغت النفس السابقة الذكر التراقي وهي جمع ترقوة أي ساعة خروج النفس من الجسد،

" وقيل من راق "، من القائل هنا ؟ الله أعلم ولأن الله عزوجل أبهم

القائل فلا يهمّنا إذا كان القائل هو البشر المحيطون بالمغرغر أو الملائكة، المهم أنه يقال " من راق " أي يُسأل من يرقى بهذه النفس هل هم ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ ومن الممكن القول أن الجملة هنا من باب التحسر والتندم فيكون المعنى أنه يقال عند ساعة الموت " من راق " من يعلو ويتجاوز أي ينجو ويعبر هذه الكأس، لا أحد بداهة، فلا أحد سيتجاوزه الموت فهو كأس سيذوقه الجميع، لأننا كلنا محكومون بالقانون الرباني " كل نفس ذائقة الموت " [45] وفي هذه اللحظة " وظن أنه الفراق " يظن المغرغر أنها ساعة الفراق وترك الدنيا، ونلاحظ أن المغرغر حتى آخر لحظة في حياته لا يزال متعلقا بالدنيا فهو يتمنى أن يتجاوز هذه اللحظات كما تجاوز أمثالها سابقا، فهو يظن ولكنه ليس متأكدا أو لا يريد أن يتأكد !

" والتفت الساق بالساق " ما هو المراد من هذه الآية ؟ الحق يقال أن هذه الآية كانت من الآيات التي تسبب لي حيرة شديدة في استخراج المراد منها، فمعنى الآية مباشر واضح وهو أن الساق تلتف بالساق ولكن ما علاقتها المباشرة بمشهد الموت ؟ قال بعض المفسرون أن المراد هو ما يراه الإنسان من ضرب المنازع عند خروج النفس إحدى ساقيه بالأخرى، أي أن الساقين تلتفان على بعضهما بسبب سكرات الموت، وقال بعضهم أن المراد من الساق هو الشدة لأن الإنسان إذا دهمته شدة شمر لها عن ساقه، فقيل للأمر الشديد: ساق، وتقول العرب: قامت الحرب على ساق، أي اشتدت .

ولكن لا دليل هنا على هذا القول، ونبدأ نحن بعرض ما نراه في الآية: الله تعالى يقول " والتفت " والالتفاف دوران وتلوي شيء على آخر، ولكنا نلاحظ أن الله تعالى لم يقل: والتفت الساق على الساق!

---

[45] ليس للآية أي علاقة بالرُقية لأن القول بأن المقصود هنا الرقية يتطلب القول بوجود محذوف ، وهو قول باطل كما اثبتناه في كتابنا فليراجع .

كما تقول: لففت العمامة على رأسي. وإنما قال: التفت الساق بالساق! أي أنه استعمل حرف الباء الذي يدل على الوسيلة والتوصل، فيكون المعنى والله أعلم أي أن الإنسان في حال خروج النفس يفقد الإنسان سيطرته على نفسه فيشعر بجزع شديد، فها هي الحياة تسلب منه، فما أفظعه وأصعبه من شعور، ولأن الإنسان متعلق بالحياة حتى النفس الأخير فتلتف ساقه بالساق الأخرى بحثا عن شعور بالأمان والطمأنينة والتحكم كأنها ستمنع بذلك الانضمام خروج النفس من الجسد ولكن لا عاصم من أمر الله .[٤٦] ويمكن القول أن الله عزوجل خص الساقين بالذكر عند الإشارة إلى فقد سيطرة الإنسان على جسده لعدة أسباب، فالإنسان عندما يحيط به خطر داهم فإنه يلجأ إلى الهروب مستخدما ساقيه، فإذا التفت الساق بالساق فلن يستطيع الإنسان الهرب وسيبقى حتى يأتيه أمر الله، كما نلاحظ أن السورة تدور حول التقديم والتأخير " ما قدم وأخر "، " ليفجر أمامه "، " ثم ذهب إلى أهله يتمطى " فكأنه قيل: يا ابن آدم، ها هي الساق التي كنت تستخدمها في تنقلك من معصية إلى أخرى فتقدم هذا وتؤخر هذا وتفعل كذا وكذا[٤٧]، فها هي تتفلت منك وتلتف ببعضهما بعضا، فلم تعد لك السيطرة أو التحكم أيها الإنسان، فقد جاءت لحظة الموت!

وفي هذا اليوم يكون المساق إلى الله عزوجل فقط، فنفسك ستساق إلى الرب العلي، " إلى ربك يومئذ المساق "، ونلاحظ أنه قال في موقف يوم القيامة " إلى ربك يومئذ المستقر " وهنا قال " إلى ربك يومئذ المساق " فالمساق والمستقر كلاهما إلى الله عزوجل!

---

[٤٦] لا نزال نستعمل هذا التعبير في العامية المصرية بنفس المعنى، فنقول " الواحد رجليه لفت على بعض " عندما نريد أن نشير إلى حالة الخوف التي أصابت المرء لدرجة أنه فقد السيطرة والتحكم في أعضائه.

[٤٧] ونحن نعلم ارتباط الساق بالفعل فنقول: فلان يقدم ساقا ويؤخر أخرى، أي أنه متردد في الفعل، وفلان ثابت الخطا، نشير إلى عزمه على الفعل وهكذا.

ثم تنتقل السورة لعرض المشهد السابق لهذا المشهد وهو موقف الإنسان من الدين، فتبدأ بعرض إعراضه عنه فتقول :

" فلا صدق ولا صلى " وهنا نسأل: ما هو متعلق الفاء ؟ فالآية السابقة كانت تتحدث عن إنسان ينزع ثم جاءت هذه الآية بادئة بالفاء، فما العلاقة ؟ نلاحظ أن هذه الآية والله أعلم أيضا متعلقة بأول السورة، فعندما قال الله تعالى " بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة " ووضح أن إنكار الإنسان ليوم القيامة هو من باب الهوى ومن باب أنه يريد الفجور، فبعد أن خادع نفسه بهذا السؤال الذي يراه قمة المنطق! " فلا صدق ولا صلى ": فلا هو صدق بكتاب الله ورسوله ولا صلى. والتصديق بالكتاب والغيب هو من أهم شروط الإيمان إن لم يكن أهمها، فهذا فعل قلبي، يقابله الفعل المادي وهو الصلاة، وهما الفعلان الوحيدان اللذان لا ينقطع الإنسان عنهما، فإذا ذهب التصديق فقد كفر، والصلاة لا تُترك بأي حال أو عذر، فهو لم يصدق ولم يصلي[٤٨]، " ولكن كذب وتولى " وهذا هو المنتظر من إنسان متكبر، الإعراض والتكذيب فهو يكذب ثم يتولى فهو لا يريد أن يسمع فلربما إذا سمع شيئا تأثر به، لذلك هو يكذب ثم يتولى، وبعد ذلك " ثم ذهب إلى أهله يتمطى " وهذا من عجيب فعل الملاحدة والكافرين أنهم لا يسمعون إلى الحق ويعرضون عنه ويلقون بعض الشبهات – والذين حتى لا ينتظرون الرد عليها – ثم يغلقون أعينهم وآذانهم ويولون مدبرين كأنهم أصابوا المؤمنين في مقتل ويذهبون إلى أهليهم ومعارفهم وأصدقاءهم متفاخرين منتفخين منتشين كأنهم أتوا بما لم يأت به الأوائل! فيتوعد الرب القدير هذا الإنسان بقوله: " أولى لك

---

[٤٨] من الممكن القول أن المراد من الإنسان في هذه الآية ليس ذلك الإنسان المحتضر وإنما المراد الإنسان الآخر الذي حضر هذا الموقف ، فعلى الرغم من انه رأى أخاه يُقبض ، فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى .

فأولى ثم أولى لك فأولى " ما معنى هاتين الآيتين ؟ وما علاقتهما بسابقتها من الآيات ؟

" أولى " من الولي وهو القرب، والسادة المفسرون على أنها صيغة دعاء للتنبيه على قرب الهلاك، أي أن الله ينبه الإنسان المنكر على أن نهايته - الموت والقيامة - قريبة منه ثم هو أكثر المستحقين لها وأسرع النازلين إليها فلا تحسبن أن الموت والقيامة بعيدان أيها الإنسان الغافل فهما قريبان منك وهما أقرب وأقرب، وهو أكثر من يستحقهما بما لا يحب ولا يرغب. وأنا لا أختلف معهما كثيرا إلا في أني أرى أنى " أولى " فعل وليس اسما، أي أن الله تعالى يقول للإنسان المكذب بعد أن ذكر موقفه من الإعراض عن الدين على الرغم من مشاهدته لمشهد موت الآخرين، لقد لقرب لك هذا وهو ساعة الموت وما أقربه، " ثم أولى لك فأولى" أي قرب لك ذلك المشهد الآخر وهو يوم القيامة وما أقربه !

ثم ينتقل الرب العليم الخبير ليتناول جزءا هاما في سؤال الإنسان في أول السورة " أيان يوم القيامة " وهو أن الإنسان يطرح هذا السؤال غافلا عن نقطة رئيسة في حياته وهي الهدف من إيجاده على هذا الكوكب، فالإنسان الكافر يؤمن بالصدفة - في الخلق فقط وبخلاف ذلك فلا! - ويؤمن بالعبثية أي أنه لا غاية من هذه الحياة، فإذا هي بدأت بصدفة فهي حتما حياة عبثية! فيقول له الرب: " أيحسب الإنسان أن يترك سدى " أي أيحسب الإنسان أن يترك هكذا مهملا بلا حساب ولا عقاب ولا تكليف، فلم خُلق إذا ؟! قد يحسب بعض النظار أن الله تعالى لم يرد على هذا السؤال، وأن السؤال سؤال تعجبي فقط، لذا نقول: لقد جاء الرد مسبقا في السورة فقال له: لا لن تترك فعند موتك " إلى ربك يومئذ المساق " وعند قيامتك " إلى ربك يومئذ المستقر "! ثم يرد الله عزوجل على هذا الوهم المعشش في أذهان كثير من الناس ويبين لهم أنه لا صدفة في المسألة ولا شيء من هذا القبيل

وإنما كل شيء بقدر، فيذكرهم بخطوات تخليق الإنسان وأنها تسير على نسق محدد لا يظهر عبثا، فإذا انتفت العبثية ظهرت الغائية وهنا على الإنسان أن يسأل نفسه: ما الغاية من الوجود على ظهر الأرض ؟ وحتما سيجد إجابته في دين الله عزوجل: الإسلام وفقط هو الإسلام .

فيقول الله عزوجل: " ألم يك نطفة من مني يمنى " ألم يك هذا الإنسان المتكبر المتمطي نطفة أي سائل رطب قليل[49]! مكون من مني يمنى. ولكن ما المراد من " مني يمنى " أليس المني يُمنى بداهة ؟! قال المفسرون أن المراد من " يُمنى " هو أنه يريد أن يشير إلى الأصل الحقير الذي خرج منه الإنسان فلا يتكبر. ومن الممكن أن يفهم هذا كمعنى عارض أو تأويل إشاري للكلمة، أما المعنى الرئيس للكلمة فليس هذا وإنما هو معنى عجيب عميق، فإذا نحن نظرنا إلى معنى الكلمة في المقاييس وجدناه يقول:

" الميم والنون والحرف المعتلّ أصلٌ واحد صحيح، يدلُّ على تقديرِ شيءٍ ونفاذِ القضاء به " اهـ

أي من هذا السائل وبداخله قدّر الله الخبير أن يكون ويأتي الإنسان، فالإنسان هو الذي ينزل المني ولكن الله عزوجل هو الذي صمم المني بهذا الشكل ليتطور ويتحور في داخل رحم المرأة ليظهر ذلك الإنسان الكامل، لذلك يقول الرب العليم في سورة الواقعة " أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون "

فالله يطرح على الإنسان سؤالا ليذكره أنه كان نطفة من مني مقدر مسير موجه إلى خطة معينة، " ثم كان علقة فخلق فسوى " ثم كان الإنسان علقة بعد أن كان نطفة، ونلاحظ أن الله استعمل " ثم " وهذا يعني أن هذا التحويل والتصيير استلزم وقتا طويلا، أما عملية

---

[49] يرجى مراجعة مراحل خلق الإنسان في كتابنا " لماذا فسروا القرآن " ، ففيه منظور جديد فريد في مسألة خلق الإنسان .

التخليق والتسوية فلا تتأخر كثيرا بعد التحول إلى العلقة، لذلك قال الله تعالى " فخلق فسوى " مستعملا الفاء. ومن هذا الكائن المخلق المكتمل حدث إنقسام " فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى " أي أن الله نوّع في خلق الإنسان فجعل من مني واحد الذكور والإناث وفي هذا إشارة إلى أن مني الرجل هو المسؤول عن تحديد جنس الوليد، ثم يختم الله الرب القدير السورة بقوله " أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى " أي أليس ذلك الذي خلق كل هذا وأنشأ كل هذا وأتى بهذه الردود المنطقية على سؤال الإنسان بقادر على أن يحيي الموتى ؟ ونلاحظ أن الله تعالى قدم دعوة في الآية الرابعة وهي قوله " بلى قادرين على أن نسوي بنانه " ثم تناول في هذه السورة موقف الإنسان من هذه القضية، وغايته في الحياة ثم عاد في آخر السورة في الآية الأربعين! ليطرح عليه السؤال: أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتي ؟! وترك إجابته للإنسان، يجيب نفسه بنفسه! وحتى لا يشطح الإنسان أو ينكر أو يجادل أو يعاند ذكّره في السورة التالية بقوله " هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا " فذكره بأصله لكي يمكنه حسن التفكر في عوده .

الوحدة الموضوعية للسورة:

إن الناظر في السورة يجد أن الوحدة الموضوعية فيها ظاهرة أيما ظهور، ولقد حاول الشيخ الغزالي رحمه الله الإبقاء على الوحدة الموضوعية للسورة على الرغم من أنه كان يرى أن المخاطب بقوله تعالى " لا تحرك به لسانك لتعجل به " وما يليها من الآيات هو النبي المعصوم فتعسف في ذلك! ولكن كما رأى القارئ الكريم فقد قدمنا نحن نظرة أخرجت السورة من أولها إلى آخرها بشكل متناسق متسق مرتبط يسير على نظم بديع غير مسبوق.

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

نتناول اليوم بإذن الله سورة الضحى وهي من سور المخاطبات التي خوطب بها النبي المصطفى لذاته مثل الكوثر والكافرون والفتح، ومثل آيات أخر كثيرات في سور أخريات والتي يمكن أن يدخل فيها تباعا باقي المسلمين من باب التوسع والتجوزا ونتناولها لنوضح منهاجا ربانيا عظيما في التعامل مع الإنسان، يوضح له به الخطوط العريضة لتعامله هو مع غيره وكيف تسير الأمور.

وبما أن السورة من المخاطبات للنبي فلا بد من وجود حادثة أو واقعة أو سبب معين سبق هذه السورة فجاءت هذه السورة تعقيبا عليه، ويورد أهل الحديث في سبب نزول هذه السورة العديد من الروايات أهمها:

أخرج الشيخان وغيرهما عن جندب قال: اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة او ليلتين فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى، واخرج سعيد بن منصور والفريابي عن جندب

قال: أبطأ جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال المشركون قد ودع محمد فنزلت، وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال: مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما لا ينزل عليه جبريل فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك فأنزل الله والضحى الآيات "

والمضمون العام للروايات يتفق مع المناجاة الموجودة في السورة ومع الطمأنة المبثوثة بين ثناياها، لذا فإنا نرى أنه لا مانع أبدا من قبول هذه الروايات كمناسبة لنزول السورة، وإن كان يمكن أن يفهم السبب المجمل من خلال قوله تعالى " ما ودعك ربك وما قلى " .

تقسيم السورة :

بدأت السورة بقسَم جاء في آيتين إثنتين، ثم بعد ذلك وردت تسع آيات متتاليات مقسمات إلى ثلاثة أقسام كل قِسم ثلاث آيات، كل آية منها مقابلة لأختها في القِسم الآخر، فالآية الأولى في القِسم الأول تقابل الأولى في القِسم الثاني والثالث والآية الثانية في الأول تقابل الثانية في الثاني والثالث وهكذا. فالقِسم الأول وعود من الله للنبي الكريم، متمثل في قوله تعالى " ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى " والقسم الثاني تذكير للنبي بأن هذه الوعود متحققة ومستمرة وليس أنها ستتحقق فيما بعد وتتمثل في قوله تعالى " الم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى " ثم القسم الثالث والأخير وهو امر النبي بالشكر على هذه النعم مقابل ما أنعم الله والفعل كما فعل الله تجاهه ويتمثل هذا في قوله تعالى " فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث ". بل إن الناظر في السورة التالية لها وهي

سورة الشرح يجد أن ذلك التقسيم الثلاثي لا يزال موجودا وهو قوله تعالى " ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا وزرك الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك " فسبحان الله العليم الخبير .

فالسورة كلها وحدة واحدة لا اختلاف فيها ولا تباين وهي خطاب وتذكير.

المنظور العام للسورة :

الناظر في السورة يجد أنها من السور الدالات على صدق رسالة محمد، فلو كان محمد هو المؤلف للقرآن وكان عندما يخطأ يحاول أن يصلح خطأه هذا بأن يأتي بآيات يتراجع فيها عما فعل، كما زعم الملاحدة، ويقول: نعم أخطأت ولكن صوب لي الوحي ما فعلت، فأنا أرجع عنه. فإذا كان من الممكن أن يخدع الإنسان الآخرين فليس من الممكن أن يخدع الإنسان نفسه، ويؤلف سورة لنفسه! فالسورة رسالة تثبيت للرسول وللمسلمين، كما أنها كلها تذكير بنعم الله على الرسول وكيف أنه تولاه وأعده من أجل أن يقوم بأداء رسالته التي سيتحملها، فليس اختيار الرحمن عبثا أو بُداءً! بل هو إعداد مسبق وتجهيز مخطط حتى يتولى المهمة وحتى تستمر على الوجه الذي أراده الرحمن.

ونبدأ في تناول السورة فنقول: بدأ الله تعالى السورة بقوله " والضحى " وهي آية كاملة، والضحى معروف فهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقي شعاعها، ثم قال في الآية التالية " والليل إذا سجى " وسجى تأتي في اللغة بمعان عدة أشهرها التغطية والإظلام وهما في المضمون واحد وقيل أنه بمعنى السكون وهو بعيد في هذا السياق. واختلف المفسرون هل المراد من الضحى هو الضحى فقط أم أنه إشارة

إلى النهار كله لأن الله تعالى قابله بالليل ؟ ولكن المتيقن أن المراد من الضحى هو الضحى فقط لأن الله تعالى قال " الضحى " ولم يقل النهار كما قال في سورة الشمس، ثم إن الله تعالى لم يقابل الضحى بالليل كله وإنما قابله بالليل في حالة مخصوصة وهي إذا سجى أي غطى وأظلم واشتد ظلامه، فهذه حالة في النهار يقابلها حالة في الليل فلا إشكال .

إذا فالله تعالى يقسم في أول السورة بوقت ارتفاع الشمس وظهور الضوء وكذلك بالليل عندما يظلم وشتد سواده فيغطي الأشياء كلها، فما علاقة هذه الأشياء بالسورة وبالرسول ؟

قلنا أن الرسول كان قد اشتكى فتور الوحي عنه لفترة من الزمن الله أعلم طالت أو قصرت * اشتد ذلك عليه وعاب عليه المشركون ذلك وسخروا منه، فنزلت هذه الآيات تواسي النبي الكريم وتعرفه أنه لا ينبغي عليه أن يحزن ويتأثر بأقوال هؤلاء القوم وأنه عليه أن يعلم أن الأمور كلها بيد الله، يجريها متى يشاء من الأوقات والأزمان، فليس الوحي ينزل متى يريد الرسول ولكن الوحي ينزل في الزمن الذي يريد الله عزوجل! فكأن الآيات تقول: إذا كنت حزنت أن الوحي انقطع لفترة من الزمن فوالضحى والليل (واللذان هما من عناصر الزمن وعلاماته) ما ودعك ربك وما قلى!

قد يقول قائل: نعم، فهمنا الآن لم ذكر الضحى والليل في أول السورة والعلاقة بينهما وبين انقطاع الوحي لفترة زمنية، ولكن لم خص الله تعالى الضحى والليل بالذات، فقد كان من الممكن أن يذكر أي وقت آخر أو كان من الممكن أن يذكر النهار كله والليل كله، فما

---

* وفي هذا دليل آخر على أن القرآن ليس من عند محمد إذا لو كان يؤلفه لألف شيئا وأضافه إلى ما قاله سابقا !

الحكمة من التخصيص ؟

نقول: الله أعلم بالحكمة تحديدا ولا أحد يستطيع أن يجزم بها ولكن الكل يجتهد في تحديدها، فنقول وعلى الله التوكل: الضحى كما قلنا هو صدر النهار أي أول بداية ظهر الضوء الواضح المشرق الذي يجلي الأشياء بدون أي لبس أو خداع، كما أنه هو الضوء الجميل الذي لا حر فيه ولا معاناة كما في ضوء الظهر الذي يجلي ولكنه يؤذي ويتعب! وسجي الليل هو تغطيه الأشياء أعلى درجات التغطية بالإظلام الشديد، وبين الإثنين طباق، فالضحى يجلي والليل يسجي، فكأن المراد أن الله تعالى يوضح للنبي أنه رب الزمان كله من أقصاه إشراقا إلى أقصاه ظلاما، كما أنه رب ما بينهما بداهة! والإنسان بطبيعة الحال يتقلب بين الإثنين، كما أن في الآيتين إشارة لطيفة وهي أن الضحى إشارة إلى الإسلام وإلى الرسول نفسه والليل إشارة إلى الكفر والشرك، فالإسلام والرسول نور من عند الله ظهر وأشرق فأنار " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين "، والإسلام لا يزال في بدايته ولكنه سيصير نهارا عاما، والضحى هو بداية النهار، فهو إشارة إلى أن الإسلام سيظهر وسيعم على الرغم من عناد الكافرين، فبعد الضحى حتما يأتي النهار! ويقابلهما الكفر والشرك وهو ظلام اشتد ويحاول أن يغطي هذا النور ولكن الله تعالى ناصر دينه " هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " وبعده حتما الفجر، فكأن الله تعالى يقول للنبي لا تحزن على ما معك فلن يضيعك ولن يضيعه الله فعلى الرغم من عناد الكافرين فأنت ظاهر عليهم ظاهر، منصور بإذن الله منصور.

وبعد هذا التأكيد والجزم من الله العليم يأتي المجزوم والمقطوع به وهو قوله تعالى " ما ودعك ربك وما قلى " والودع معروف وهو كما جاء في المقاييس: " أصل واحد يدل على الترك والتخلية !" اهـ فما هو

القلو ؟

هو كما جاء في المقاييس: " القاف واللام والحرف المعتلّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خفةٍ وسرعة .... وكلُّ نابٍ عن شيءٍ متجافٍ عنه: مُقْلَوْلٍ .... ومن الباب القِلَى، وهو البُغض. يقال منه: قَلَيْتُه أقليه قِلىً. وقد قالوا: قَلَيْتُهُ أَقلاه. والقِلَى تجافٍ عن الشّيء وذَهابٌ عنه ". اهـ

ولقد قال المفسرون أن القلو هو البغض ولو كان كذلك فقط لقال الله " وما أبغض" ولكن القلو هو البغض المقرون بالتباعد والتجاف عن الشيء، فكما قلنا القلو أصل يدل على خفة وسرعة، فكأن الله تعالى يقول: لم يسرع ربك في الإعراض عنك يا محمد ولم يتجاف عنك مبغضا !

إذا فالله تعالى يجزم للرسول أنه ما تركه ولا أبغضه وتجافى عنه! ونلاحظ أن السادة المفسرون قالوا أن المراد " وما قلاك "! ولكنه حذف الكاف اكتفاءا بالكاف الموجودة في " ودعك " ولكي تتناسب رؤوس الآيات! وليس هذا هو المراد بداهة، لذا فنحن نأخذ الآيات كما هي ولا نقول بحذف حرف من أجل تناسب رؤوس الآيات أو ما شابه، ونرى أن المعنى عام في هذا الكلمة، يدخل فيه كل ما يتناسب معه ويمكن إدخاله! ولئن ذكرنا بعضها فليس هذا مانعا من وجود غيرها قابلا للدخول بشرط التوافق مع الآيات وعدم التنافر، فنقول المراد والله أعلم أن الله عزوجل يقول للنبي أنني ما تركتك يا محمد ولا تخليت عنك " ما ودعك " وكذلك فأنا لم أبغض أو أتجافى عامة سواء عنك أو عن الدين والوحي أوالمسلمين من الصحابة أوعن مؤازرتك فكل هذه المعاني وغيرها قابلة للدخول تحت الكلمة ولا حاجة لنا بالتخصيص وحصرها في النبي الكريم

ثم يستكمل الله تعالى وعوده وطمأنته للنبي الكريم فيقول "

وللآخرة خير لك من الأولى " فبعد أن انشرح صدر النبي بهذه الطمأنة بعدم الودع أو القلو زاده الله انشراحا وسرورا فقال " وللآخرة خير لك من الأولى " ويكاد السادة المفسرون أن يجمعون على أن المراد من الآخرة هي الدار الآخرة والأولى هي الدنيا! وهذا من عجيب القول، فهل يحتاج النبي الكريم إلى هذه البشرى في هذا الوقت أو في أي وقت ؟ النبي الكريم لا يحتاج إلى هذا التأكيد " وللآخرة "، فإذا كان النبي يحتاج إلى تأكيد أو إخبار من الأساس حول هذا المعنى بالذات فهذه طامة كبرى! كما أن هذا القول لا يتطابق مع الآية، فهي تقول " وللآخرة خير لك من الأولى " ولم تقل: خير لك من الدنيا! والآخرة في اللغة هي عكس الأولى، ولا تصرف إلى الدار الآخرة أو إلى يوم القيامة إلا بمقابلتها بالدنيا أو بأي إشارة في الآية إلى أن الحديث هو عن البعث أو ما شابه! وليس في الآية هنا أي دليل على ذلك وإنما قرنت الآية " الآخرة بالأولى " فيكون الحديث هنا عن عكس الأولى! وإذا نحن تتبعنا موارد " الآخرة والأولى " في الكتاب الكريم وجدنا أنها ترد بهذا المعنى دوما، وهي كالتالي:

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [القصص: ٧٠]، "فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى [النجم: ٢٥] "، "فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى [النازعات: ٢٥] "، "إِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى [الليل: ١٣] "

إذا فيكون المراد من الآية وعد من الله عزوجل أن كل ما سيستقبله النبي الكريم من الأحداث والأزمان إلى موته هو خير له مما مر به[٥١] والتاريخ يؤكد هذا، فما زال النبي الكريم يتقلب من نصر إلى نصر ومن تقدم إلى تقدم حتى أتاه الموت، وكذلك باقي الآيات الواردة في

---

[٥١] وتدخل الساعة بداهة في هذا الموعود ولكنها تدخل كجزء أخير وليست ككل الموعود به .

السورة تؤكد هذا المعنى وتمشي في هذا السياق. إذا فالله يعد النبي ويطمأنه أنه ما تركه ولا تخلى عنه أو عن الدين وأنه حاله سيتقلب من حسن إلى أحسن! ثم يقول له " ولسوف يعطيك ربك فترضى " أي أنه مع تقلب الحال من حسن إلى أحسن فإن هذا مقرون بالعطاء من كل شيء، فالله سيفتح له وجوه الخير كلها، فسيعطيه من القرآن حتى يرضى (فحزن الرسول أساسا كان بسبب انقطاع الوحي) ويعطيه من المال حتى يرضى ويعطيه من الأتباع حتى يرضى ويعطيه من النصر والتمكين وانتشار الدين والنصر على الأعداء حتى يرضى ويعطيه من الثواب والحسنات حتى يرضى[٥٢]، ويعطيك من الخلق الحسن ومن الثناء الجميل ومن السيرة العطرة في الدنيا ما لا ينقطع ويعطيك من الفضل العظيم ثم يعطيك في الجنة العطاء الأوفر والأجزل. ونلاحظ أن الله تعالى قال " يعطيك ربك فترضى " ولم يقل " حتى ترضى " لأن عطاء الله العظيم الكريم وفير كثير يرضى منه النبي الكريم مباشرة فلا يظل فترة حتى يرضى وإنما يرضى بكل ما أعطاه الله له !

ثم يوضح الله عزوجل للنبي الكريم أن وعده هذا ليس وعدا مستقبليا لما يتحقق بعد، وإنما هو وعد متحقق تحقق بعضه وسيتحقق الأعم والأكثر منه تباعا، فيوضح للنبي الكريم حتى لا يغفل عن هذه النقطة فيقول له: " ألم يجدك يتيما فآوى "، اليتيم معروف ولكنا نزيده توضيحا فنقول: اليتم في اللغة الانفراد، كما جاء في اللسان، وجاء في المقاييس: " ويقولون لكلِّ منفردٍ يتيم، حتَّى قالوا بَيْتٌ [من الشِّعر] يتيم. " ولكن ليس المراد الانفراد من الأصل ولكن

---

[٥٢] كل حسنات الأمة تصب في دفتر أعمال النبي الكريم ، فهي تكتب لنا وله فهو سبب هدايتنا " من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها " والنبي الكريم هو الذي جاء لنا بالإسلام كله ! فله مثل أجورنا ولا ينقص منها لنا شيء .

اليتيم من كان مجموعا بشئ ثم انفرد، وبذلك أصبح يتيما. فالله تعالى يقول للنبي الكريم أنه كان يتيما أي أنه أصبح منفردا فآوى. وهنا نتوقف عند كلمة " آوى " فالله تعالى لم يقل " فآواك " وإنما قال " آوى " فقط، وهنا نطرح السؤال: هل يقول الله تعالى للنبي الكريم: أنه وجده يتيما فآواه هو إلى غيره، إشارة إلى حياة النبي الكريم حيث آواه إلى أمه ثم جده ثم عمه ثم إلى باقي المسلمين، أم أنه وجده يتيما منفردا فآوى إليه الناس فأصبح هو الملجأ والملاذ والركن الشديد الذي يلجأ إليه الناس ؟ لا يوجد في الآية ما يحتم معنى من المعنيين، وإن كان المعنى الأول أكثر شهرة والذي يرجحه السياق من أن الله يذكر للنبي الكريم مراحل حياته ابتداءا ونعم الله عليه في كل مرحلة منها، إلا أنه لا يوجد ما يمنع من حمل الكلمة على المعنيين فالله آوى نبيه في صغره وجعله هو المأوى في كبره! ثم يواصل الرب القدير ذكر نعمه على الرسول فيقول له " ووجدك ضالا فهدى " والعجيب أن بعض المسلمين! ذهبوا إلى أن النبي الكريم كان كافرا قبل البعثة! واستدلوا بهذه الآية، وهذا من عجيب القول، فمن الممكن القول أن النبي الكريم كان مشركا قبل البعثة ولكن لا يقال كان كافرا، ونحن ننزه النبي الكريم كما نزهنا أباه إبراهيم عن الشرك في مقال سابق، فلا نقول أنه كان مشركا وإنما نقول كما قال القرآن أنه كان ضالا، فهداه الله! والعجيب أن الآية حددت معنى الضلال فجعلوه هم بمعنى الشرك أو الكفر! والضلال معروف وهو كما جاء في المقاييس: " أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنىً واحد، وهو ضَيَاع الشيء وذهابُهُ في غيرِ حَقِّه " اهـ وهو كما يفهمه أي إنسان هو عدم الاهتداء والتحير والخطأ الغير متعمد، فالإنسان الضال هو غير المهتدي وهناك فارق بين الذي لم يجد الطريق فضل فهذا لا حرج عليه وبين من أرشدته إلى الطريق فتعمد الضلال، ونبينا وباقي الأنبياء منزهون عن ذلك "، فالآية تقول للنبي أنك لم

تكن تعرف الطريق القويم فهداك الله إليه، كما جاء في قوله تعالى " مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان " [الشورى: ٥٢] وقوله: " وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين " [يوسف: ٣]، إذا فالآية ليس لها أي علاقة بالكفر[٥٣].

ثم يستأنف الرب الكريم تذكير النبي بنعمه عليه فبعد أن آواه وهداه أنعم عليه بالدنيا كذلك فيقول له " ووجدك عائلا فأغنى " أي أن النبي الكريم كان فقيرا يعول غيره فأغناه الله الكريم، والأصل في العائل هو من يعول، سواء كان عنده عيال أو ليس عنده فهو يعول من يرعاه! والنبي الكريم كان يعول عياله ويعول الأمة كلها [٥٤]، أي أن الله يذكر النبي بأنه كان محتاجا فأغناه، والأصل في العول هو الميل والنقصان، فأغنى الله النبي عن أن يميل إلى غيره، فأغناه أولا بزواجه من خديجة ثم بما ينفقه المسلمون ثم بعد ذلك بالخمس من الغنائم ينفقها الرسول حيث شاء وأراد !

<u>وبعد أن ذكّر الله العلي القدير النبي بثلاث من نعمه عليه، إشارة إلى تحقق جزئي لوعوده الثلاث السابقات يأمره بشكر مقابل لهذه النعم،</u> فلما قال له الله تعالى " ما ودعك ربك وما قلى " وضح له أن هذا حادث طيلة حياته وذكر له المقابل وهو " ألم يجدك يتيما فآوى "، وهذا دليل على امتداد الرعاية طيلة عمر النبي الكريم وأنها لم تنقطع عنه !، ولما قال له " وللآخرة خير لك من الأولى "، وضح له أن هذا

---

[٥٣] تمسك بعض غير المسلمين بهذه الآية فقالوا : ان موسى عليه السلام أفضل من النبي محمد !! فنقول : هذا من عجيب القول ، فلقد اعترف سيدنا موسى نفسه فقال " قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ [الشعراء : ٢٠] " فهو يعترف انه كان في مرحلة ضلال ، كما كان النبي الكريم اي في مرحلة عدم اهتداء وهذه لا حرج فيها . كما ان النبي موسى قال " قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي [طه : ٢٥] " اما النبي الكريم فقيل له " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ [الشرح : ١] "، فلا حجة فيما يقولون على افضلية اي نبي على الرسول .

[٥٤] كلنا عيال النبي الكريم ، فالنبي أبو المؤمنين وازواجه امهاتهم ، ونحن نفخر كلنا بأنا عيال النبي الكريم .

متحقق دوما فقال له " ووجدك ضالا فهدى "_فتحقق الهداية خير من أي نعمة وأي حدث في حياة النبي وبها انتقل من مرحلة إلى مرحلة جديدة مخالفة مغايرة فيها كل الخير! ولما قال له " ولسوف يعطيك ربك فترضى" وضح له أن هذا متحقق طيلة عمره فقال له " ووجدك عائلا فأغنى " أي أنك كنت محتاجا فأغناك عمن سواه! وسيغنيك أكثر بعد ذلك بعطائه الذي لم ولن ينقطع! ثم ذكر له المقابل والشكر على هذه النعمة فقال :" فأما اليتيم فلا تقهر " فمن تمام خلقك وعظمته أيها النبي الكريم أن تعامل الناس كما عاملك ربك! فلا تقهر اليتيم وتذكر احتياج هذا اليتيم إلى اليد الحانية وإلى المعاملة الخاصة لفقدانه أباه، فلقد كنت يتيما فآويناك فلا تقهر اليتيم وامسح على رأسه وآوه، وفي مقابل " ووجدك ضالا فهدى " قال له " وأما السائل فلا تنهر " أي أنك كنت ضالا تبحث عن الطريق فهداك الله فقابل الهداية بالشكر الفعلي، فالقولي متحقق منك، ولا تنهر السائل أي لا تقابله بكلام تزجره به وتسيء إليه، وليس المراد من السائل هنا هو الإنسان الذي يسأل المال وإنما المراد منه من يسأل العلم والدين من الرسول بدليل المقابلة في الآيات، فأنت رسول مأمور بالتبليغ فإذا جاءك من يسألك فلا تنهره وتزجره وتذكر أن هذا العلم المتحصل معك هو من الله، وكما قلنا لك " ووجدك عائلا فأغنى " نقول لك " وأما بنعمة ربك فحدث " أي أن الله فتح ولا يزال يفتح لك من النعم والعطاء والخير بكل أنواعه ما لا تحصيه أنت، من القرآن والصحة والنصرة والمال والأتباع ... إلخ أشكال العطاء فحدث بهذه النعم ولا تكتمها ففضل الله عليك سابغ من أولك إلى آخرك! أي أنه لا حرج من التحديث بنعمة الله تعالى عليك فليس هذا من العجب أو الكبر. والراجح أن المراد من النعمة هنا وأكبرها القرآن الذي أنعم الله به على النبي الكريم فهو يحدث به الناس ويعرفهم به .



سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن كتاب الله العظيم ورسالته الخاتمة إلى كل البشر في كل زمان ومكان وهو كله وحدة واحدة كله آيات بينات، فالسورة الكبيرة آية بينة على أنه من عند الله تعالى كما أن السورة الصغيرة كذلك، ولما كان هؤلاء المعادون للإسلام من غير أهل اللغة ولا يعرفون لها خُبرا ولأنهم من أصحاب الكمّ تركوا التشكيك في السور الكبيرة لأنهم غير أهل لذلك، فهذه سور كبيرة لا قوام لهم بها، فتركوها والتمسوا السور الصغيرة يشككون فيها، ويتساءلون في براءة الغيلان! أين الإعجاز في هذه السور، هذا كلام قصير المبنى قليل المعنى! ولقد كنا قد ناقشنا سابقا سورة الكافرون، ووضحنا أنه على الرغم من قصر السورة وقلة مفرداتها إلا أنها تحتوي معان عظيمة كثيرة لا وجه للتكرار فيها، على العكس مما يتخيله كثير من الغير متدبرين في القرآن** !

واليوم نتناول بإذن الله تعالى وعونه سورة الكوثر وهي أقصر سورة

** يمكن للقارئ الكريم ان يطالع هذه المعالجة على موقعنا www.amrallah.com

من سور القرآن، ونبين كيف أنها على الرغم من قصرها الشديد فإنها تحتوي من البينات الداخلية الكثير والكثير الذي يبرهن على أنها وحي من عند الله عزوجل، ونبدأ متوكلين على الله طالبين منه العون والهداية :

بسم الله الرحمن الرحيم

تقع سورة الكوثر بين سورتي الماعون والكافرون[٥٦]، فإذا نحن نظرنا إلى مبتدأ السورة ونهايتها وجدنا لها متعلقا مباشرا بالسورة القبلية والبعدية، فالسورة القبلية تتكلم عن العون وكيف أن الإنسان المكذب لا يكون عونا لأخيه فيمنع عنه ما يحتاجه ولو كان من الأشياء البسيطة القليلة وكيف أنه لا يحض على الإطعام ولا يحسن الصلاة ولا يجعلها خالصة لله تعالى فيراءي بها، فإذا نحن نظرنا في سورة الكوثر وجدنا أنها تشتمل معكوس ما ورد في سورة الماعون، فالسورة تبدأ بقوله تعالى " إنا أعطيناك الكوثر " ففيها إعطاء بكثرة عجيبة رهيبة متزايدة مستمرة! وفيها أمر بالصلاة لله تعالى فقط فلا يُراءى فيها، وأمر بالنحر (وسيذهب هذا المنحور بداهة كطعام إلى المساكين) .

فإذا نحن نظرنا في آخر السورة وجدنا قوله تعالى " إن شانئك هو الأبتر " ثم تبدأ السورة التالية بخطاب الكافرين بقوله تعالى " قل يا أيها الكافرون " معلنة لهم حريتهم الدينية!

المنظور العام للسورة :

تدور هذه السورة في فلك ذكر نعم الله عزوجل على نبيه وقربه منه وهي تدور بين الإخبار والمن ثم المطالبة بالشكر في مقابل هذه النعم ثم

---

[٥٦] مما هو معلوم بداهة أن ترتيب القرآن توقيفي من عند الله تعالى قام به الرسول ذاته في حياته ، لذا لا تلق بالا للخلاف الموجود في هذه المسألة .

نبوءة للنبي الكريم تتحقق في طول الزمان !

فالدلائل البينات التي تحمل الصدق الداخلي في هذه السورة يمكن التحقق منها، فالسورة تحتوي خبرا، ومن الممكن لأي إنسان أن يذكر أي خبر ولكن هل تحقق الخبر ؟ العبرة بتحقق الخبر، فهل تحقق ؟ هذا ما سنراه بإذن الله تعالى! ثم تختم السورة بنبوءة تسري أيضا كدليل لصدق المحتوى الداخلي لهذه السورة، وهذان الخبران الماضي والمستقبلي هما الدليل على كون هذه السورة من عند الرب القدير، ونبدأ بإذن الله وعونه في تناول السورة :

الناظر في سورة الكوثر يجد فيها كوثرا حقيقيا فهي سورة قصيرة المباني عظيمة المداليل والمعاني فإذا نحن نظرنا في أول السورة وجدنا قوله تعالى " إنا أعطيناك الكوثر " فتبدأ السورة بصيغة المعظم " إنا " لنفسه المشعر بعظمة المُعطى، فإذا كان المُعطي عظيما فحتما ولزاما يكون المُعطى على قدر عظمة معطيه ومناسبا لقدر مُعطاه! فالله تعالى يُذكِّر النبي الكريم أنه أعطاه الكوثر، فما هو الكوثر ؟

الكوثر كما هو واضح من مبناه فإنه يدل على الكثرة، ولكنه موجود في صيغة " فوعل " وهي صيغة غير مألوفة استعمالا، فما هو مدلول فوعل ؟

صيغة فوعل صيغة تدل على الأصل والمصدرية[٥٧] الذي يتفرع عنه وينبع منه! فلو قال الله تعالى للرسول الكريم " إنا أعطيناك الكثرة أو الكثير " لكان هذا لا يدل على أن الرسول هو أكثر من أخذ أو على عظم ما أعطاه، بل لا يمنع أن يكون هناك من أُعطى أكثر منه، فالكثير كثير وجوده، فقد يكون معك كثير ومعي كثير ولا يوجد ما يمنع هذا. ولو قيل " إنا أعطيناك أكثر " لكان في هذا مقارنة بين

---

[٥٧] بالمعنى الطبيعي الموردي وليس اللغوي .

النبي الكريم وغيره، وفي هذه الحالة لا يوجد ما يمنع أن يكون هناك من يقاريه ولكن الرسول الكريم زاد عنه في بعض الجوانب! أما عندما يقول الرب القدير للنبي الرحيم أنه أعطاه الكوثر فكأنه يقول له: إنا أعطيناك ما لم نعط أحدا من البشر فلقد أُعطيت الأصل وما عداك فهو آخذ للفرع! فالله العلي يوضح للنبي مقدار عطائه وفضله عليه فلقد أعطي الأصل، أصل الكثرة ومصدرها، وهذا الأصل مستمر لا ينقطع، فمن المعروف أن الأصول تستمر وتثبت، وتزيد بزيادة فروعها، فإذا زادت الفروع عظم الأصل أكثر وإذا ماتت الفروع وانقطعت ظل الأصل كما هو. فالله أعطى النبي الكريم الأصل العظيم الذي لا ينقطع بل هو في تزايد وكثرة إلى يوم القيامة. فما هو الكوثر ؟

اختلف العلماء في المراد من الكوثر، وحق لهم أن يختلفوا فهو لفظ عام أصل! فقيل أن الكوثر هو نهر في الجنة، وبداهة سيكون للنبي الكريم بعد موته، وهذا القول مستبعد بعض الشيء لكون النبي الكريم لم يأخذه، فكان من الأولى أن يُقال " إنا وهبناك أو جعلنا لك " أما أن يقول " أعطيناك " مع نهر فبعيدة بعض الشيء، كما أنه يطلب إليه أن يصلي لربه وينحر كرد فعل على هذا العطاء، وعلى الرغم من أن وعد الله متحقق لا محالة وهو أصدق مما يراه الإنسان بعينيه التي في رأسه فإن الله تعالى أكرم منا كلنا، فلا يعد بعطاء شيئ في الآجل ثم يطلب الشكر عليه في العاجل. كما أن الصيغة الواردة في الآية هي صيغة الماضي، فالأولى هو حمل الزمن عليه إلا أن يدل دليل في النص نفسه على أنه في غير ذلك. إذا فكون الكوثر نهر في الجنة بعيد، وكذلك لنفس الأسباب يبعد ما قاله الشيعة من أن المراد من الكوثر هو الذرية الكثيرة التي جاءت للنبي الكريم عن طريق ابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها وعن زوجها، حيث قالوا أن المراد من الكوثر هو الذرية، وهذا يقابل ما جاء في آخر السورة وهو قوله تعالى " الأبتر "، فإذا كان شانئ

النبي الأكرم أبتر فإنه ذو كوثر! ولكن هذا أيضا بعيد لكونه لم يتحقق في زمن النبي الكريم كما أنه لم يُعطه! وقيل أن المراد من الكوثر النبوة، وقيل أنها الشفاعة وقيل أنها الأتباع الكثيرون[58]، وقيل أنه العلم وقيل أنه الحكمة وقيل أنه الرزق وقيل أن المراد من الكوثر المدح المذكور في القرآن للنبي الكريم. ولكن الأوصاف هذه كلها لا تنطبق مع عنصر الأصلية والثبات اللذان ينبغي توفرهما وحصولهما في الكوثر وهذا ما لا يكون فيما ذكروه، كما أن المعاني الغيبية التي ذكروها لا يمكن التحقق من صدقها في الدنيا فلا تكون وجه إثبات، فما المعنى أن يقول الرسول لأهل مكة: إن الله أعطاني نهراً في الجنة أو الشفاعة أو .....، فهل رأوا من ذلك شيئا ؟ فإذاً لم يتحقق التطابق بين المعاني المذكورة وبين الكوثر، فما هو المراد من الكوثر ؟

الذي نراه والله أعلم أن المراد من الكوثر هو القرآن الكريم، فهو الذي ينطبق عليه وصف الكوثر أيما انطباق فهو أصل الخير وجماعه، كما أنه في استمرار وزيادة إلى يوم القيامة فلا ينقطع ولا يذهب، فهو وإن ثبت مبناه إلا أن معانيه في ظهور وجلاء وزيادة، وكلما مر الزمان اكتشف الناس معان عظيمة لهذا الكتاب الرباني، فإذا حدث وأخطأ بعض الناس في تأويله يظل كما هو بدون تأثر إلى أن يظهر تأويله السليم بإذن الرب العليم. والناظر يعلم أن أكبر نعمة أنعمها الله على رسوله كانت هي كتابه، لذلك كان من الأولى حمله هنا عليه، فكما قال الله تعالى في سورة الضحى " وأما بنعمة ربك فحدث " أي فحدث بالقرآن ولا تخف فكذلك هنا يذكره الله تعالى أنه أعطاه الكوثر الذي لا ينضب وهو كما وصفه الرسول الكريم :

" .... كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم.

---

[58] كثرة الأتباع مستلزمة للتسبيح بحمدلله والاستغفار كما جاء في سورة النصر، كما أنها لا تنطبق انطباقا مباشرا مع صيغة " فوعل" .

هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم ينته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا، هو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم، ..."[59] فانظر إلى المحتوى الكوثري في التوصيف النبوي لتعلم أن ما قلناه هو أكثر الوجوه قربا من اللفظة، فالنبي كان أُعطى القرآن في الماضي وليس في المستقبل فهو متفق مع زمن الآية " أعطينا "، كما أنه كان مستمرا في الزيادة في زمن النبي الكريم، فهو لم يُعطه مرة واحدة وإنما أُنزل على مرات متفرقات ليثبت به قلب الرسول الكريم. فبهذا القول نجد أن القرآن أكثر انطباقا مع اللفظة من النبوة التي جعلها بعض العلماء المراد من الكوثر، فالنبوة لا تزيد ولا تتكاثر بل هي معنى ثابت !

إذا فالله تعالى يذكر نعمته للرسول الكريم بأنه أعطاه الكوثر، ولقد صدق هذا الخبر حتى وفاة الرسول الكريم، فاستمر الكوثر في الزيادة حتى تم فلم يقدر أحد من العرب على قتل الرسول حتى يضيع القرآن أو ينقص، وفي آخره نزل قوله تعالى " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي .... " فثبت أن الكوثر أُعطي كاملا وكل الناس على ذلك شاهدون، فثبت بالواقع والمشاهدة أن الخبر الأول كان – ولا زال – صادقا في وقته وبعده حتى قيام الساعة .

وبعد أن ذكر الله تعالى لنبيه نعمته يأمره بشكر نعمته التي أعطيها الرسول الكريم فيقول له: " فصل لربك وانحر " فيأمره أن يُصلي لله

---

[59] ضعف هذا الحديث بعض من علماء الحديث ولكن علة التضعيف وجود راو شيعي فيه ! على الرغم من كونه مستوف للشروط !

تعالى فقط فلا يصلي لأي معبود آخر، كما أنه عليه أن يراعي الله عزوجل في صلاته هذه فلا يُراءي بها أحدا! ونلاحظ أن الآية الثانية تحولت من صيغة المتكلم الجمع إلى المفرد المخاطب " أعطيناك " " لربك "، ففي هذه الآية توضيح لعميق العلاقة وشديد القرب بين الرسول وربه، فبعد أن قال له " إنا أعطيناك الكوثر " قال له " فصل لربك " أي كما أن العطاء كان منا لك فقط فكذلك يكون الشكر منك لربك فقط! ونلاحظ أن الله تعالى جعل الصلاة كرد فعل للعطاء مع أننا نتكلم من أول السورة على الشكر! لأن الصلاة تشتمل الشكر ومعان أخرى كثيرة لا يحيط بها الشكر، فقد يُسدي إليّ إنسان خيرا فأشكره، أما الله تعالى عندما يعطي النبي وعندما يأمره بالرد فهو لا ينتظر منه الشكر وإنما ينتظر منه ردا يكون بقدر مقدار النبوة ويمقدار المعطي! فالنبي بصلاته لربه يعلن خضوعه وعبوديته للرب القدير وأنه لم يخرج عن ذلك النطاق فهو لا يزال ذلك العبد الراجي رحمة ربه العابد له، الباسط يديه له. كما أن في الصلاة إشعار لعدم استغناء الرسول الكريم عن ربه، فلربما يظن ظان أن الرسول الكريم إذا أُعطي أصل الخير فشكر أنه ربما يستغني عن ربه – معاذ الله – ولكن بالصلاة يقدم الرسول البراهين على احتياجه لربه ولعبوديته له في كل حال.

وبعد أن يصلي الرسول لربه يقوم فينحر والنحر معروف وهو الذبح[60] لله تعالى، فالرسول يعلن شكره لربه بشكلين إثنين وهما: الصلاة فهذا فعل بينه وبين ربه وهناك النحر وهذا فعل علني يظهره الرسول للناس ويوضح لهم به مقدار فضل الله تعالى عليه وبذلك يجعلهم هم أيضا يحمدون الله تعالى ويشكرون على نعمه وآلائه على

---

[60] قيل أن المراد من النحر هو فعل في الصلاة وهذا بعيد ، فالمعنى المتبادر للذهن هو المراد وهو النحر!

الرسول الكريم .

ونلحظ أن الله تعالى قال " فصل لربك وانحر " ولم يقل " فصل وانحر لربك "، وليس لهذا الأمر علاقة بالفاصلة أو ما شابه وإنما ارتباط هذا الترتيب بالمعنى المراد، فلما قال الله تعالى " فصل لربك وانحر " عُلم أن الصلاة لا تكون إلا لله تعالى، أما النحر فيكون لله تعالى ولكنه يصل إلى الناس، ولو قال " فصل وانحر لربك " لكان معنى هذا الا يصل شيء من الذبائح إلى الناس، وهذا ما لا يريده الله تعالى ولا يرضاه وإنما هو يريد الشكر والتقوى من الناس، لذلك قال الله تعالى " لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ [الحج: ٣٧]" .

إذا فشكر نعمة الله يكون بالصلاة والتي تشتمل العبادة والدعاء والخضوع والشكر والعبودية والتذلل والرجاء والاتصال وكذلك يكون بالنحر، وفيه إعلام بنعمة الله وتحديث بها وحث على شكر الله تعالى وذكره.

ثم يعود الله تعالى إلى ذكر نعمه عليه فيقول له " إن شانئك هو الأبتر " ؟ ما هو معنى هذه الآية ؟ لما كانت الآية خطابا للرسول الكريم ذكر المفسرون لها أسباب نزول مختلفة ولم يتفقوا على سبب نزول واحد، والأسباب كثيرة أشهرها هو الرواية التالية كما جاء في تفسير الإمام الفخر الرازي :

" وروى أيضاً أن العاص بن وائل كان يقول: إن محمداً أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده، فإذا مات انقطع ذكره واسترحتم منه " اهـ.

ويغض النظر عن صحة هذا السبب أو غيره من الأسباب التي ذكروها فإن الآية عامة تقدم قانونا عاما في التعامل مع الرسول الكريم ونبوءة صدقها الزمان ولا يزال يصدقها. تقول الآية للنبي

الكريم " إن شانئك هو الأبتر " والكلمة الوحيدة التي قد تغيب عن القارئ في هذه السورة هي قوله تعالى " شانئك " أما " الأبتر " فهي معروفة ولكن القارئ قد يغفل عنها. فما هو الشنآن ؟

إذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول :

" الشين والنون والهمزة أصلٌ يدلُّ على البغضة والتجنُّب للشيء. من ذلك الشَّنُوءَة، وهي التقزُّز؛ ومنه اشتقاق أَزْدِ شَنوءة. ويقال: شَنِئَ فُلانٌ فلاناً إذا أبغَضَه. " اهـ

والشنآن وارد في كتاب الله تعالى، فهو كما جاء في قوله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [المائدة: ٨] "

إذا فالشنآن بمعنى البغض، ولكنه لا يكون إلا في البغض الظاهر المؤيد بالأفعال، أما البغض القلبي فليس لأحد إطلاع عليه إلا ربه، كما أنا لا نحاسب الناس على ما في قلوبهم .

أما الأبتر فهو من البتر، وهو معروف، وهو كما جاء في المقاييس:

" الباء والتاء والراء أصلٌ واحد، وهو القطع قبل أن تتمَّه. والسيفُ الباتر القَطَّاع. ويقال للرجُل الذي لا عقِب له أَبتَر. وكلُّ من انقطع من الخَيْر أثرُه فهو أَبْتَر. وخطب زيادٌ خطبتَه البتراء لأنّه لم يفتتِحْها بحمدِ الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. " اهـ

إذا فالله تعالى يقول للنبي الكريم – كما يقول المفسرون – أن مبغضك المظهر للعداوة والبغضاء لك هو أبتر أي أنه مقطوع النسل فلا يبقى له ذكر!

ولكن هل هذا ما تقوله الآية ؟ نحن نرى أن المعنى أشمل من ذلك، فالإنسان الذي يبغض الرسول الكريم ويُظهر هذا الشنآن فإن الله تعالى

يجعله هو الأبتر أي الذي لا نصير له ولا معين، والبتر كما جاء في اللغة هو القطع قبل التمام، فلا يحصل لهذا الشانئ تمام نعمة وكمالها بل تنقطع عنه ولا تستمر أبدا. وفي هذا التحديد لمعنى البتر الرد على من يقول أن هناك من يشنأ الرسول وهو ليس مقطوعا من الخير. وهذا الاعتراض هو على قول المفسرين الذين جعلوه ممنوعا من كل خير، أما نحن فنأخذ بالمعنى اللغوي الأصل للكلمة وهو الانقطاع قبل التمام فلا تتم عليه النعمة في حياته بل تبتر، كما أنه هو نفسه يصير أبترا تماما بعد موته فينقطع عن ذكره وأثره أي وجه من وجوه الخير بل يُنسى ويهمل في مزابل التاريخ ، أما الإدعاء أنه لا يحصل له أي خير في حياته فلا شاهد له في الواقع بل الواقع مكذبه!

إذا فالله تعالى يعد النبي الكريم بأن من يشنأه هو الذي سيكون ابترا، وذلك كما قال له في آية آخرى " إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ [الحجر: ٩٥] " والناظر في التاريخ يجد أن هذه النبوءة تحققت ولا تزال تتحقق، فمن كان يضمن للرسول أن لا يموت قبل اكتمال رسالته ومن يضمن للرسول استمرار هذا التحقق بعد موته وعدم اندثار دينه الذي اتى به وذهابه طي النسيان في صفحات التاريخ_كما ضاع من قبله من ضاع، ليس هناك ضامن بشري لذلك، ولكن إن هذه نبوءة ربانية ولا بد من تحققها كما أخبر بها ، وفي هذا التحقق إثبات لصدق السورة وآية على رحمانيتها .

إذا فكما رأينا عزيزي القارئ كان هذا مرورا سريعا على هذه السورة، لم نرتض فيه أن نتوقف مع كل كلمة فيها ومع ارتباطها بما قبلها، وإنما عرجنا فقط على التعرض لوجوه " الإعجاز " فيها والتي تثبت أن السورة من عند رب قدير وليست من عند عبد خبير! _فرأينا فيها أخبار صادقة ونعم سابغة ووعود واقعة وأوامر لازمة، كل هذا فيما لا يُذكر من الكلمات، وسبحان من وسعت كلماته القليلات كثير المقابلات، وحقا إنها الكوثر .... كلمات الرحمن.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

من التهم التي تلقى وتلصق بالقرآن جزافا بدون نظر وتفكر من صاحبها تهمة التاريخانية! حيث يدعي أعداء الدين أن القرآن هو من عند محمد، لذلك نجد فيه أحداثا وأشخاصا يُخصون بالذكر في كتاب يفترض فيه أنه كتاب خالد جاء للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان! ويضربون على ذلك الأمثلة مثل سورة قريش والمسد، حيث يدعون أن هاتين السورتين نموذجان مثاليان لتأثر محمد ببيئته، وبغض النظر عن التأثر فإن محتوى السورتين محتو عادي لا يحمل أي وجه من وجوه الإعجاز والإشارات والدلائل التي ينبغي أن تكون في سورة يتعبد بها الإنسان العربي أو الغربي! فما علاقتهما بقريش أو ما شابه؟!

لذا فإنا نبدأ بحمدالله وعونه في تناول سورة قريش لنبين أن هؤلاء أصحاب نظر قصير، لم يقرأوا القرآن ولم يتدبروه وإنما تلوه تلاوة سطحية وخرجوا بأحكام مُبتترة لا هي بالنافعة ولا الناجعة! ونبدأ

بسم الله وعليه الاتكال :

المنظور العام للسورة :

يخاطب الله تعالى قريش باعتبارها قبيلة الرسول وهي المهد الأول والمتلقي الأول للرسالة ويُذكرهم بنعمه عليهم في قديم الزمان وحديثه ومستقبله فيُذكرهم بما فعل في أصحاب الفيل ويذكرهم بأنه هو الذي كثرهم وألفهم وجعلهم يدا واحدا وقوة تجارية كبيرة (قرش) وكيف انه سخر لهم الطبيعة وجعلها في مصلحتهم ووعاءا لهم فهناك اختلاف زمان في صيف وشتاء، وأنهم عليهم أن يعبدوه كرد فعل منطقي لما أنعم عليهم، وكيف أنه وفر لهم ما قد لا يتوفر لغيرهم من الاحتياجات الرئيسة وهو أنه أطعمهم من جوع فأصبحوا في غنى فلا يشغلهم الفقر والبحث عن الطعام عن العبادة، وآمنهم من خوف فهم في استقرار وأمان فعليهم أن يعبدوه ويخضعوا له. وما يقال لقريش يقال لكل مجتمع إنساني، فهم وإن كانوا أول مخاطب به، ولكنا نلاحظ أن الله يعرض خطابه لهم في صورة الغائب وليس المخاطب، فلم يقل " فلتعبدوا رب هذا البيت " وفي هذا إشارة إلى أن القاعدة والمبدأ عامان، فمن توفر فيه هذا فعليه أن يفعل المأمور به هؤلاء! وهو أن يعبد الله العظيم خالقه وخالق هذا الكون له ورازقه ورازق الناس أجمعين .

ونبدأ في تناول السورة متكلين على الله العلي:

إذا نحن نظرنا في هذه السورة العظيمة نجد انها تبدأ بقوله تعالى " لإيلاف قريش "، فنلاحظ أن السورة بدأت بحرف اللام، وهنا نتوقف لنسأل: ما هو مدلول اللام وما هو ارتباطه ؟

حرف اللام حرف يدل على العلة الغائية، أي أننا يمكننا فهمه بمعان

مثل " من أجل، بسبب ... إلخ "، فما هو ارتباطه في هذه السورة إذا كان هذا الحرف هو أول حرف في السورة ؟ فهل هو مرتبط بالآية التالية أم بالسورة السابقة أم غير مرتبط أم أنه متعلق بالسورة السابقة والآية التالية ؟!

اخُتلف في ارتباط هذا الحرف وعدم ارتباطه فقيل كما جاء في تفسير الفخر الرازي: " الأول: وهو قول الزجاج وأبي عبيدة أن التقدير: فجعلهم كعصف مأكول لإلف قريش أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف، .... الاحتمال الثاني: أن يكون التقدير: ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل لإيلاف قريش ... الاحتمال الثالث: أن تكون اللام في قوله: { لإيلاف } بمعنى إلى كأنه قال: فعلنا كل ما فعلنا في السورة المتقدمة إلى نعمة أخرى عليهم وهي إيلافهم: رحلة الشتاء والصيف " اهـ

والذي نراه نحن أن هذه اللام متعلقة بالسورة السابقة كما رجح الإمام الرازي وكذلك بالآية التالية لورود قوله تعالى " إيلافهم " وهذا من ترابط سور القرآن ببعضها وعلاقات أواخر السور بأوائل السور التالية ومن ينظر في هذا الأمر سيرى العجب العجاب بإذن الرب التواب! ومن الممكن القول أن اللام تدل على الغائية ولكنها غير مرتبطة بالسورة الماضية أي " من أجل إيلاف قريش جعلت رحلة الشتاء والصيف! "

إذن فكأن الله تعالى يقول " فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش". فإذا انتهينا من اللام وتعلقها ننتقل إلى قوله تعالى " إيلاف "، فما هو الإيلاف ؟

اختلف المفسرون في المراد من الإيلاف فقيل كما جاء في تفسير الرازي :

" ذكروا في الإيلاف ثلاثة أوجه أحدها: أن الإيلاف هو الإلف قال علماء اللغة: ألفت الشيء وألفته إلفاً وإلافاً وإيلافاً بمعنى واحد[61]، أي لزمته فيكون المعنى لإلف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعا، .... وثانيها: أن يكون هذا من قولك: لزمت موضع كذا وألزمنيه الله، كذا تقول: ألفت كذا، وألفنيه الله ويكون المعنى إثبات الألفة بالتدبير الذي فيه لطف ألف بنفسه إلفاً وآلفه غيره إيلافاً، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله وهو كقوله: { ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ } [الأنفال: ٦٣] وقال: { فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } [آل عمران: ١٣] وقد تكون المسرة سبباً للمؤانسة والاتفاق، كما وقعت عند انهزام أصحاب الفيل لقريش، فيكون المصدر ههنا مضافاً إلى المفعول، ويكون المعنى لأجل أن يجعل الله قريشاً ملازمين لرحلتيهم"[62] وثالثها: أن يكون الإيلاف هو التهيئة والتجهيز وهو قول الفراء وابن الأعرابي فيكون المصدر على هذا القول مضافاً إلى الفاعل، والمعنى لتجهيز قريش رحلتيها حتى تتصلا ولا تنقطعا"[63] ... " اهـ

فإذا كانت الأقوال التي أوردها الإمام الفخر الرازي في معنى الكلمة غير متطابقة معها، فما هو مدلولها إذن ؟ لتحديد المدلول تحديدا سليما نرجع إلى اللغة لنر ما هو اللفظ الأصلي المتطابق الذي أشتق منه الإيلاف ؟ وقبل هذا نعود إلى أصل معنى الإيلاف لنحدد المدلول المراد:

---

[61] بداهة هذا معتمد على قولهم بالترادف وعلى انهم لا يفرقون بين الكلمة المزيدة والمنقصة ويجعلونها كلها بمعنى واحد وهذا لا يُقبل ، فمصدر الف هو الإلف . إذا يمكننا استبعاد هذا الراي .

[62] وهذا من عجيب القول والتأليف (من الإمام الفخر الرازي ويقال فيه ما قيل في الأول (

[63] وهذا القول عجيب أيضا وفيه من التحوير ما لا يُقبل ، ويكفي في رده القول بأنه لا يأخذ اللفظ على ظاهره ومدلوله وإنما يجعله بمعنى كذا وكذا من أجل أن يستقيم المعنى .

فإذا نحن رجعنا إلى مقاييس اللغة وجدناه يقول :

" الهمزة واللام والفاء أصل واحد، يدلُّ على انضمام الشيء إلى الشيء، والأشياء الكثيرة أيضاً. قال الخليل: الأَلْفُ معروفٌ، والجمع الآلاف. وقد آلَفتِ الإبلُ، ممدودة، أي صارت ألفاً. قال ابنُ الأعرابي: آلَفْتُ القومَ: صيَّرتهم أَلْفاً، وآلَفْتهم، صيَّرتهم ألفاً بغيري، وآلفوا: صارُوا ألفاً. ومثله أخْمَسُوا، وأماؤوا[64]. وهذا قياس صحيح، لأنّ الألف اجتماع المِئين. قال الخليل: ألِفْتُ الشيءَ آلَفُه. والأُلْفَة مصدر الائتلاف. والإلْفُ والأليف: الذي تألفه. [و] كلُّ شيءٍ ضممتَ بعضَه إلى بعضٍ فقد ألّفته تأليفاً. ... " اهـ

إذن فالألف أصل يدلُّ على انضمام الشيء إلى الشيء، والأشياء الكثيرة أيضاً! فإذا نحن نظرنا إلى الأصل الذي أتى منه الـ " إيلاف " وجدناه هو " آلف " وهو بمعنى التصيير ألفا، والألف في اللغة تأتي بمعنى العدد المعروف وكذلك إشارة إلى الكثرة، فكما نعرف فإن الألف هو آخر الأعداد العربية ثم بعد ذلك يكرر فيقال ألف ألف وألف ألف ألف وهكذا! فيكون المراد والله أعلم أن الله فعل ذلك لتكثير قريش ألوفا مؤلفة .

قد يقول القائل: إن منهجك هو الالتزام بالنص، فلم أتيت هنا بالمعنى الثاني ولم تأخذ المعنى الأول ؟ نقول: هذا بسبب قوله تعالى " إيلافهم " حيث كرر الله تعالى الكلمة في الآية التالية، والتكرار ليس تكرارا فاقد المعنى وإنما هو إشارة إلى أن هذا هو المعنى المراد أي لتكثير قريش كثرة أو لتصيير قريشا ألوفا مؤلفة، وعلى كلا المعنين فإن المراد هو التكثير وهذا ما نقول به!

إذا المراد من الإيلاف هو التكثير عن طريق ضم الشيء إلى بعضه مع

---

[64] صاروا مائة .

وجود التوافق والتآلف بين المضموم والمضموم إليه، فإذا لم يكن هناك توافق لا يسمى تأليفا !. فإذا كان هو المراد من الإيلاف فما المراد من قريش ؟

سيتعجب القارئ عندما يسمع هذا السؤال لأن قريش كما هو معلوم بداهة هو اسم قبيلة الرسول الكريم .

نعم، نحن نعرف ونقر ان قريش هو اسم قبيلة الرسول، ولكن الأسماء المذكورة في القرآن لها دلالتها المستقلة حيث تتطابق مع الدور والغرض الذي جاءت من أجله على الرغم من كونها أسماء!!

فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول: "

القاف والراء والشين أصلٌ صحيح يدلُّ على الجمع والتجمُّع. فالقَرْش: الجمع، يقال تَقَرَّشُوا، إذا تجمَّعوا. ويقولون: إنَّ قُريشاً سمِّيت بذلك. والمُقَرِّشة السَّنة المَحْل، لأنَّ النّاسَ يضمُّون مواشِيَهم. ويقال: تقارَشَت الرِّماح في الحَرْب، إذا تداخَلَ بعضُها في بعض. ....." اهـ

وفي اللسان: القَرْشُ: الجمع والكسبُ والضم من ههنا وههنا يضم بعضه إلى بعض. ابن سيده: قَرَشَ قَرْشاً جَمَعَ وضمَّ من هنا وهنا، وقَرَشَ يَقرِشُ ويَقْرُشُ قَرْشاً، وبه سميت قُرَيش .... وقَرَشَ يَقرِش ويقرُش قَرْشاً واقْتَرَشَ وتَقَرّش: جَمَعَ واكتسب. والتَّقْريشُ: الاكتسابُ؛ قال رؤبة: أُولاك هَبَّشْتُ لهم تَهْبيشي قَرْضي، وما جَمَّعْتُ من قُرُوشي وقيل: إنما يقال اقْتَرَشَ وتَقَرَّشَ للأهل. يقال: قَرَشَ لأَهله وتَقَرَّش واقْتَرَش وهو يَقرِشُ ويقرُشُ لعياله ويَقْتَرِش أي يكتسب، .... وقيل: سميت بذلك لتَجْرِها وتكسُّبها وضَرْبها في البلاد تَبْتَغي الرزق، وقيل: سميت بذلك لأنهم كانوا أَهلَ تجارة ولم يكونوا أَصحابَ ضَرْع وزرْع من قولهم: فلان يَتَقَرَّشُ المالَ أي يَجْمَعُه؛ ....." اهـ

إذا فقريش اسم لقبيلة ولكنه أيضا متطابق مع مدلوله فهو يدل

على الضرب في الأرض والتجارة والاكتساب، وهذا هو الوصف الذي جاء في السورة لهذه القبيلة حيث أنها تتجر وتكتسب وتخرج ضربا في الأرض. فتأمل تطابق المعنى مع المراد الإشاري للاسم !

إذا فالله جعل من أجل تكثير وتأليف قريش مع بعضهم رحلة الشتاء والصيف، ومن المعروف أنه كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن لأن اليمن أدفأ وبالصيف إلى الشام! وكانوا يتجرون ويكتسبون في هاتين الرحلتين لأنهم أهل قرش!

ولي في مسألة رحلة الشتاء والصيف هذه قول آخر، حيث أرى أن المراد من رحلة الشتاء والصيف هو تلك الرحلة الكونية التي يقوم بها كلا من الشتاء والصيف في دورانهم وانتقالهم حول الأرض، فهما في رحلة واحدة يتبع بعضها بعضا وهذه رحلة زمانية تتكرر كل عام فلم ولن تنقطع إلى قيام الساعة.

والذي يرجح هذا القول هو قوله تعالى " رحلة " وأنه لم يقل " ارتحال "، والرحلة هي عملية الانتقال نفسها، كما أنه قال " رحلة " ولم يقل " رحلتي " ومن المعروف أن رحلتي الشتاء والصيف القريشيتين كانتا منفصلتين بخلاف رحلة الشتاء والصيف المتصلتين بالفصلين البينيين الخريف والربيع[٦٥] !

فإذا قيل فما وجه ذكر هذه الرحلة لقريش فهي للعالم كله ؟

---

[٦٥] من الممكن القول أن فصلي الشتاء والصيف متصلان ! فالناظر في التقسيم العربي القديم لفصول السنة يرى أن العرب كانت تسمي " الربيع " الصيف ، وتسمي " الصيف " القيظ ! حتى أنا نجد أن الأزهري يقول في معجمه تهذيب اللغة : " قلت: العرب تجعل السنة أربعة أزمان لكل زمان منها ثلاثة أشهر، وهي فصول السنة: منها فصل الصيف وهو فصل ربيع الكلأ، أوله آذار ونيسان وأيار، ثم بعده فصل القيظ ثلاثة أشهر: حزيران وتموز وآب، ثم بعده فصل الخريف، وهو أيلول وتشرين وتشرين، ثم بعدها فصل الشتاء وهو الكانونان وشباط." اهـ ، وعلى هذا القول يكون الصيف مباشرة بعد الشتاء كما ورد في الآية ! وإن كانت النفس تميل إلى أن المراد من ذلك هو ذكر أكثر الفصول تمايزا في العام كله بالنسبة للبشرية كلها .

نقول: نعم، هي للعالم كله ولكن الله تعالى يُذكر قريشا بنعمه عليهم، فيذكرهم بنعمة اختلاف المناخ حرا وشتاءا وكيف أن اختلاف المناخ هذا يساعد على إنبات ثمار وزروع وأطعمة مختلفة، كما يؤدي إلى اختلاف السلع وتنوعها، فلو ظل الناس في جو واحد لكانت هناك سلعة واحدة ثابتة لا تتغير متناسبة مع هذا الطقس الواحد! لذا فإن اختلاف الطقوس يؤدي إلى العمل ويقضي على الملل ويساعد على الانتاج، إلخ فوائد اختلاف الطقس والمناخ!

و نلحظ كذلك أن الله تعالى يذكر " رحلة " ولا يقول " الشتاء والصيف " هكذا مجردين، فيكون المراد من ذلك أيضا هو التركيز على الزمن وتغيره وتبدله ومروره وكيف أنه وعاء الزيادة والتكاثر. فالصيف يأتي وينقضي وكذلك الشتاء وبين كل انقضاء وانقضاء يزداد قريشا عددا !

إذا فالله يذكر قريش بعظيم نعمه عليهم وأنه هو الذي أوجدهم وكثرهم (ألفهم) كما أنه هو الذي أوجد لهم الزمان الذي يحدث فيه هذا، فهو خالقهم وخالق الوعاء الذي يتحركون فيه (الزمان) .

لذلك يأتي الربط المنطقي بعد ذلك وهو قوله تعالى " فليعبدوا "، فإذا كان الله هو الذي خلقهم هم وغيرهم وكثّرهم وأوجد لهم اختلاف الزمان وما فيه من فوائد وأهمية في التجارة والكثرة فمن الواجب عليهم أن يعبدوه! أما إذا قيل أن المراد من رحلة الشتاء والصيف هو تلك الرحلتين فالمعنى بعيد بعض الشيء !

" رب هذا البيت " ونلاحظ هنا أن الله تعالى قال " رب هذا البيت " ولم يقل " الله أو الرحمن " وذلك والله أعلم لارتباط السورة بالسورة الماضية حيث أراد أبرهة هدم البيت فحفظه الله وصانه، فعليهم أن يعبدوا رب هذا البيت. والذي هو أول بيت وضع للناس وبه شرف قريش

وعزهم .

ثم يواصل الله تعالى ذكر نعمه عليهم فيقول " الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " وهنا نجد ان الله تعالى يذكر أهم احتياجين من احتياجات الإنسان الأساسية وهما الطعام والأمن، حيث يجعل أن من توفر له هذان العنصران الأساسيان فعليه أن يقوم بالعنصر الثالث وهو " التقديس " والعبادة !

وبهذا يمكننا القول أن سورة قريش حوت ترتيبا عجيبا لحاجات الإنسان سبقت به ترتيب ماسلو المادي، حيث أتت بالركنين الأساسيين وهما الطعام (وهو الركن البيولوجي) والأمن (وهو الركن النفسي)، وجعلت التقديس ناتجا منطقيا لهما .

ونتوقف قليلا هنا لنناقش هرم ماسلو في مسألة الحاجات الإنسانية الرئيسة:

رتب ماسلو الحاجات الإنسانية على شكل هرم تمثل قاعدته الحاجات لفسيولوجية الأساسية وتتدرج تلك الحاجات ارتفاعا حتى تصل الى قمة الهرم حيث حاجات تحقيق الذات ولا يمكن الانتقال إلى حاجة أعلى قبل إشباع الحاجة الأقل وفقا للتقسيم الآتي:

أ. الحاجات الفسيولوجية: هي عبارة عن الحاجات الأساسية لبقاء حياة الإنسان وتمتاز بأنها فطرية كما تعتبر نقطة البداية في الوصول إلى اشباع حاجات أخرى وهي عامة لجميع البشر إلا أن الاختلاف يعود إلى درجة الإشباع المطلوبة لكل فرد حسب حاجته. وأهم هذه الحاجات هو المطعم، لأن الإنسان غير مزود به وإنما يحتاج إلى اكتسابه، بخلاف باقي الحاجيات الأخرى!

ب. الحاجة الى الأمن: يعتمد تحقيقها على مقدار الإشباع المتحقق من الحاجات الفسيولوجية فهي مهمة للفرد فهو يسعى إلى تحقيق

الأمن والطمأنينة له ولأولاده، كذلك يسعى إلى تحقيق الأمن في العمل سواء من ناحية تأمين الدخل أو حمايته من الأخطار الناتجة عن العمل.

ج . الحاجات الاجتماعية: إن الإنسان اجتماعي بطبعة يرغب إن يكون محبوبا من الآخرين عن طريق انتمائه للآخرين ومشاركته لهم في مبادئهم وشعاراتهم التي تحدد مسيرة حياته .

د - حاجات التقدير-: شعور العامل بالثقة وحصوله على التقدير والاحترام من الآخرين يحسسه بمكانته هذه الحاجة تشعر الفرد بأهميته وقيمة ما لديه من امكانات ليساهم في تحقيق أهداف المشروع.

هـ -الحاجة إلى تحقيق الذات-: أي تحقيق طموحات الفرد العليا في إن يكون الإنسان ما يريد إن يكون وهي المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى درجة مميزة عن غيره ويصبح له كيان مستقل.

إذا فماسلو جعل الترتيب كالآتي: الحاجات البيولوجية، الأمنية، الاجتماعي، الحاجة إلى التقدير، وإلى تحقيق الذات! ونلاحظ أنه أغفل تماما جزء العبادة والتقديس الذي لا يمكن أن يتحرر منه أي إنسان! حتى الملاحدة !

ونحن نرى أن الترتيب الذي أتى به القرآن هو الترتيب الصحيح المتكامل، فالإنسان يحتاج إلى الطعام ومن أجله قد يتنازل عن أمنه وحريته من أجل الحصول عليه وإلا سيموت، أما أن يتنازل الناس عن طعامهم من أجل أمنهم فهذا ما لايكون! إذا فالإنسان يحتاج إلى مطعم ومأمن ومقدس !

قد يرى البعض أن مسألة التقديس (العبادة) هذه غير متوفرة عند كل الناس فهناك الملاحدة وهناك الإلهيون وهناك وهناك! فيكون استدلالك غير صحيح. فنقول: ما من إنسان على وجه الأرض بدون

مقدسات وإلا فلن يتحرك قدر أنملة في هذه الحياة! فهناك من يقدس الأباء والأجداد ويفعله هذا يعبدهم[٦٦]، وهناك من يعبد الحزب وآرائه وهناك من يعبد العلمانية، وهناك من يعبد الماركسية وهناك من يعبد العمل إلخ أصناف العبادة.

إذا فحاجات الإنسان الأساسية ثلاثة وهي المطعم والأمن (عبر الأسرة أو الدولة أو القبيلة) ثم التقديس، وما بخلاف ذلك فهو مختلف من فرد إلى آخر!

فانظر أخي في الله كيف احتوت هذه السورة على جماع حاجات الإنسان في ترتيب بديع منطقي يربطه بعنصر آخر من احتياجاته وهو الارتباط بالتاريخ وبالأصول، فعامة الناس يجلون تاريخهم ويجعلون له المكانة الكبرى، لذلك أتى هذا التعريف في هذا السياق ليضيف إليها عنصرا آخرا وهو الارتباط الجذور.

نقد تاريخانية السورة :

السورة وإن كانت تعرض لقبيلة قريش، ولكنها تعرض لها من باب أنها المتلقي الأول للوحي ومنبت الرسول ومحل بيت الله الحرام وهذه مواصفات لم تجتمع في أي مكان أو زمان آخرين لذا فهي تستحق الذكر، وهي في عين الوقت نموذج ومثال لكل مجتمع إنساني يتقرش (يكتسب)! والمجتمعات الإنسانية متقرشة لا محالة وإلا فهي هالكة! فعلى كل مجتمع إنساني أن يتذكر نِعم الله عليه ويخالف ما قامت به قريش ويفعل ما أمر به الله عزوجل .

---

[٦٦] المشكلة أن كثير من الناس لا يتصور العبادة إلا سجودا وركوعا ! ومن هؤلاء الملاحدة ، فعندما نقول لهم انتم تعبدون اهوائكم ، يقولون : انتم لا تفهمون إلا العبادة والخضوع ! والمشكلة انهم انفسهم لا يفهمون معنى العبادة .

وبهذا نرى أن السورة بيان عظيم للناس قائم على التجريد والتذكير بالنعم والدعوة إلى التقديس لله وعبادته من خلال ضرب الأمثال والنماذج. فهل رأى الملحدون فيها هذا أم أنهم لا يرون ولا يسمعون ؟!!

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

نبدأ اليوم في تناول سورة التكاثر، وهي سورة يشعر معها القارئ أنها مشهورة الألفاظ غامضة المراد، فما هو مغزاها وما هي رسالتها ولم التكرار فيها ؟ لذا نتناول هذه السورة محاولين أن نستخرج منها الصورة العامة الشاملة التي احتوت حياة الإنسان وسلوكه على وجه هذه البسيطة! لنوضح أن السورة على صغر مبناها عظيم وجليل هو معناها وجد هام للإنسان، لأن السورة تمثل رسالة تحذير من رب البرية إلى خلقه من البشر! لذا لنبدأ مع هذه الرسالة لنر ماذا يقول الرب القدير للعبد الغافل :

التقسيم العام للسورة :

الناظر في السورة يجد أنها ذات فاصلة رائية نونية مكرورة ثم فاصلة نونية ميمية نونية مكرورة في المقطعين الأخيرين للسورة .

سورة التكاثر مبنية من ثمان آيات، وهي أربعة مقاطع، كل مقطع مكون من آيتين إثنتين. فالمقطع الأول " ألهاكم التكاثر حتى زرتم

المقابر " والمقطع الثاني قوله تعالى " كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون " والمقطع الثالث قوله تعالى " كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم " والمقطع الرابع والأخير هو قوله تعالى " ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم " .

المنظور العام للسورة:

السورة ذات منظور جد واضح لكل ذي عينين فالناظر يجد أنها رسالة تنبيه من الله عزوجل للبشر فهي تنبههم أن ناتج وعارض دورهم في الحياة وهو التكاثر قد ألهاهم عن دورهم الرئيس في الحياة وعن الموت والدار الآخرة حتى أن زيارة المقابر أصبحت من اللهو! ثم ينبأهم الله عزوجل أن هذا اللهو وهذه الغفلة مرفوعة وسيحدث للإنسان ما يرفع لهوه وسيكون ذلك العلم بالقرآن وعند الموت أو يوم القيامة ثم يخبر القرآن أن الناس لو علموا علم اليقين الخارج من القرآن لرأوا الجحيم رؤية عقلية تجعلهم يوجهون حياتهم توجيها صحيحا مناسبا لدورهم في الحياة، ولكن هذا لا يحدث للأسف البالغ. لذا فالله تعالى يخبرنا أنه حتى لو لم نرها في الدنيا فسنرها في الآخرة مطابقة لما ورد في القرآن وفي هذا اليوم سنُسأل عن النعيم، لذا فليكن تحركنا من أجل النعيم تحركا محكوما بضوابط الله عزوجل وليس من أجل النعيم لنفسه فقط! فهل انتبه الناس ؟ للأسف لا يزال الناس لاهين، وبهذا يصدق الوصف القرآني إلى قيام الساعة " ألهاكم التكاثر " !

ونبدأ في تناول السورة الكريمة متكلين على الرب العليم :

إذا نحن نظرنا في خاتمة السورة الماضية لهذه السورة سنجد أنها تنتهي بقوله تعالى " نار حامية " ثم تبدأ هذه السورة بقوله تعالى " الهاكم التكاثر " فكأن الله تعالى يقول للبشر: ليست هذه النار

الحامية عبثا أو ظلما فلقد ألهاكم التكاثر!

تبدأ السورة بقوله تعالى " ألهاكم التكاثر " ونلاحظ أن الخطاب في هذه الآية أتى بصورة الماضي في صيغة خبرية عامة لم يحدد من المخاطَب بها، فيُعمم الخطاب إلى البشرية كلها في كل الأزمنة وليس في زمان واحد! وهو خبر صادق صدّقه ويصدقه وسيصدقه الواقع، فما من إنسان إلا وهو مشغول بشكل من أشكال التكاثر لا محالة! وكلمات هذه السورة كلها معروفة ومفهومة للعوام وللخواص فليس في السورة كلمة واحدة غامضة أو مما قد يغفل عنه الإنسان، ولكنا على الرغم من ذلك نقوم بالتعرض للكلمة من باب إعطاء القارئ المعنى الجامع للمفردات، فنقول:

" لهو " كما جاء في المقاييس: اللام والهاء والحرف المعتلّ أصلانِ صحيحان: أحدهما يدلُّ على شُغْل عن شَيء بشيء، والآخر على نَبْذِ شيءٍ من اليد. فالأوَّل اللَّهْو، وهو كلُّ شيءٍ شَغَلك عن شيء، فقد ألهاك .... " اهـ

والكثرة أصل صحيح يدل على خلاف القلة !، والتكاثر صيغة تفاعل من كثر وهي صيغة تدل على الاشتراك والتداخل بين الأطراف في فعل الشيء!

فإذا نحن نظرنا في الآية وجدنا أن التكاثر ورد هكذا مطلقا بدون تحديد فلا ينبغي علينا أن نحدده نحن بل نتركه كما هو مطلقا، فيدخل تحته أي شكل من أشكال التكاثر الدنيوي التي يتحرك من أجلها البشر! فسواء كان تكاثرا في المال أو العيال، وهذان هما أكثر ما يصدق عليهما التكاثر لاحتياج المكاثر فيهما إلى غيره لا محالة بخلاف أي شكل آخر من أشكال التكاثر والتي قد يستكثر فيها الإنسان بنفسه!

ومما يعجب منه المرء ما أورده المفسرون في تفسيرهم لمعنى التكاثر،

فنجد أنهم أوردوا احتمالات لهذا المعنى لا تتناسب مع السياق بأي حال مثلما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره حيث قال:

" والتكاثر التباهي بكثرة المال والجاه والمناقب يقال: تكاثر القوم تكاثراً إذا تعادلوا مالهم من كثرة المناقب، وقال أبو مسلم: التكاثر تفاعل عن الكثرة والتفاعل يقع على أحد وجوه ثلاثة يحتمل أن يكون بين الإثنين فيكون مفاعله، ويحتمل تكلف الفعل تقول: تكارهت على كذا إذا فعلته وأنت كاره، وتقول: تباعدت عن الأمر إذا تكلفت العمى عنه وتقول: تغافلت، ويحتمل أيضاً الفعل بنفسه كما تقول: تباعدت عن الأمر أي بعدت عنه، ولفظ التكاثر في هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه كم من إثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه: { أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً } [الكهف: ٣٤] ويحتمل تكلف الكثرة فإن الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله، واعلم أن التفاخر والتكاثر شيء واحد ونظير هذه الآية قوله تعالى: { وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ } [الحديد: ٢٠]. " اهـ

أما مسألة أن التكاثر بمعنى الكثرة فقط فمردودة بداهة لأن هناك فارق في المبنى بين الإثنين لذا فلا اعتبار لهذا القول، وأما مسألة أن التفاعل بمعنى التكلف فقول مُتكلف! لأن الله تعالى يقول أن التكاثر ألهانا والشيء الذي يلهي يكون موافقا لطبيعة الإنسان حتى أنه يلهيه عن غيره من الأشياء بخلاف الشيء المُتكلَف!

إذن فالله تعالى يخبرنا في هذه الآية بجانب نفسي عظيم من جوانب النفس الإنسانية، وهو أن الاستكثار مما جبل عليه الإنسان في طبعه! ونجد هذا الطبع في الطفل الصغير قبل الرجل الكبير! فنجد أن الطفل على الرغم من أنه قد يكون في يده لعبة أو لعبتان إلا أنه يريد أن يأخذ اللعب الأخرى الموجودة مع باقي الأطفال أو يريد أن يجمع باقي اللعب

الموجودة والمتناثرة في الغرفة لتكون تحت يده. فالتكاثر مما فطر الله الناس عليه، لأن الإنسان يشعر في ذاته دوما وأبدا بالنقص فيحاول أن يجبر هذا النقص لا شعوريا عن طريق الاستكثار مما قد يتملك، عله يجبر نقصه وأنى له هذا! ويدخل تحت هذه الآية كل أشكال وتحركات الإنسان منذ أن وجد على ظهر هذه البسيطة، فالإنسان يريد أن يتكاثر فيبحث عن المرأة والعيال ويريد أن يزيد ماله فيتجر ويريد أن يصير ذا منعة فيبحث عن الأعوان والأصدقاء والمعارف ويريد أن يزيد قوته وعافيته عن طريق منع أسباب المرض! ويريد أن يزيد من علمه الدنيوي، وبهذا نجد أن هذه الآية شملت كل ما يقوم به الإنسان منذ مولده إلى موته لا يخرج عنها قدر أنملة، فالإنسان في رحلة تكاثر[٦٧]، وإن لم يكن مكاثرا في أي مجال كان إنسانا خاملا لا غرض له في هذه الحياة!

وهنا نسأل: عما ألهانا التكاثر ؟ نلاحظ أن القرآن لم يذكر صراحة مفعولا ل " ألهى " على الرغم من كونه متعديا، وإنما جعل باقي السورة دليلا جليا على المفعول المتروك، فوضّح حال الإنسان وفعله بآيتين ثم رد عليه كيف سيكون حاله وكيف ينبغي أن يكونه بباقي السورة!

إذا فلقد جعلنا التكاثرُ لاهين غافلين مشغولين، ولكن إلى أي درجة وصلت هذه الغفلة ؟ يوضح القرآن لنا في قوله تعالى "حتى زرتم المقابر" أن درجة غفلتنا عن الآخرة وصلت إلى أننا زرنا المقابر! والمعنى المتبادر إلى الذهن من زيارة المقابر هو زيارة المقابر! ولكنا نجد أن بعض السادة

---

[٦٧] ذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره ان التكاثر مذموم فقال : " الآية دلت على ان التكاثر والتفاخر مذموم والعقل دل على ان التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم " اهـ ولست ادري صراحة اين دلت الآية على ان التكاثر مذموم ، الآية تتحدث عن *ملهاة التكاثر* لنا ، لا ان التكاثر في حد ذاته مذموم ، فإذا انت كاثرت كما يحلو لك ولم يلهك ذلك عن غايت حياتك وعن الآخرة كان ذلك محمودا بل مأمورا به ! فاين ذم التكاثر في الآية ؟!

المفسرين ذكروا أن المراد من زيارة المقابر هو الموت! وقالوا أن في هذا المعنى إشارة بديعة من القرآن فالإنسان عندما يموت ويدخل القبر لن يستقر فيه ولكنه سيبعث مرة أخرى وسيخرج منه، فيكون على طول استقراره فيه زائرا حتى تقوم الساعة فيكون فيها دار القرار! وهنا نتوقف لنرجح أي المعنيين هو المراد في هذه الآية :

أول ما يلحظه المرء في هذه الآية أن الآية استعملت لفظ المقابر بدلا من القبور، وهذا اللفظ لم يستعمل إلا في هذه السورة فقط، فهو لم يرد في القرآن كله إلا مرة واحدة وما عدا ذلك وردت لفظة " قبور" وهي خمس مرات في القرآن كله:

" وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ [الحج: ٧]، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ [فاطر: ٢٢]، " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ [المتحنة: ١٣] "

" وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ [الإنفطار: ٤] "، " أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ [العاديات: ٩] "

إذا مع الأموات استعمل " قبور " وهنا استعمل كلمة أخرى فيكون المراد مختلفا! فلقد نسب الله عزوجل الفعل حقيقة الى فاعله وهو المخاطَب وهو بنو الإنسان! فلم نجعله من باب المجاز؟! فالإنسان الميت لا يزور القبر وإنما يُدخل فيه ويُحمل إليه. ثم كيف ننزع نحن هذه الكلمة من السياق ونقول أن المراد من الخطاب في أول السورة هو كل البشرية أما في هذه الآية فالمراد منها من مات منهم! فما الدليل على التخصيص ؟ لا دليل على ذلك، بل إن الآية التالية تعود فتخاطب نفس المخاطبين في الآيتين الماضيتين فتقول " كلا سوف تعلمون "،

فهل هذا الخطاب في هذه الآية والآيات التاليات إلى آخر السورة للأموات والأحياء أم أنها للأحياء فقط ؟ بداهة هو للأحياء فقط !

ثم إن السياق العام يوجب أن يكون الفعل الموصوف به الإنسان على سبيل المبالغة في اللهو والغفلة هو من فعل الإنسان، أي أنكم اي البشر غافلون لدرجة أن المقابر أصبحت مزارات بالنسبة لكم! أما أن يقال: ألهاكم التكاثر حتى متم كلا سوف تعلمون! فلا يستقيم المعنى بحال، ثم إن الفعل الوارد في الجملة هو فعل ماض مخبر عما حدث من الإنسان فعلا، فكيف أخاطب الإنسان بفعل لمّا يحدث له بعد بصيغة الماضي ؟ فيصبح هذا الخطاب مثل قولي لمن لم يدخل الامتحان بعد: ألهاك اللعب حتى أنك رسبت!

إذا فهناك قبور وهناك مقابر، وبداهة ليس الإثنان واحدا، فليست المقبرة هي القبر حتى تكون المقابر هي القبور، ولم يستعمل القرآن هنا "مقابر " بدلا من قبر من أجل الفاصلة ولكن استعملها من أجل مناسبة المعنى! فالمقبرة هي مجتمع القبور، أما القبور فقد تكون أي عدد من القبور كثيرا كان أو قليلا!

إذا فالقرآن يخبرنا أن التكاثر ألهانا لدرجة أن المقابر – وهي الأماكن التي يوجد فيها عدد كبير من الأموات والقبور - أصبحت مكانا للزيارة وأصبحت تزار ونحن لاهون! فلم يعد الموت دافعا لنا إلى التفكر في الآخرة وإنما أصبح حالة عادية! وحدثا مألوفا في حياة الإنسان لا ينشغل به باله، فكل إنسان مشغول بتكاثره ويظن أن الموت لن يأتيه أو أنه سيكون استثناء، ولكن الموت يأتي الجميع فينهي هذا التكاثر وتبدأ مرحلة التفتت والانحلال والإضمحلال!

وبعد أن وضح الله عزوجل حال الإنسان تجاه الآخرة والموت بدأ في التحذير والتنبيه فقال: " كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون "

وهنا نتوقف لنسأل: ما هو تعلق " كلا " ؟ تعلق " كلا " هو بقوله تعالى " ألهاكم "، فالله تعالى أخبر البشر أنهم لاهون غافلون لدرجة كبيرة ثم يخبرهم معترضا أن هذا اللهو ليس إلى ما لا نهاية وأن هذه الغفلة لن تستمر، فقال لهم: كلا سوف تعلمون! أي أن هذه الغفلة عن حال الإنسان وغايته في الدنيا وكذلك الغفلة عن الآخرة لن تستمر بل ستُرفع وسيعلم الإنسان كيف هو حاله في الدنيا وكيف هي الآخرة! ثم عاد الرب العليم فكرر وقال " ثم كلا سوف تعلمون " فأفادت هذه الآية تكرر حدوث العلم للإنسان، فليس المراد من الآية التأكيد على حدوث العلم، وإنما تفيد أن هذا العلم سيحدث مرة أخرى مفصولا بفاصل زماني عن الحدوث الأول لاستعماله سبحانه وتعالى " ثم ".

فنخرج من هاتين الآيتين أن الله تعالى يخبر البشر أنهم لن يظلوا هكذا ملهين بهذا التكاثر وأنه سيُعلمهم بما يكشف عنهم هذا اللهو، وهذه السورة مكية والمرء يجزم بدون علم تاريخ نزولها أنها من أول ما نزل من القرآن، فهي تعد بأن الله سيكشف هذا الإلهاء وأن هذا الكشف سيتكرر وهذا ما حدث فعلا، فنزل القرآن وتتابع حتى أتمه الله وعرّف به البشر مراد الله عزوجل منهم فكان هذا أول علم، وبالنسبة لنا فأول علم يكون ويحدث مع قراءة القرآن أما العلم الآخر الذي سيحدث بعد فترة فهو إما عند الموت أو يوم القيامة! وبذلك يتحقق العلم! وقيل أن المراد من ذلك أن الحدوث الأول سيكون عند الموت والثاني يوم القيامة! ولكن هذا القول بعيد، فلو كان المراد من العلم الأول هو حدوثه عند ساعة الموت فلا فائدة منه ولا من تكراره فإن الإنسان ميت ثم بعد ذلك مبعوث ليحاسب، فماذا ينفعه العلم إذا في الارتفاع عن هذا الالتهاء ؟ لا يفيده في شيء، أما مع القول بأن المراد من العلم الأول هو العلم عن طريق القرآن وأن العلم الثاني يكون عند الموت أو البعث فيجده مطابقا

للقرآن فيكون هناك فائدة من العلم !

ثم ينتقل الله عزوجل إلى مقطع آخر وهو قوله " كلا لو تعلمون علم اليقين " ونسأل مرة أخرى: ما هو متعلق " كلا " في هذه الآية ؟

قال المفسرون أن متعلقها هو نفس متعلق ما قبلها، إلا اننا نرى أن متعلق " كلا " في هذه الآية هو قوله تعالى " كلا سوف تعلمون " الأولى، فكما قلنا أن الله أعلم البشر عن طريق قرآنه حالهم وما ينبغي أن يكونوا عليه وكيف هي الآخرة والعقاب والثواب إلخ ما أعلم الله به في القرآن! فيقول لهم هنا: إن علمكم هذا ليس هو من باب العلم الكامل المتيقن بل هو علم لم يصل إلى مرحلة اليقين بعد، فأنتم علمتم ما في القرآن أو علمتم ما سيكون في القيامة ولكنكم لم تتيقنوا منه بعد! فلا يزال لديكم بواقي شك في هذه المسائل واليقين هو زوال الشك .

وهنا نتوقف لنسأل: ما المراد من علم اليقين ؟

اختلف السادة المفسرون كالعادة في هذا الأمر، فقالوا كما أورد الإمام الفخر الرازي في تفسيره:

" وجهان أحدهما: أن معناه علماً يقيناً فأضيف الموصوف إلى الصفة، كقوله تعالى: { وَلَدَارُ الأخرة } [يوسف: ١٠٩] وكما يقال: مسجد الجامع وعام الأول[٦٨] والثاني: أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة، وقد سمي الموت يقيناً في قوله: { واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين } [الحجر: ٩٩] ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين، وزال الشك فالمعنى لو تعلمون علم الموت[٦٩] وما يلقى الإنسان معه وبعده في القبر

---

[٦٨] بداهة ليس هذا هو مراد الله عزوجل لأنه لم يقل : علما يقينا ! وإنما قال : علم اليقين !

[٦٩] وهذا قول عجيب أعجب من سابقه ، ولست أدري كيف يعلم الإنسان علم الموت ! هل هذه جملة ذات معنى مفيد ؟!

وفي الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله، وقد يقول الإنسان: أنا أعلم علم كذا أي أتحققه، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب، لأن العلوم أنواع فيصلح لذلك أن يقال: علمت علم كذا ."
اهـ

فإذا رأينا أن الوجهين الذين ذكرهما الفخر الرازي لا يتفقان مع الآية، نعود فنسأل: ما المراد من علم اليقين ؟ نقول: نلاحظ أن الله تعالى أخبر أننا سوف نعلم، وكرر هذا الخبر، ثم عاد فأخبرنا أننا لو علمنا علم اليقين ؟ فهذا يعني أننا لا نعلمه، فما هو هذا العلم اليقيني؟

علم اليقين هو لا محالة القرآن الكريم! فالناظر يعرف بداهة أن العلم الوحيد الذي يحتوي اليقين من حيث صحته وثبوته وثباته هو القرآن الكريم فكل ما جاء فيه هو من اليقين لذلك فهو علم اليقين!

إذا فالله تعالى يخبرنا أننا لو علمنا علم اليقين الذي هو القرآن " لترون الجحيم " والعجيب أن السادة المفسرين متفقون أو يكادون على أن جواب " لو " محذوف وليس هو " لترون الجحيم "، وهذا مبني على تأصيلهم الفاسد بوجود محذوف في القرآن، وتمحكاتهم من أجل إثبات هذا المحذوف ولكنا لا نقول بوجود أي محذوف في القرآن، لذا فإنا نقول أن الجواب هو " لترون الجحيم " أي أننا لو علمنا علم[٧٠] اليقين لرأينا الجحيم، أي أن القرآن لو أثر فينا حق التأثير وآمنا به حق الإيمان لرأينا الجحيم! وهنا نلحظ أن الله تعالى قال " لترون الجحيم " ولم يقل " لترون الجنة " مثلا ؟ فلم ؟ هناك من يقول: إن في هذا إشارة إلى أن من عَلم عِلم القرآن رأى الدنيا على حقيقتها ورأى فيها جحيما

---

[٧٠] العلم كما جاء في المقاييس : " العين واللام والميم أصلٌ صحيح واحد، يدلُّ على أثرٍ بالشيء يتميَّزُ به عن غيره .من ذلك العَلامة، وهي معروفة. يقال: علَّمت على الشيء علامة. " اهـ

حاجبا للإنسان عن الجنة وعن الله عزوجل وأن النعيم الحقيقي هو في الجنة عند الله عزوجل، لذلك قال: لترون الجحيم! ولا يعني هذا أن الدنيا شر وإنما لأن الإنسان مهما كان مُنعّما في الدنيا فهو مقارنة بما في الجنة هو في جحيم، فالدنيا مليئة بالمصاعب والمتاعب والمشاق فهي جحيم، لذلك ورد في الحديث " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " فالدنيا جحيم مرفوع يوم القيامة إما إلى الجحيم الحقيقي أو إلى النعيم المدام !

وأنا أرى والله أعلم أنه خص الجحيم بالذكر لأن الإنسان الذي يعلم علم اليقين يرى الجحيم عقلا (والرؤية صنفان بصرية وعقلية) ماثلا أمام عينيه في كل فعل يفعله أو قول يتفوهه من خلال وصفها في القرآن الكريم ويعلم كم هي عقاب أليم شديد للغافلين فيكون كل همه هو النجاة منها فيبتعد عن الغفلة واللهو، والناس في حياتهم يطبقون مبدأ " دفع المفاسد مقدم على جلب المنافع " بدون أن يعرفوا، لذلك فإن هَمّ الإنسان العالم علم اليقين أن يبعد عن الجحيم، كما أن الجحيم هي المناسبة للموقف التالي الذي سيذكره الله تعالى لنا في آخر السورة . ثم ينتقل الله عزوجل إلى موقف آخر يوضح لنا فيه أن ما رأيناه عقلا في الدنيا (إذا علمنا علم اليقين ولم نكن من اللاهين الغافلين) سنراه في الآخرة حقيقة ماثلة أمام أعيننا، لذلك قال لنا " ثم لترونها عين اليقين "، وكما قلنا فإن علم اليقين هو ما ورد في القرآن ونحن رأينا الجحيم في القرآن بأوصاف معينة وسنأتي يوم القيامة فنجد الجحيم هي عين اليقين، والمعنى المراد من العين هنا بداهة هو " نفس " كما نقول: هو عين الشيء أي نفسه! أي أننا سنرى الجحيم يوم القيامة هي عين اليقين أي نفس ما ورد في القرآن وكما رأيناها بعقولنا في الوصف القرآني، فلا شك فيها ولا جدال. وفي هذا اليوم العظيم بعد أن نرى الجحيم عين اليقين عيانا كما جاءت في

القرآن يكون حدث آخر وهو قوله تعالى " ثم لتسألن يومئذ عن النعيم " أي أنكم أيها الناس - كل الناس وليس المسلمين أو الكافرين فقط - المسكثرون اللاهون الغافلون مسؤولون يوم القيامة وأنتم ترون الجحيم عن النعيم، وليست في الآية أي إشارة أو ذم للنعيم وإنما كل ما هنالك أن الله تعالى يقول أننا سنسأل عن النعيم، فإن كان من حلال فلا حرج وإن كان غير ذلك ففيه كل الحرج! وفي هذه الآية يشير الله تعالى بقوله " النعيم " إلى " التكاثر " المذكور في أول السورة، ففي أول السورة أعلمنا أن التكاثر ألهانا وفي آخر السورة يخبرنا أننا مسؤولون عن النعيم، فليكن فعلنا للتكاثر مُرتَهن بأننا سنُسأل عنه يوم القيامة فليس هذا الأمر هكذا متروك وإنما له عاقبة وسؤال وعقاب، فمن عرف العقاب أحسن العمل أما من أمن العقوبة فيسيء الأدب .

الوحدة الموضوعية للسورة :

لا أعتقد أن أحدا يشكك في الوحدة الموضوعية للسورة، فالسورة رسالة تنبيه من أولها إلى آخرها، تنبيه إلى اللهو والغفلة عن الدور الحقيقي للإنسان في الحياة وتنبيه إلى أن الإنسان معرض عن العلم على الرغم من تحقق حدوث هذا العلم وتنبيه إلى أن تحقق العلم مؤدي إلى تغير نظر الإنسان إلى الحياة فيقبل على الآخرة، وفي آخر الرسالة تأكيد على أن ما جاء فيها حق واقع سيراه الإنسان حيث يحاسب على لهوه هذا .

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى إخوته من الأنبياء البررة الأطهار، أما بعد :

فسنتناول اليوم بإذن الله وعونه سورة عظيمة وهي سورة التين، وهي كما يبدو من أسلوبها مكية وهذا ما تؤيده الروايات. وسورة التين ولله الحمد والمنة معروفة المعاني والمباني فلم تغمض منها مفردة واحدة على القارئ، ولكنا وجدنا بعض أعداء الإسلام يستهزؤن بهذه السورة زاعمين أنها سورة سطحية المعاني ساذجتها، خاوية الدلائل والآيات التي تدل على سماوية مصدرها، لذا ارتأينا بإذن الله تعالى أن نتناول هذه السورة الكريمة التي تعرض لقضية جد هامة في الفكر الإنساني ولكن الناس عنها غافلون، متكلين على الرب القدير لنعرض ما يفتح الله تعالى به علينا. فعلى الله الاتكال: بسم الله الرحمن الرحيم

تقسيم السورة :

تبدأ السورة الكريمة بأربعة أقسام متواليات في ثلاث آيات متتاليات

يتبعها المقسم عليه في ثلاث آيات أخر، ثم تعليق من الله عزوجل على موقف الإنسان من الدين في آيتين إثنتين، ويمكننا القول أن السورة مبنية على الترتيب التنازلي فقد أقسم بأربعة أقسام على مقسمين عليهما، أي أن هناك أربعة أقسام ومقسمان عليهما وردّان " تعليقان " من الله عزوجل على موقف الإنسان تجاه الصنفين المُقسم عليها. والسورة كلها تنتهي بالنون ما عدا الآية الرابعة فانتهت بالميم، ولو كان الأمر مجرد فواصل وسجع لكان من الممكن أن يقال " في أحسن تكوين " ولكن لكل لفظ معنى يؤديه في سياقه .

المنظور العام للسورة :

الناظر في سورة التين يجد أنها تتناول قضية هامة وهي شكل العلاقة بين الله عزوجل والإنسان، فتوضح أن الله لم يتخل عن خلقه وأنهم ليسوا من الأشياء التي قد لا يهتم بها الله تعالى! وكذلك ترد على من يدعي أن الله عزوجل كريم وأكبر من أن يعذب خلقه، ثم تتعجب من دافع الإنسان للتكذيب مع إقراره بحكمة الله تعالى ؟ وعنايته له منذ نشأته !

ونبدأ في تناول السورة متكلين على الله الواحد:

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ السورة بقوله تعالى " والتين والزيتون ": إذا فالله تعالى يقسم بالتين والزيتون، والتين والزيتون معروفان لكل الناس. ولقد تحير المفسرون من هذا القسم، فالله لا يقسم إلا بما هو نفيس وعزيز ذو فضل ونعمة سابغة على الإنسان، فيُذكّره الله تعالى بفضله عليه من خلال هذا القسَم الذي لا يستطيع أي إنسان أن يتجاوزه في حياته. فإذا نحن تعرضنا للتين وللزيتون وجدنا أنهما نبتان مثل غيرهما من

النباتات، وأنا أعرف أن السادة المفسرين قد أخذوا في تفصيل فوائد وأهمية نبتة التين والزيتون الصحية والبدنية بالنسبة للإنسان والبناء الإعجازي للنبتتين وكذلك أوجه التشابه والاختلاف بين النبتتين من كون أحدهما صيفية والأخرى شتوية أو إحداهما فاكهة حلوة والأخرى مرة، أو أن أحدهما تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ... إلخ هذه الأوصاف التي تتوفر في كل نبتة منهما[٧١]. ولكن لنا أن نتوقف لنسأل: ألا يوجد بعض البشر ليس لهم أي علاقة بالتين أو الزيتون، بل هناك من لم يأكل التين أو الزيتون في حياته ؟ ويغض النظر عن كل هذا فإن الإنسان عندما يسمع القسم بالتين والزيتون لا يرى فيهما شيئا عظيما، ونحن نُقر أنه ربما يكون الله تعالى بقسمه بهما مجتمعين يريد أن ينبهنا إلى علاقة بينهما أو أمر هام يحدث عند اجتماعهما أو إلى ضرورتهما، ولكن كما قلنا فالتين والزيتون في فكر الإنسان ليسا بالأمرين الخطيرين، فهل يقسم الله تعالى بما ليس عظيما وذا فضل سابغ على الإنسان ؟

من أجل هذا حاول بعض المفسرين أن يقولوا أنه ليس المراد من التين والزيتون هما النبتتين المعروفتين وإنما المراد منهما الإشارة إلى أشياء أخرى، فقالوا :

هما جبلان في الأرض المقدسة، يقال لهما: بالسريانية طور تيناً، وطور زيتاً فقسم الله إشارة إليهما، وقيل أنهما إشارة إلى مساجد مختلفة وقيل أنهما إشارة إلى أماكن أنبياء مشتهرين بعثوا في هذه المناطق، فالتين إشارة إلى الشام مبعث كثير من أنبياء بني إسرائيل، والزيتون إشارة إلى فلسطين مبعث عيسى عليه السلام. وقيل أن التين

[٧١] مما ينزع الإنسان من تدبر الكتاب ويشعره أنه في كتاب علوم !

إشارة إلى بوذا[72]، وقيل أن الزيتون إشارة إلى النور والوحي الإلهي كما جاء في قوله تعالى في سورة النور " اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [النور: ٣٥] "

ولكن لنا أن نتوقف هنا لنسأل :

لم الحديث عن الفهم الإشاري للنص لم لا نأخذ النص على ظاهره، أليس هذا هو الأولى حتى لا يُتقول على الله بما لم يقله ؟

نقول: نعم، الأولى الأخذ على الظاهر ونحن أخذنا به، ولكن السورة تحتم علينا أن نجعل القسم بالتين والزيتون من باب الإشارة، وتتبع معي السورة فستعلم أن المسلك الذي سلكه المفسرون هو المسلك السليم الواجب في تعاملهم مع القسَم الأول، وليس أنه محاولة جوفاء من علماء المسلمين لتفخيم المقسم به! فإذا نحن نظرنا في المقسمين بهما بعد هذا القسم وجدنا قوله تعالى " وطور سينين وهذا البلد الأمين " وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه[73]، والبلد الأمين هي مكة بلد البيت بلا خلاف، فما هو الرابط بين هذه الأشياء ؟ يُفترض فيمن يقسم بأقسام مختلفة على مقسم به أن تكون هذه الأقسام مرتبطة، فما هو وجه الترابط بين هذه الأقسام ؟ لا يوجد وجه صريح للترابط إلا القول بأن التين والزيتون أيضا إشارة إلى أنبياء

[72] يرى بعض الباحثين ان بوذا كان نبيا من أنبياء الله الصالحين ولكن رسالته حُرفت بعد وفاته كما حُرف كثير من الأديان ، ولقد بدأت الحكمة مع بوذا أو تلقي الوحي ! عندما كان جالسا تحت شجرة التين ! فيكون التين إشارة إلى بوذا والزيتون إشارة إلى عيسى .

[73] بغض النظر عن مكان جبل الطور ، فسواء كان في سيناء المصرية أو في فلسطين في القدس والمعروف بجبل الزيتون أو هو جبل ممدود من مصر إلى ايلة أو حتى في الأردن في جبال البتراء كما يرى بعض الباحثين ، فالمتفق عليه أن طور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه .

كما أشار طور سينين إلى موسى والبلد الأمين إلى الكعبة والرسول الخاتم! فيكون القول بأن التين والزيتون إشارة إلى الأنبياء مثل الآيتين التاليتين ليس من باب التكلف بل هو المفترض .

قد يقول قائل: هذه محاولة منكم أيها المسلمون من أجل أن توفقوا بين الفوضى التي أتى بها محمد، نريد دليلا قاطعا !

فنقول: المسألة ليست محاولة توفيق أو تلفيق بل هو النص الحاتم بذلك، أما الدليل القاطع على وجود الإشارة في قوله تعالى " والتين والزيتون " فهو قوله تعالى " فما يكذبك بعد بالدين " فالله تعالى بعد أن تكلم عن حال الإنسان، خاطبه قائلا: فما يكذبك بعد بالدين ؟ فيفترض أن يكون ما سبق من المقسم به من الدين، حتى يُفرّع الله عليه بالفاء في " فما "، فتكون هذه الآية هي النص القاطع على أن ما ذُكر من أول السورة هو من باب الإشارة.

إذا فالله تعالى أقسم بالتين والزيتون وطور سينين وبالبلد الأمين ونتوقف لنتساءل عن سر هذا الترتيب ؟ فلماذا التين أولا ثم الزيتون ثم الطور ثم البلد الأمين ؟ نقول: الله لا يقسم إلا بما هو نفيس غالي، ولكن النفائس لا تتساوى فهناك منها ما هو أنفس من غيرها، وهنا بدأ الله السورة بالقسم بما هو أقل نفاسة تصاعديا إلى ما هو أنفس وأعز، فبدأ بالتين ثم الزيتون ومن المعلوم بداهة أن ثمرة الزيتون أكثر نفاسة من التين ففيها من الفوائد ما لا تقاربها شجرة التين، ثم يكفيك أن التين ذكر مرة واحدة في القرآن، أمّا الزيتون فذُكر ست مرات، إحداهن إشارة إلى النور الإلهي! وفي تلك الآية وصفها الله بأنها شجرة مباركة! وإذا نحن قصدنا الفهم الإشاري وجدنا أن المراد بالتين أنبياء بني إسرائيل أو بوذا وهم حتما أقل مكانة من عيسى عليه السلام، ثم يأتي بعد ذلك طور سينين وفيه إشارة إلى موسى عليه السلام ثم يأتي

ما هو أكثر نفاسة وهو البلد الأمين مكة بلد بيت الله الحرام وفيها الإشارة إلى الرسول الكريم، فهي أعلى نفاسة من كل المذكورات !

ومثل هذه الإشارات موجود في الكتاب المقدس، فإذا نحن نظرنا في التوراة في سفر التثنية في الإصحاح الثالث والثلاثين وجدناه يقول :

" جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سَيْنَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيْرٍ وَتَلأَلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ وَأَتَىْ مِنْ رَبَوَاتِ القُدْسِ " .

فإذا نحن نظرنا في هذه الآية في التوراة وجدنا أنها مماثلة لما في سورة التين، ففيها أربعة إشارات هي الأخرى، فمن سيناء يعني جبل الطور في سيناء ، و أشرق له من سعير يعني دمشق وهي موطن التين، وتلألأ من جبل فاران يعني جبال مكة البلد الأمين، و أتى من ربوات القدس يعني بيت المقدس حيث الزيتون. فهذه الآية تصديق لتلك النبؤة المذكورة في التوراة من حيث خروج الوحي في مكة .

وبعد القسم بالتين والزيتون يأتي القسم بطور سينين، والمشكلة أن كثير من المصريين خاصة يظنون أن كلمة " طور " اسم علم، لذلك نجدهم يقولون: جبل الطور بسيناء، وهذا من الأخطاء المتداولة والصحيح أن الطور هو الجبل المكسو بالأشجار، والجبل غير المكسو بالخضرة لا يقال له طور، إنما يقال له " جبل " إذا كان شاهق الارتفاع بالنسبة للتضاريس حوله[٧٤] ، والذي تميل إليه النفس أن طور سينين أو سيناء ليس في مصر، لأن الله تعالى وصف الجبل بأنه ذو شجر " وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ [المؤمنون: ٢٠] " يخرج منه الزيتون، والطور كما قلنا الجبل الذي فيه شجر والجبل الموجود في سيناء هو جبل! ليس فيه أي شجر، لذا تميل النفس إلى أنه

---

[٧٤] ويُسمى " تلا " إذا كان دون ذلك، وتليه الأكمة أو الربوة أو النتوء الأرضي، ويليه النجد أو الهضبة، ويليه السهل .

فعلا جبل الزيتون الموجود في القدس حيث أنه طور فعلا، أما مسألة أن الجبل أضيف إلى سيناء وسيناء في مصر، فنقول ليست الحدود الجغرافية الحديثة مما أتى به القرآن، فلا يوجد ما يمنع على الإطلاق أن يكون تم زحزحة للاسم المسمى للمنطقة إلى منطقة أخرى! المهم أن الله تعالى يقسم بطور سينين حيث كلم موسى ثم يتبع ذلك بقوله " وهذا البلد الأمين " ونلاحظ أن الله تعالى كان من الممكن أن يقول " والبلد الأمين " فيصير المقسم به كلمتين مثل المقسم به في الآيتين الأوليتين " التين الزيتون، طور سينين " ولكنه قال " هذا البلد الأمين " فزادت كلمة وهي اسم الإشارة " هذا "، وهذا إشارة إلى عدم الاهتمام بمسألة الوزن الذي يزعمون أن القرآن يهتم بها، أما الإتيان باسم الإشارة فالغرض منه التحديد والجزم أن المراد بذلك مكة المكرمة وليس أي بلد أمين آخر، فلو قال الله تعالى " والبلد الأمين " لاحتمل أن يكون المراد من ذلك مكة، لأنه تعالى قصّ في حقه " وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ [إبراهيم: ٣٥] " ولكنه يحتمل أيضا أن يكون المراد منه أي بلد أمين يحيا فيها الإنسان، ولكن لما أشار إليه ب " هذا " ارتفع اللبس وعُلم أن المراد من ذلك هو مكة المكرمة!

ولكن لم قال الله تعالى " أمين " ولم يقل " آمن " ؟ نقول: أمين على وزن " فعيل " وهي صيغة تفيد المفعولية والفاعيلة! فإذا كان مدلولها مما يختص به الموصوف فقط ولا يتعدى إلى غيره كانت بمعنى المفعولية مثل " جريح وقتيل " أما إذا كان المدلول لا يختص بالموصوف فقط وإنما يتعدى إلى غيره فتفيد المبالغة وتكون بمعنى الفاعلية، مثل رحيم وبديع فهي بمعنى راحم ومبدع! فإذا نحن نظرنا في هذه الآية وجدنا أن الله تعالى استعمل صيغة فعيل ليشير إلى هذا المعنى! فالأمن في مكة ليس فيها في ذاتها فقط ولكنه متعد إلى غيرها فهي آمنة مؤمّنة

لمن فيها أمنا تاما، ونلاحظ أن الوصف بالأمين جاء للبشر ولم يأت للأماكن إلا مع مكة ومع الجنة "إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ [الدخان: ٥١] "! لذلك استعمل الله تعالى فعيلا ولم يستعمل فاعلا وليس الأمر من أجل الفاصلة أو ما شابه! وإنما من أجل الإشارة إلى عموم الأمن فيها وشموليته .

إذا فالله تعالى يقسم بنعمه المادية الروحية الكثيرات المستمرات على خلقه، فما هو المقسم عليه إذا الذي يستحق كل هذه الأقسام ؟

إذا نحن نظرنا في السورة وجدنا أن المقسم عليه أمر جد خطير يردّ على كثير من القضايا المطروحة في الفكر البشري، فالمقسم عليه الأول هو قوله تعالى " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " قد يبدو المقسم عليه بالنسبة للقارئ العادي ليس خطير الشأن إلى هذه الدرجة ولكن ندعوه ليتوقف معنا ليتدبر في هذه الآية ما هو المقسم عليه، ولم؟: الله تعالى يقسم أنه هو الذي خلق الإنسان[٧٥] في أحسن تقويم. أما لماذا هذا القسم، فهو رد صريح على من لا يظن الحكمة والعلم في الله عزوجل، فيقول له " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم "، فهل عندك اعتراض أيها الإنسان على هذا الخلق وعلى هذه الهيئة ؟ ألا تثبت هذه الصورة لله تعالى الحكمة في خلقه ؟ وكذلك هو رد ضمني على كثير من التيارات الفكرية الإلحادية والتي تقول أن الإنسان خُلق هكذا صدفة! عن طريق التطور، تصورا فيرد الله عليهم أنه هو الذي خلق وليس الأمر مجرد صدفة بل هو خلق موجه! انشأه الله تعالى إنشاءا وجعله في أحسن صورة " الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ [الإنفطار: ٧] " فأنت أيها الإنسان معتدل القامة وفي هذا من الفوائد بالنسبة للإنسان ما لا يُحصى كما أن فيها تميز له عن باقي

---

[٧٥] بواسطة الملائكة الذين تولوا مباشرة هذه العملية !

الحيوانات، والتي لا استقامة فيها. ونلاحظ أن المقسم به " التين والزيتون .... " يحتوى الدليل المباشر على صحة المقسم عليه، فالله قدم الدليل في القسم، فالله يرد مقدما على القائلين بالصدفة بقوله أنه هو الخالق الراعي والذي أعد وجهز كل ما يحتاجه الإنسان من احتياجات روحية وبدنية، وها هي قائمة صُراح أمام الإنسان، وكذلك رد بهذه المقسمات بها المذكورة على من يقول أن الله تعالى أكبر من أن يهتم بالعالم فلقد خلقه وتركه أو أن الله لا يعلم بالجزئيات، فقدم الأدلة في المقسمات بها على نفي كل هذه الأقوال .

ثم يأتي المقسم عليه الثاني وهو قوله تعالى " ثم رددناه أسفل سافلين "، ومجيء هذه الآية بعد سابقتها من الأمور التي قد تثير العجب عند القارئ، فكيف يقول الله تعالى أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم رده أسفل سافلين ولم يرده الله تعالى إلى تلك السفلية ؟

نقول: لا بد أن نفهم أولا مراد الله من الرد إلى أسفل سافلين لنعرف كيف رده الله خالقه! اختلف السادة المفسرون في المراد من هذه الآية، فقالوا أنه الرد إلى أرذل العمر! أو المقصود هم الضعفاء أو المرضى الزمنى!

وهم بقولهم هذا يسيئون إلى الإنسان وإلى ربه عزوجل، فالإنسان في هذه الحالة ليس أسفل سافلين ثم إنه لا يستحق الذم والتوصيف بهذا الوصف فليس هذا بيده، وإنما هو من قضاء الله على البشر، فهل يعيبون الخلق أم الخالق ؟! ثم هم لا يربطون الآية بالآية التالية لها. أما نحن فنفهم هذه الآية من خلال سابقتها ولاحقتها، فلقد قلنا أن المراد من الخلق في أحسن تقويم هو الخلق الحسن المنتصب القامة مع توفير الاحتياجات وأهمها الروحية " الدين " ثم يأتي بعد ذلك الرد إلى أسفل سافلين ولكن هل هذا الرد عام ؟ لا، ليس هذا الرد لكل الناس بل المؤمنون العاملون للصالحات مستثنون من هذا الرد، فيفهم بداهة

أن المراد من هذا الرد هو جزاء وعقاب للناس على عدم انتفاعهم بتقويم الرحمن لهم، فلقد خلقهم ونصب قامتهم وأرسل لهم الرسل ولكنهم لم يستجيبوا، فبإعراضهم عن رسلهم - المذكورين إشارة في أول السورة - استحقوا أن يكونوا أسفل سافلين؛ أي أن الإنسان المعرض عن الوحي في الدنيا هو أقل من الحيوان " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: ١٧٩] " فهو أسفل سافلين في الدنيا ومصيره في الآخرة أن يُردّ إلى نار جهنم فهو أسفل سافلين كذلك؛ وفي هذا التوصيف للإنسان أنه مردود إلى أسفل سافلين إلا أنه يُستثنى منه المؤمنون الصالحون - والاستثناء يكون للقليل من الكثير - تصديق لقوله تعالى " وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [يوسف: ١٠٣] " ففيه إشارة إلى أن الحال الغالب للإنسان هو الكفر أو المعصية، لذلك جاء الوصف للإنسان كاملا بالرد إلى أسفل سافلين سواءا في الدينا أو الآخرة، " إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون " أي أن الرد في الآخرة إلى النار والانتكاسة في الدنيا إلى الحيوانية يستثنى منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون، ففي الآخرة هم في أعلى عليين ولهم في الدنيا الحياة الحسنة والبقاء على التقويم الأحسن. والناظر في الفكر الإسلامي يجد أنه يجعل الدين تكليفا يقابله أجر في الآخرة، أما نحن فنرى أن الدين تكليف وأجر في آن واحد، لذا فإنا نرى أن الله عزوجل يدخلنا الجنة بكرمه وفضله، فلو اكتفى بأن يُدخل العاصين النار وأن لا يعاقب المطيعين لكان الدين أجرا كافيا، وهو من تمام فضله ونعمه عليهم، فكفى بالدين منهاجا وتنظيما وسعادة للحياة الدنيوية؛ لذا فإنا نقول أن الأجر الغير ممنون بادئ في الدنيا متمثل في حياة سعيدة قويمة هانئة منتظمة يحكمها الدين، ولا ينقطع هذا الأجر فإذا مات الإنسان انتقل إلى جنات رب

العالمين في أعلى عليين على عكس من هم في أسفل سافلين. وفي هذه الآية والآية السابقة لها رد على من يقولون أن الله تعالى رحيم لا يعذب خلقه! أو أنه أكبر من أن يعذب خلقه! فيوضح لهم أنه سينزل عذابه بمن يستحقه جزاءا له على فعله المُشين وأنه سيثيب من يؤمن ويعمل صالحا، فليس الخلق عبثا أو مسرحية إلهية بل هو اختبار من الرحمن الرحيم " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ [المؤمنون: ١١٥]، " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: ٢٧] "

إذا فالله تعالى هو الذي خلق الإنسان وأعد له ما يحتاجه من غذاء روحي وجسدي وأمن اجتماعي وهو خالقه لحكمة فمثيبه ومعاقبه، فليس الله أكبر من ذلك، كما يتشدق بعض المتشدقين ويكذب بعض الكائنين المكذبين.

" فما يكذبك بعد بالدين " اختلف المفسرون في المخاطب في هذه الآية، هل هو الإنسان، أم الرسول ؟ فيكون المعنى على الاحتمال الأول: فما الذي يجعلك تكذب أيها الإنسان بالدين. وعلى الثاني: فلا يكذبك بعد أيها الرسول أحد بالدين! والذي يرجحه السياق والواقع ومجرى السورة من أولها إلى هنا وكذلك الآية التالية هو أن المخاطب في هذه الآية هو الإنسان[٧٦] وليس الرسول الكريم، فبعد أن أقسم الله تعالى على ما شاء وقدم لذلك من الأدلة والتي هي أقسام ما شاء، يقول مخاطبا الإنسان: فما يكذبك بعد بالدين ؟ أي ما الذي يجعلك تكذب بالدين بعد ما ذكرنا لك، فلقد قلنا لك أننا خلقناك وأنك مخلوق في أحسن صورة وأنك بهذا الخلق معد

[٧٦] من الممكن القول أن المخاطب إشارة وتعريضا في هذه الآية هو المؤمن من أهل الكتاب الذي لم يؤمن بالرسول فعرض الله تعالى له في أول السورة ارتباط الأنبياء ببعض، وذكره بالنبوات والنبوءات الواردة في حق الرسول ثم قال له: ما يكذبك بالإسلام في شكله الأخير على يد محمد ؟

لامتحان واختبار سنحاسبك عليه، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ولن نظلمك، وأن كل الخواطر التي في ذهنك هباء منثور، فمن يفعل هذا كله من حقه أن يُعبد، فيرسل للناس الرسل ويجعل لهم دينا يسيرون على هداه، ينظم لهم حياتهم ويعرفهم بربهم وكيف يتقربون إليه. " أليس الله بأحكم الحاكمين " ألست تقر أيها الإنسان أن الله تعالى أحكم الحاكمين، فلم تتعجب إذا أرسل لك الرسل ودعاك إلى عبادته ؟ أفي هذا الفعل عجب ؟ فإذا كانت إجابتك ببلى وهي حتما كذلك، فلا تكذب بالدين وانظر ما فيه وستؤمن إن لم يكن في قلبك عجب.

وكما قلنا سابقا ونعيد هنا: إن القرآن في كل خطابه لم يخاطب أبدا صراحة الملاحدة الذين لا يقرون بوجود إله، نعم هو يخاطبهم ضمنا ولكن ليس مباشرة، لأن الفكر الإلحادي فكر ساقط غير منطقي لا يستحق المناقشة لذلك اكتفى القرآن دوما بعرض دلائل الوحدانية والتذكير بكمالات الله عزوجل، أما أن يحاول إثبات الله تعالى ابتداءا فهذا ما لم يفعله القرآن ولا ينبغي لأحد فهذا الأمر (وجود الإله) من البديهيات العقلية التي لاينتطح فيها عنزان، وعلى الرغم من ذلك يفعلها الملاحدة العباقرة!

فانظر أخي في الله إلى هذا العرض البديع الذي تعرّض لهذه المسألة وردّ على شكوك الإنسان ودعاويه بخصوص المسألة الإلهية وعلاقتها بالإنسان وكيف أنه دعاه إلى ترك التكذيب لأن الله أحكم الحاكمين ثم أمره في السورة التالية قائلا: " اقرأ باسم ربك الذي خلق " فاقرأ كتاب ربك الذي جاءك بالدين وستعلم أنك من الغافلين الذاهلين بتكذيبك، فسترى في هذا الكتاب حكمة أحكم الحاكمين الذي خلق فسوى وقدر فهدى وعلم الإنسان ما لم يعلم .

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين وصلاة وسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، أما بعد فننتناول اليوم بإذن الله تعالى سورة عظيمة شاملة تحتوي الإنسان وكونه وأحداثه ولكنها كالعادة لم تلق هذا الاهتمام من المتعاملين معها وفهمت فهما جزئيا ضيع الكثير والكثير من أوجه عظمتها، وهذه السورة هي سورة الفلق! والعجيب أن يدعي بعض أعداء الإسلام أن القرآن كتاب خرافي غير علمي لأنه احتوى هذه السورة التي تحدثت عن السحر وعن الحسد! فهل هذه السورة تحتوي فعلا اي قدر من الخرافة ؟ هذا ما سيراه القارئ الكريم بإذن الله تعالى !

وأول ما نبدأ به عند تعرضنا لهذه السورة هو التذكير بأن هذه السورة مكية وليست مدنية كما يعتقد الكثيرون، فالسورة مكية رواية – كما جاء في الأثر – وأسلوبا، أما مسألة أنها نزلت كرُقية للرسول الكريم عندما سُحر، فهذا ما نرفضه تماما، فلم يُسحر الرسول الكريم وحاشاه أن يُسحر، ثم إن القرآن طيلة تعرضه لهذه المسألة ينفي تأثير السحر من أوله إلى آخره – ما عدا السحر التخييلي وهذا لا يؤثر في

الإنسان في شيء - فهل يأتي في السورة قبل الأخيرة منه فيثبته! ثم يثبته بصورة غير صحيحة تماما وهذا ما سنراه عند التعرض لآية النفاثات! أما الآن فسنقدم المنظور العام للسورة ليرى القارئ الكريم كيف أن السورة تقدم تصورا علميا فكريا عظيما مصاغا بصياغة أدبية جبارة لا يرقى إليها البشر :

المنظور العام للسورة :

الناظر في السورة الكريمة يجد فيها معان شاملة يمكن أن تتمثل في كلمة واحدة وهي الواردة في الآية الأولى منها والتي شملت السورة كلها وهي الاستعاذة من الانقسام والشقاق ونتائجه! ونلاحظ أن السورة تسير على نسق تنازلي يبدأ بالاستعاذة برب القانون العام الجامع لكل الأفراد المندرجة تحته، ثم يبدأ بعد ذلك سرد أفراده بدأ من الأشمل إلى الفرد الواحد. فتبدأ الأفراد بالخلق كله ثم بعد ذلك بما فيه خير ولكنه بكثرته يصبح شرا، ثم بالمسببين للفصل والقطع المفتتين للمجتمع عن طريق تعقيده ثم تُختم السورة بالضرر الفردي المتمثل في الحاسد إذا حسد. وتتمثل عظمة السورة في تنبيه الإنسان المسلم على أهمية الوحدة والتعاون والتواد والتحاب والشفافية والصراحة .

تقسيم السورة :

تتكون السورة من خمس آيات، آية استعاذة بالرب تتبعها أربعة آيات تحتوي المستعاذ منه، فإذا نحن نظرنا في المستعاذ منه وجدناه ينقسم تقسمين إثنين، قسم طبيعي وقسم بشري وكذلك قسم مطلق وقسم معلق. فإذا نحن نظرنا وجدنا أن القسم الطبيعي متمثل في قوله تعالى

" من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب " والقسم البشري متمثل في قوله تعالى " ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد ". أما القسم المطلق فقوله تعالى " من شر ما خلق ومن شر النفاثات في العقد" أما القسم المعلق فهو قوله تعالى " ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر حاسد إذا حسد " .

ونبدأ في تناول السورة معلقين على ما فيها من معان جليلة متكلين على رب الفلق مستعيذين به من الذلل والخلل :

الناظر في السورة يجد أن كل ألفاظها معروفة مألوفة ما عدا كلمتين واردتين في الآية الثالثة وهي قوله تعالى " غاسق، وقب " فهاتان الكلمتان غفل عن معانيهما كثير من الناس، ونبدأ بسم الله الرحمن الرحيم :

تبدأ السورة بأمر الله للنبي الكريم أن يقول " قل " ولن نتوقف كثيرا مع هذه الكلمة، ولكنا نشير إلى أهمية هذه الكلمة في الدور التواصلي التعليمي لرسالة القرآن، فالقارئ لهذه السورة يقرأها لنفسه ويقوم بتبليغ نفس الأمر إلى غيره بأن يأمره بأن يقول كذا وكذا! وليتصور القارئ كيف سيكون الحال لو حذفت كلمة " قل " فسيقضي هذا على التواصلية بين القارئ والسامعين ويصبح الأمر مجرد استعاذة أو طلب فردي من القارئ نفسه لنفسه فقط !

إذا فالآية تأمر النبي والمؤمنين أن يقولوا " قل أعوذ برب الفلق " وهنا نتوقف لنسأل: لما قال الله تعالى " رب الفلق " فمن المعلوم ان الأصل أن يقال " الله " ؟ فلمّا عدل الله عن اسمه الأعظم إلى اسم من أسمائه الحسنى عُرف أن هذا الاسم متعلق بالأوصاف والآيات الواردة في هذه السورة! فإذا نحن نظرنا في السورة لحظنا أن هذه الكلمة " فلق " هي العامل المشترك بين كل أنواع الشرور الواردة في هذه السورة، فما هو

الفلق ؟ قد يتوقف القارئ قليلا أمام هذه الكلمة ظانا أنه لا يعرف معناها ويحتاج الأمر إلى الرجوع إلى المعاجم من أجل فهم معناها! وهو في هذا واهم، فالمعنى معروف وهو متبادر إلى ذهن أي قارئ، فإذا نحن نظرنا في المقاييس لابن فارس وجدناه يقول:

" الفاء واللام والقاف أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فُرْجةٍ وبَيْنُونةٍ في الشيء، وعلى تعظيمِ شيء. من ذلك: فَلَقْتُ الشّيءَ أَفْلِقُه فَلْقاً. والفَلَق الصُّبح؛ لأنَّ الظّلام يَنْفلِقُ عنه. والفَلَق مطمئنٌّ من الأرض كأنَّه انفلَقَ، وجمعه فِلْقانٌ. والفَلق الخَلْق كله، كأنَّه شيءٌ فُلِق عنه شيء حَتَّى أُبرِزَ واظْهِر. اهـ

فكما نفهم نحن الفلق استعملها القرآن، وانظر إلى قول الله تعالى " فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ [الشعراء: ٦٣] " فإذا نحن نظرنا في أقوال المفسرين في تفسيرهم! للفلق وجدناهم مختلفين في تحديد وتضييق وتخصيص الفلق فوجدناهم يقولون أنه الصبح لأن الليل يفلق عنه الصبح ويفرق، ولأنه ورد هكذا في قوله تعالى " فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [الأنعام: ٩٦] " وقيل أنه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات: { إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى } [الأنعام: ٩٥] والجبال عن العيون: { وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار } [البقرة: ٧٤] والسحاب عن الأمطار والأرحام عن الأولاد والبيض عن الفرخ " ..... إلخ

والذي أراه أن الفلق هو عملية الفلق نفسها، فهذه العملية من أهم العمليات التي يقوم عليها بناء الكون ونظام الطبيعة، فالصبح يُفلق والحب يفلق والأرض تفلق والعلاقات تفلق! إلخ ما يفلق من حولنا. بل إن الكون كله قد بدأ ب " فتق " أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ [الأنبياء: ٣٠] "[٧٧]. وليس في الآية أي إشارة إلى أن الفلق نفسه شيء ضار أو سلبي وإنما هو من أهم الأنظمة والسنن الكونية والتي من دونها لا يستمر الكون، فلولا الانقسامات ما كان إنسان ولا نبات ولا حيوان! ولكن ليس كل انقسام خير مُنّمٍ، فهناك انقسامات ماحقة مضمرة ضارة. إذا فالإنسان المسلم يستعيذ برب الفلق الحاكم المسيطر على الكون كله. " من شر ما خلق " والآية لا تحتاج إلى أي تعليق فالإنسان يستعيذ من أي شر موجود فيما خلقه الله تعالى، ولا يقولن إنسان أن الله تعالى يخلق الشر استدلالا بهذه الآية، فلم يقل سبحانه أنه خلق الشر أو أن كل ما خلقه شر أو فيه شر وإنما أمرنا أن نستعيذ من شر ما خلق، فإذا كان هناك خلق فلا يخلو هذا الخلق من أن يحتوي شرا بأي شكل من الأشكال، فالشر والخير موجودان في الكون بقضاء الله تعالى وإرادته وهو كما قال سبحانه " .... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [الأنبياء: ٣٥] " فلا بد من وجود الخير والشر في الكون حتى يكون هناك معنى للامتحان وللابتلاء، أما ذلك الكون الذي يخلو من الشر فهو الجنة أو ذلك الكون الوهمي الذي يريده الملاحدة ويرفضون من أجله فكرة الامتحان الإلهي فوصل بهم الأمر إلى رفض وجود الرب القدير !

إذا فالإنسان المسلم يستعيذ بالله تعالى من كل شر لأي خلق خلقه الله تعالى وبعد أن استعاذ بالله من العام ينتقل في الاستعاذة إلى الخاص، وكما قلنا فإن السورة كلها تسير على نسق تنازلي، فكذلك يستعيذ به " من شر غاسق إذا وقب !"

و نجد أنه قد اجتمعت في هذه الآية كلمتان غاب معرفة معناهما

[٧٧] لاحظ الشبه الكبير بين الفلق والفتق في المبنى والمعنى وهذا من إعجاز اللغة العربية الجارية التابعة على النظام الكوني ! ، بل وتأمل تضاده في رتق وفتق !

عن كثير من الناس حتى المفسرين واللغويين منهم، لذلك نجد أنهم قد تحيروا في تحديد معنى هذا الغاسق الذي وقب! تحيرا شديدا، لأن اجتماع كليهما في تصور واحد أمر مستبعد لذلك نجد أنهم كانوا في حيرة من الجزم بتحديد هذا الغاسق الواقب، ونبدأ أولا بعرض الأصل اللغوي لهاتين الكلمتين لنعرف لم تحير المفسرون عند تحديد المداليل الخاصة بهما، فإذا نحن نظرنا في المقاييس وجدنا ابن فارس يقول:

" غسق: الغين والسين والقاف أصلٌ صحيح يدل على ظُلْمة. فالغَسَق: الظلمة.

والغاسِق: الليل. ويقال: غَسَقت عينُه: أظلمت. وأغْسَقَ المؤذِّن، إذا أخَّر صلاةَ المغرب إلى غَسَق الليل. ... " اهـ

" وقب: الواو والقاف والباء: كلمةٌ تدلُّ على غَيبةِ شيءٍ في مَغَاب. يقال وَقب الشَّيءُ: دخَلَ في وَقْبة، وهي كالنُّقْرة في الشَّيء. ووقَبَتْ عيْناه: غارتا. [و] وقَبَ الشَّيءُ: نَزَلَ ووَقَع. قال الله تعالى: ومِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إذَا وَقَبَ[الفلق ٣]، قالوا: هو اللَّيل إذا نَزَل ...... " اهـ

ولكن لنا أن نتوقف ونسأل: هل أصاب ابن فارس بتحديده لمعنى الغسق ؟ من خلال حسي اللغوي الفطري المُنمّى! أرى أن تحديده هذه المرة جانبه الصواب كثيرا، فالغسق ربما يكون متعلقا بالظلام ولكن المعنى المستشعر له عندي هو السيلان والنزول، فلما نظرت في لسان العرب وجدته يقول:

" غَسَقَتْ عينه تَغْسِقُ غَسْقاً وغَسَقاناً: دمعت، وقيل: انصبَّت، وقيل: أَظلمت.

والغَسَقان الانصباب. وغَسَق اللبنُ غَسْقاً: انصب من الضَّرْع. وغَسَقت السماء تَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاناً: انصبَّت وأَرَشَّت؛ ومنه قول عمر،

رضي الله عنه: حين غَسَق الليل على الظِّراب أي انصب الليل على الجبال.

وغَسَق الجرحُ غَسْقاً وغَسَقاناً أي سال منه ماء أصفر؛ وأنشد شمر في الغاسق بمعنى السائل: أَبْكِي لفقْدِهِم بعَينٍ ثَرَّة، تَجْري مَسارِبُها بعينٍ غاسِقِ أي سائل وليس من الظلمة في شيء. أبو زيد: غَسَقت العين تَغْسِق غَسْقاً، وهو هَمَلان العين بالعَمَش والماء. وغَسَق الليل يَغْسِق غَسْقاً وغَسَقاناً وأَغْسَقَ؛ عن ثعلب: انصبّ وأظلم؛ ومنه قول ابن الرُّقَيَّات: إن هذا الليل قد غَسَقا، واشْتَكَيْتُ الهَمَّ والأَرَقَ " اهـ

إذا فالغسق هو على المعنى الراجح بمعنى <u>النزول الشديد المتوال أي الانصباب</u> وليس بمعنى الإظلام! والوقب هو غيبة شيء في شيء، ونظرا لأن ابن فارس يذكر الأصل الجامع للمفردة فإنا سنذكر للقارئ الكريم هذه المرة نماذج من استعمالات الوقب في اللغة من خلال لسان العرب ليعرف كيف هو الاستعمال الغالب لهذه اللفظة :

" الأَوْقابُ: الكُوَى، واحدُها وَقْبٌ. والوَقْبُ في الجبَل: نُقْرة يجتمع فيها الماء.

والوَقْبةُ كُوَّة عظيمة فيها ظِلّ". والوَقْبُ والوَقْبةُ: نَقْرٌ في الصَّخْرة يجتمع فيه الماءُ؛ وقيل: هي نحوُ البئر في الصَّفَا، تكون قامة أو قامتين، يَسْتَنْقِع فيها ماءُ السماء. وكلُّ نَقْرٍ في الجَسدِ: وَقْبٌ، كنَقْرِ العين والكَتِفِ. ووَقْبُ العَيْن: نُقْرَتُها؛ تقول: وَقَبَتْ عَيْناه غارَتَا. وفي حديث جَيْشِ الخَبَطِ: فاغْتَرَفْنا من وَقْبِ عَيْنه بالقِلالِ الدُّهْنَ؛ الوَقْبُ: هو النُّقْرة التي تكون فيها العين. والوَقْبانِ من الفرس: هَزْمتانِ فوق عَيْنَيْه، والجمع من كل ذلك وُقوبٌ ووِقابٌ. ووَقْبُ المحالةِ: الثَّقْبُ الذي يدخُل فيه المِحْوَرُ. ووَقْبةُ الثَّريد والمُدْهُنِ: أُنْقُوعَتُه. الليث: الوَقْبُ كلُّ قَلْتٍ أو حُفْرة، كقَلْتٍ في فِهْر، وكوَقْبِ المُدْهُنةِ؛ وأنشد: في وَقْبِ خَوْصاءَ، كوَقْبِ المُدْهُنِ الفراء: الإِيقابُ إِدْخالُ الشيء في الوَقْبةِ. ووَقَبَ الشيءُ

يَقِبُ وَقْباً: دَخَلَ، وقيل: دَخَل في الوَقْبِ. وأَوْقَبَ الشيءَ: أَدْخَلَه في الوَقْبِ. ورَكِيَّةٌ وَقْباءُ: غائرةُ الماء ..... ووَقَبَ القمرُ وُقوباً: دخَل في الظِّلِّ الصَّنَوبَرِيِّ الذي يَكْسِفُه. وفي التنزيل العزيز: ومِن شَرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ؛ الفراء: الغاسِقُ الليل؛ إذا وَقَبَ إذا دخَل في كل شيء وأَظْلَمَ. ورُوي عن عائشة، رضي اللّه عنها، أَنها قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لما طَلَع القمرُ: هذا الغاسِقُ إذا وَقَبَ، فتَعَوَّذي بالله من شَرِّه. وفي حديثٍ آخر لعائشة: تَعَوَّذي بالله من هذا الغاسقِ إذا وَقَبَ أي الليل إذا دَخَلَ وأَقْبَلَ بظَلامِه. ووَقَبَتِ الشمسُ وَقْباً ووُقُوباً: غابَتْ؛ وفي الصحاح: ودخَلَتْ مَوْضِعَها. قال محمد بن المكرم: في قول الجوهري دخَلَتْ موضِعَها، تَجَوُّزٌ في اللفظ، فإِنها لا موضعَ لها تَدْخُله. وفي الحديث: لما رَأَى الشمسَ قد وَقَبَتْ قال: هذا حِينُ حِلِّها؛ وَقَبَتْ أَي غابَتْ؛ وحِينُ حِلِّها أَي الوَقْتُ الذي يَحِلُّ فيه أَداؤُها، يعني صلاةَ المغرب. والوُقُوبُ: الدُّخُولُ في كل شيء ؛ وقيل: كلُّ ما غابَ فقد وَقَبَ وَقْباً. .... " اهـ

هذا هو الاستعمال الرئيس للغسق وللوقب، وقبل أن نهب القارئ المعنى المراد منهما نعرض له أولا أقوال المفسرين فيهما :

إذا نحن نظرنا في أقوال المفسرين في تفسيرهم لهذه الآية، ونأخذ تفسير الرازي نموذجا، نجده يقول: " ذكروا في الغاسق وجوها أحدها: أن الغاسق هو اليل إذا عظم ظلامه من قوله: { إلى غسق الليل } [الإسراء: ٧٨] ومنه غسقت العين إذا امتلأت دمعاً وغسقت الجراحة إذا امتلأت دماً .... قال قوم: الغاسق والغساق هو السائل من قولهم: غسقت العين تغسق غسقاً إذا سالت بالماء، وسمي الليل غاسقاً لانصباب ظلامه على الأرض، أما الوقوب فهو الدخول في شيء آخر بحيث يغيب عن العين، يقال: وقب يقب وقوباً إذا دخل، الوقبة النقرة لأنه يدخل فيها الماء، والإيقاب إدخال الشيء في الوقبة[٧٨] ، هذا ما يتعلق باللغة

---

[٧٨] وحتى الآن فلا إشكال فيما يقول ولكن المشكلة في قبوله للقول المألوف على الرغم من مخالفته لما يقوله هنا في معنى الوقب ! ونتابع لنر !

(كأن اللغة في واد والمفسرين في آخر أو أنهم غير ملزمين بها!)
وللمفسرين في الآية أقوال: أحدها: أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل، .... وثانيها: أن الغاسق إذا وقب هو القمر، قال ابن قتيبة: الغاسق القمر سمي به لأنه يكسف فيغسق، أي يذهب ضؤوه ويسود، (و) وقوبه دخوله في ذلك الاسوداد، روى أبو سلمة عن عائشة أنه أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وأشار إلى القمر، وقال: « استعيذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب » قال ابن قتيبة: ومعنى قوله: تعوذي بالله من شره إذا وقب أي إذا دخل في الكسوف، "

إذا فأقوال السادة المفسرين في مسألة الغاسق إذا وقب تدور في فلك معنيين إثنين وهما الليل أو القمر، وقرأت في تفسير الغاسق الذي وقب تفسيرا حديثا وهو تفسير حديث للعلامة الشيعي الشيخ النابلسي يرى فيه أن الغاسق هو الشيطان والمراد من وقوبه انه يدخل في صدر الإنسان فيوسوس له ويدفعه في نهاية المطاف إلى المعاصي والجرائم! وهذا الرأي من الممكن قبوله كتفسير إشاري للآية ولكن ليس هو المراد منها حتما، ونعود لمناقشة الرأيين الأولين :

هل من الممكن أن يكون الغاسق الواقب هو الليل ؟ المشكلة أنهم متفقون أن الوقب هو بمعنى دخول الشيء في مغاب حتى لا تراه العين! والمشكلة أن الليل لا يدخل في شيء حتى لا تراه العين، بل هو الذي يجعل الأشياء لا تراها العين، فعجبت ممن جعل الساتر مستورا، كما أن الملاحظ أن الشر المستعاذ منه في هذه الآية شر معلق وليس مطلقا، فعلى تفسيرهم هذا يكون المعنى " ومن شر الليل إذا دخل أو أظلم! " وهذا معنى حشوي لا فائدة منه، فهل هناك ليل بدون إظلام أو دخول ؟! الليل لا يكون ليلا إلا إذا أظلم ودخل وما عدا ذلك فلا يكون الليل ليلا! إذا يكون من المرفوض بداهة أن يكون الليل هو الغاسق! والعجيب أنهم جعلوا الغاسق هو الليل ثم جعلوا الوقب بمعنى النزول أو الدخول

(الوقتي طبعا)! هكذا بكل بساطة! وفعلا كان مع الرازي الحق كل الحق، عندما قال " هذا ما يتعلق باللغة " فالسادة المفسرون لا يلتزمون بها، أما مسألة أن القمر هو الغاسق الذي يقب فنحن نرفضها مثل أختها السابقة، ونحن نعلم أن هذا الرفض سيشكل حساسية كبيرة عند كثير من الأخوة بسبب ردنا للحديث الوارد في الباب، ولكنا نرد الحديث من باب مخالفته للقرآن ومن أجل مخالفته للغة ومن أجل عدم تطابق الوصف الفعلي للقمر مع الغسوق أو الوقوب، فالغاسق على قولهم هو المظلم، فهل القمر مظلم ؟ قد يقول قائل: نعم، القمر مظلم لأنه لا يصدر ضوئا وإنما يعكس ضوء الشمس! فنقول: لا، القمر ليس مظلما، هناك فارق بين أن يكون الشيء يشع ويصدر ضوئا وبين كونه لا يصدر، فالقمر لا يصدر ضوئا ولكنه غير مظلم، ونوضح الصورة للقارئ: إذا كان هناك مصباح كهربائي في البيت، فعندما يعمل يكون مضيئا، وعندما لا يعمل لا يكون مظلما وإنما يذهب ضوئه! فهل اسود المصباح عند إغلاقه ؟ أم أنه لم يعد له ضوء ؟ إذا هناك فارق كبير بين ذهاب الضوء وبين الإظلام، ومن هنا نعرف أن القمر لا يكون غاسقا (هذا على فرض كون الغسق بمعنى الإظلام!) ثم هل نرى القمر عندما يكون مظلما أم أننا نراه فقط عندما يكون منيرا ؟ بداهة نحن لا نرى القمر كله أو بعضه إلا عند كونه منيرا، فإذا كان غاسقا فلا نراه وفي هذه الحالة يكون هو في الوقب، فعلى قولهم يكون المراد أن نستعيذ من المظلم إذا أظلم، وهذا بداهة مما لا معنى له .

إذا فالغاسق الواقب لا يصلح أن يكون الليل أو الشيطان أو حتى القمر، فما هو إذن إن لم يكن واحدا من المذكورات ؟

إن الغاسق الواقب هو <u>المطر الشديد المتتابع الذي يؤدي الى انهيارات أرضية!</u>

قد يعجب القارئ من هذا الفهم ولكن نرجوا منه الصبر لير لم قلنا بهذا القول :

إذا نحن تتبعنا مفردة " غسق " في كتاب الله تعالى وجدنا أنها وردت بشكل المصدر في موضع واحد وهو قوله تعالى " أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً [الإسراء: ٧٨] " ووردت بصيغة المبالغة في موضعين إثنين وهما قوله تعالى " هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ [ص: ٥٧] " و"إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً [النبأ: ٢٥] " ووردت بصيغة اسم فاعل في سورتنا هذه " غاسق إذا وقب "

فإذا نحن نظرنا في معاجم اللغة وجدنا أن المعنى يتأرجح بين الظلمة وبين الانصباب فما هو المعنى الراجح منهما ؟ الظلمة أم النزول الشديد المتوالي "الانصباب " ؟ الناظر في كتاب الله تعالى – حتى من خلال هذه الآية – يجد أنه يحتم أن يكون معنى الغسق هو ما ورد في معجم لسان العرب وليس المقاييس وهو أنه بمعنى الانصباب، فإذا نحن نظرنا في آيتي ص والنبأ وجدناهما كليهما مرتبطتين بالشراب، فنجد آية سورة ص تأتي في معرض المقارنة بين المتقين وأهل النار، فبعد أن عرضت موقف المتقين قائلة: " مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ [ص: ٥١] " جاء قوله تعالى في معرض الحديث عن أهل النار " هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ [ص: ٥٧] "، وفي سورة النبأ جاءت آيتنا المنشودة هذه بعد قوله تعالى " لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً [النبأ: ٢٤] " أي أن أهل النار لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما شديد الحرارة والشراب يكون غساقا أي نازلا مندفعا بشدة وتصور أنك تحاول أن تشرب من شلال، كيف سيكون حالك وكيف سيكون الألم والماء الشديد ينزل منصبا فوقك !؟ فهاتان الآيتان ترجحان كون الغسق هو الإنصباب، أما آية الإسراء فهي بمعنى النزول والانصباب كذلك ويدلل على قولنا هذا ما جاء في قول سيدنا عمر "

حتى يغسق الليل على الظراب " أي ينزل على الظراب! فمراد سيدنا عمر واضح وهو نزول الليل وليس إظلامه وإلا لا يكون لتخصيص الكلام معنى، فإذا نحن نظرنا في آية الإسراء وجدنا أنها أيضا ترجح هذا المعنى، فالآية تقول " أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ " ودلوك الشمس وصف لحركة الشمس، لذا فمن الأولى أن يكون غسق الليل وصف لحركته " نزوله " وليس لهيئته. ثم تأتي الآية الأخيرة في سورة الفلق فتقول أن الغاسق يوقب، والوقب كما قلنا دخول شيء في شيء حتى يغيب، ونرجوا القارئ الكريم أن يعود إلى المعاني المذكورة في لسان العرب فسيجد أن الوقب في معظمه يدور في فلك الماء المختزن أو الراكد أو السوائل بشكل عام. فإذا نحن فهمنا أن المراد من الغاسق هو المطر المنصب فلنا من القرآن مستند وهو سورة النبأ وص والكلمة التالية " وقب " مُحتمة لهذا المعنى! وبهذا القول نكون قد أخذنا المعنى والمدلول الرئيس لكل منهما ولم نلو أي لفظة منهما، وبهذا القول نجد أنه هو القول الوحيد الذي جعل الغاسق يقب حقا! أما غيره من الأقوال فهو إما ليس بغاسق أو ليس بواقب!

إذا فالإنسان يستعيذ بالله تعالى من شر ما خلق ومن شر المطر إذا نزل شديدا متتابعا حتى أنه يؤدي إلى حدوث بعض الانكسارات في القشرة الخارجية للأرض فيتجمع فيها الماء.

إذا فبعد أن استعاذ الإنسان برب القانون من الشر العام واستعاذ من الخير الذي عندما يزيد يصبح شرا ينتقل فيستعيذ من شر النفاثات في العقد، فما هي النفاثات وما هي العقد ؟

الملاحظ أن القارئ يعرف ويفهم جيدا ما هو النفث ولكنه عن ذلك ذاهل، فإذا قلت له هل سبق لك وسمعت عن الطائرة النفاثة ؟ وعن الثعبان الذي ينفث السم ؟ سيتأكد القارئ أنه يعرف معنى النفث. إذا

فالنفث معناه معروف ولكنه نزيده إيضاحا فنقول هو كما جاء في المقاييس:

" النون والفاء والثاء أصلٌ صحيح يدلُّ على خروج شيء من فمٍ أو غيره بأدنَى جَرْس. منه نَفَثَ الرّاقِي رِيقَه، وهو أقلُّ من التَّفْل. والساحرة تَنْفِثُ السمّ.

و "لابدَّ للمصدور أن يَنْفُث" مثَل. و"لو سألني نُفَاثَةَ سِوَاكٍ ما أعطيته"، وهو ما بقي في أسنانه فنفثَه. ودمٌ نفيثٌ: نَفَثَهُ الجُرحُ، أي أظهَرَه. " اهـ

وهو كما جاء في لسان العرب:

" نَقَثَ يَنْقُثُ، ونَقَّثَ، وتَنَقَّثَ، وانْتَقَثَ، كُلُّه: أَسْرَعَ. وخرج يَنْقُثُ السير ويَنْتَقِثُ أي يُسْرِع في سيره. وخرجت أَنْقُثُ، بالضم، أَي أُسْرِع؛ وكذلك التَّنْقِيثُ والانْتِقاثُ، .... " اهـ

إذا فالنفث هو خروج شيء عن شيء بقوة، فما هي العقد ؟ العقد جمع عقدة، ومفهوم العقدة معروف ومتبارد إلى الذهن ونزيده توضيحا فنقول هو كما ورد في المقاييس:

" العين والقاف والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على شَدٍّ وشِدّةٍ وُثوق، وإليه ترجعُ فروعُ البابِ كلها. من ذلك عَقْد البِناء، والجمعِ أعقاد وعُقود. قال الخليل: ولم أسمع له فِعْلاً. ولو قيل عَقَّد تَعقِيدا، أي بنى عَقْداً لجاز. وعَقَدت الحبلَ أعقِده عَقْداً، وقد انعقد، وتلك هي العُقْدة. ...... وعاقَدته مثل عاهدته، وهو العَقْد والجمع عُقود. قال الله تعالى: أَوْفُوا بالعُقود [المائدة ١]، والعَقْد: عَقْدُ اليمين، [ومنه] قوله تعالى: ولكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ [المائدة ٨٩. النكاح وكلِّ شيء: وُجوبُه وإبرامُه. " اهـ

إذا فالعقد هو نقيض الحل كما جاء في لسان العرب، فما هو المراد

مَن النفاثات في العقد، هل المراد منها الساحرات كما ورد في كتب التفسير ؟ إذا نحن نظرنا في كتب التفسير – كما جاء في تفسير الفخر الرازي – وجدناه يقول : .

" وإنما أنت النفاثات لوجوه أحدها: أن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر وإحكام الهمة والوهم فيه، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهوتهن، فلا جرم كان هذا العمل منهن أقوى، قال أبو عبيدة: النفاثات هن بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن النبي صلى الله عليه وسلم وثانيها: أن المراد من: النفاثات النفوس وثالثها: المراد منها الجماعات، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلم: { مِن شَرِّ النفاثات } أي النساء في العقد، أي في عزائم الرجال وآرائهم وهو مستعار من عقد الحبال، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق (!!!) يقذفه عليه ليصير حله سهلاً، فمعنى الآية أن النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله: { إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم } [التغابن: ١٤] فلذلك عظم الله كيدهن فقال: { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف: ٢٨]. واعلم أن هذا القول حسن، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين. " اهـ

إذا فالسادة المفسرون يكادون يجمعون على أن المراد من النفاثات هن النساء! سواء كُنّ من الساحرات أو النساء اللاتي تنفث في عزائم الرجال! فهل هذه الأقوال فعلا مقبولة وهي ما تقول به الآية ؟ نبدأ في تحليل الآية لنر ماذا تقول :

أول ما يلحظه الإنسان في الآية أنها تستعيذ من شر النفاثات وليس من شر النفث نفسه! فإذا كان المراد من الآية إثبات تأثير السحر لكان من الأولى أن يقال " ومن شر النفث في العقد " فالضرر يقع منه سواءا كان نافثه رجل أم امرأة فالشر يقع من النفث، وسواءا كان التأثير من المرأة أكثر أم أقل كما يدعون فالشر يقع في النفث، وليس من نافثه! إذا فالآية تستعيذ من النفاثات وليس النفث، فلا يحق لنا أن نجعلها تستعيذ من النفث!

إذا فالآية تستعيذ من شر النفاثات أي أن الشر يقع في النفاثات وإن الناظر في حال المفسرين يجد عجبا، فنجدهم جعلوا الآية في النساء فكأن الله تعالى يأمرنا بالاستعاذة من النفاثات أما إذا كان النفاثون رجالا فلا نستعيذ منهم، ودعك من التمحكات التي من نماذجها " هذا من باب التغليب "! فهي لا تساوي شيئا! فنفهم أن النفث نفسه في هذه الآية غير ضار وإنما الضرر والشر في نافثه، فهل المراد من النفاثات فعلا الساحرات أو النساء ؟

" نفاثات " كما هو واضح لكل ذي عينين صيغة مبالغة من " نفث " فهي على وزن فعال، إذا فالمراد في الآية شخص كثير النفث حتى أنه أصبح عادته وطبعه، ويستوي في هذا الأمر كون الشخص رجلا أو امرأة، لأن نفاثات جمع نفاثة وهي مما تطلق على الرجل والمرأة، كما يقال: علامة وفهامة، ولو كان المراد النساء لقيل نافثات. إذا فصيغة نفثات صيغة مبالغة تنطبق على الرجل والمرأة في عين الوقت لأنها صيغة مبالغة فما المراد منها ؟

نقول والله أعلم: إن المراد من ذلك على عكس ما قاله أبو مسلم تماما وكذلك ما قاله المفسرون فالمراد من النفاثات في العقد هو تلك النفوس التي تعمل على النفخ في العقد من أجل تضخيمها

وزيادة تعقيدها وليس من أجل حلها أو توهينها فالعُقْدَةُ كما جاء في اللسان حَجْمُ العَقْد، والجمع عُقَد. ومن ينفخ في العقدة يعمل على زيادتها وشدتها لا على توهينها، فنستعيذ بالله من شر تلك النفوس التي تعمل على زيادة التعقيد في التعاقدات والعلاقات بين الناس مما يؤدي في نهاية الأمر إلى الانقسام والشقاق والتباين، ونلاحظ أن العقد نفسه لا شر فيه ولكن المشكلة هي في النفث في هذا العقد حتى يزيد ويتعقد ويشتد! أما الدليل على أن النفث يأتي بمعنى بث الأفكار (والذي لا يكون إلا عن طريق الكلام الذي يخرج من الفم !) وليس مختصا بما ينفثه الإنسان من ريقه فقط، فهو أن هذا اللفظ عام ولم يستعمل فقط هكذا في اللغة ويكفيك شاهدا على ذلك جعل صاحب اللسان النفث بمعنى الإسراع! وأن صاحب المقاييس جعله بمعنى خروج من فم أو غيره! والنفث على قولنا يخرج كذلك من الفم، كما أن هذا الاستعمال ورد في الحديث الشريف، فقد جاء عن النبي الكريم: "

قال الرسول صلى الله عليه وسلم،: إنَّ رُوحَ القُدُس نَفَثَ في رُوعي أن ..... "

وكذلك قوله في الحديث في افتتاح الصلاة: اللهمَّ إني أَعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزِهِ ونَفْثِهِ ونَفْخِهِ ... "

إذا فنحن نستعيذ من شر المضخمين والمشددين للعلاقات والتعاملات بين الناس والذين يؤدون بها في نهاية المطاف إلى الشقاق والتنازع، وهنا نلحظ أن الله تعالى استعمل صيغة جمع المبالغة المطلق لأن هذا الصنف من البشر كثير، ويتصرف هذا التصرف بدون تخطيط أو إعداد وإنما هو سجيته! فهو متشدد متنطع لا يشعر أنه يؤذي أو يفعل شيئا ضارا بنفثه هذا فينفث وينفث وينفث، بخلاف الصنف القادم والذي قال الله تعالى فيه " ومن شر حاسد إذا حسد "

وبعد أن انتهينا من تحليل آية النفث ننتقل لنناقش هذه الآية، حيث أن هناك الكثير من التيارات الإسلامية التي تستدل بهذه الآية في إثبات الحسد بمعنى وجود قوة في داخل الإنسان تستطيع أن تؤثر في الآخرين بدون أي تدخل مادي من الإنسان الحاسد، فهل هذا ما تقوله الآية ؟

الناظر في الآية يجد أنها تأمرنا بالاستعاذة من شر " حاسد إذا حسد" ولم تقل " ومن شر حسد حاسد "، فلو كان المراد من الآية إثبات الحسد بالمعنى الخرافي الذي يقولون به لأمرتنا بالتعوذ من الحسد نفسه، أما أن تأمرنا بالاستعاذة من الحاسد وليس الحاسد مطلقا وإنما إذا حسد! فيعني هذا أن الحسد في نفسه أو الحاسد ذاته ليس ضارا وإنما إذا حسد يكون ذا شر ؟ فما هو المعنى المراد من ذلك ؟

معنى الحسد معروف بالنسبة لكل الناس وهو تمني زوال نعمة الغير مع تحولها إلى الحاسد أو حتى عدم تحولها! والحسد أساسا بمعنى القشر! فالحاسد يتمنى أن تُقشر النعمة المحيطة بالآخر وتحيط به هو أو أن تنزع عنه فيتساويا الإثنان في التجرد! فمن أين أتى هؤلاء السادة أن الحسد شعاع يخرج من العين فإذا اصطدم بالمحسود حدث له ما كان يتمناه الحاسد في قلبه ؟ إن الحسد بهذا المفهوم الخرافي لا أثر له في القرآن وإنما هو أفهام بشر! وهذه الآية خير دليل على إبطال هذا الفهم والعجب أنهم يستدلون بها، فالآية تأمرنا بالاستعاذة من الحاسد إذا حسد، وهنا نتوقف لنسأل: هل هناك حاسد لا يحسد ؟ نعم، الإنسان الحاسد إنسان حاقد على غيره ناقم على وضعه، ويتمنى أن يصير الناس في مثل حاله أو يتغير هو إلى حالهم وهذا الحال أصبح ملازما له حتى أنه استحق الوصف الإسمي " حاسد "، ولكنه لا يمشي هكذا في الطريق فيحسد كل من وما يقابله، ولكنه يحسد أشخاصا معينين يشعر معهم بالنقص! فإذا حسدهم يأمرنا الله بالاستعاذة من شره، والحق يقال أني كنت من أشد المقتنعين بالتفسير الأول ومن المنافحين

عنه عن طريق القول بأن للعقل قوى خارقة وقدرات لم تُكتشف بعد، فما المانع أن يكون عند بعض الناس القدرة على التأثير في الآخرين! ولكني لما نظرت في الآية وجدت أنها تثبت الشر للحاسد نفسه في حالة حسده وليس للحسد، فعرفت أن ما قاله لي بعض العلماء - وكنت أرفضه وقتها - أن المراد من شر الحاسد إذا حسد هو أنه إذا تحرك هذا الحاسد لإيقاع حسده. فهو يتمنى زوال النعمة مني فيدبر لي المكائد وينصحني نصائح سوء ويغشني ... إلخ الأفعال التي تؤدي إلى الخسارة وزوال النعمة! وتأمل عزيزي القارئ الآية فهي تأمرنا بالاستعاذة من الحاسد نفسه وليس من الحسد! ففي هذه الحالة سيفعل الإنسان الحاسد ما يقدر عليه ليؤذيك وهذا هو التصرف المتوقع من الحاسد .

إذا فكما رأينا فليس في الآية ولا في السورة أي أثر لخرافة أو اعتقادات بدائية وإنما هي سورة ذات معان عقلية راقية لا يرقى إلى معشارها هؤلاء الملاحدة المهاويك! فانظر عزيزي القارئ إلى ما اشتملته السورة، فلقد اشتملت الاستعاذة برب الفلق من الشر الموجود في الطبيعة (شر عام نسبي)، على الرغم من أنه قد يكون خيرا ولكنه قد يكون شرا بالنسبة للإنسان ثم تأمرنا بالاستعاذة من الشر الذي يحدث عن طريق كثرة الخير (شر طبيعي)، فليست كل كثرة في ذاتها خيرا بل قد ينشأ عن كثرة الخير شر وضرر كما رأينا في الغاسق الذي وقب، كما تأمرنا بالاستعاذة من الشر الذي ينتج عن النفخ في الأمور والعلاقات والعقود بين الناس فيؤدي ذلك إلى تشديدها وتعقدها (شر اجتماعي) ثم تأمرنا بالاستعاذة من الشرور التي تنتج عن الجانب النفسي للإنسان (شر فردي نفسي) فانظر إلى تلك السورة العظيمة التي شملت جميع أنواع الشرور فأمرتنا وعلمتنا الاستعاذة منها! فسبحان الرب الذي أحاط بكل شيء علما !

الخاتمة

وبعد هذه الجولة السريعة مع هذه السور التي شغب عليها أعداء الإسلام، فإني جد واثق أن القارئ الكريم قد غيّر تصوره تماما عن هذه السور خاصة وعن قصار السور عامة، فلم تعد السور القصيرة تمثل له محل طعن أو حيرة أو شك، بل هي مواطن فخر ومحال ثقة وأوتاد إيمان لا يتزعزع، ففيها جمع الرب القدير كل قضايا الفكر وخواطر البشر وظنونه ورد عليها بأسلوب شديد مختصر يأتي الأمور من مواطنها وأبوابها، فليس القرآن ذلك الكتاب الذي يعالج الفروع، بل هو ذلك الذي يأتيها من أصولها فلا يُبقي لها جذعا ولا فرعا، فلا يَبقى لها بعده أي قرار. وكما رأينا عزيزي القارئ قد يكون حقا لدى الطاعن مستندا فيما قال، ولكن هذا المستند حتما ليس كتاب الله عزوجل وإنما هو أقوال المفسرين! أو محاولاتهم لتقديم تصور لما يتناولون، أما الآيات نفسها فكما رأى القارئ، فليس فيها لا تاريخانية ولا بدائية ولا أوصاف لأفعال همجية ولا معان سطحية بل هي معان عميقة شديدة بعيدة الغور سهلة النول والطول، ذهل المؤلف نفسه منها عند ظهورها له، فلم يكن يخطر له على بال أن تحتوي هذه السور تلك المعان والإشارات، ولكن من تدبر رأى وله العلم بان، ومن تفكّر عرف ومن عرف اغترف. وهكذا دوما وأبدا سيظل هذا الكتاب برهانا وحجة ودليلا دامغا على ربوبية مصدره، ورحمانية تكوينه وبيانه وعظمته. سيظل

كتابا يحتاج إلى غواصين مهرة يستخرجون درره ويجلون دفينه، يحتاج إلى أولئك النفر الذين يؤمنون أن دورهم مقتصر على سماع أمر الرب في كتابه وتدبره كما هو، وهؤلاء سيخرجون للعالم عجبا، وليس أولئك النفر الذين يجعلون كتاب الله كما يفهمون، وبغير ما قال يفسرون وعلى طبق من ذهب لغير المسلمين الشبهات يقدمون، فهؤلاء كانوا ولا يزالون متكأ كل طاعن. لذا نُذكرك عزيزي القارئ أن القرآن الكريم العظيم العزيز لا يحتاج إلى تفسير! وإنما هو كما بيّنَ لنا ربه مع الزمان وبالإنسان سيؤول جزءا جزءا إلى أن يأتي تأويله كاملا في اليوم الآخر العسير. وكما رأيت عزيزي القارئ فإن ألفاظ القرآن ليست غريبة بعيدة عسيرة وإنما هي قريبة سهلة يسيرة، والقرآن حقا كما وصفه الرحمن " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ [القمر: ١٧] " ولكن المشكلة هي ذلك الخوف والوجل من المسلمين في فهم الكتاب، وذلك التخويف من التعامل مع كتاب الله عزوجل. لذا فإنا نقول لكل إنسان مسلم:

إن القرآن رسالة من الرحمن إليك أنت مباشرة، وعليك أن تتعامل معه بنفسك وتتدبره وتتفكر فيه، ولا تكن من أصحاب الأقفال فهؤلاء هم شر البرية .

فاقرأ كتابك بكل فخار، فليس فيه أي محل للعار! فهو كتاب الهدي والرشاد، فليس عندنا ما نخجل منه أو نداريه أو نسلم به تسليم عميان مقلدين لما مضى وما كان، وإنما إيماننا إيمان بالبرهان ومعنا في ذلك وعليه الحجة والبيان .... كتاب الله الرحيم الرحمن .

كان الفراغ من هذا الكتاب في يوم الأربعاء، لسبع عشر مضين من ربيع الآخرة في عام تسع وعشرين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة، الموافق للثالث والعشرين من شهر إبريل في عام ألفين وثمانية بعد

ميلاد المسيح .

يمكن للقارئ الكريم التواصل مع الكاتب من خلال موقعه على الشبكة المعلوماتية: www.amrallah.com

المحتويات